

الفتوحات الربانية

في تفسير

اسماء الله الحسنى

بضابط الكتاب والسنة بهم إعلام الأئمة

(٢)

حُفُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

اسم الكتاب: الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى
اسم المؤلف: عزة بنت محمد رشاد
القطع: ٢٤×١٧ سم
عدد الصفحات: ٤٨٨ صفحة
سنة الطبع: ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

رقم الإيداع: ٨٢٧٤ / ٢٠١٨ م

ترقيم دولي: 5-230-390-977-978

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

المركز الرئيسي: فارسكور- تليفاكس: ٠٠٢٠٥٧٣٤٥٤٤٥٥ - جوال: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢
فرع القاهرة: ١٣ شارع البيطار- خلف الجامع الأزهر- هاتف: ٠٠٢٠٢٢٥١٤١٠١٥
فرع المنصورة: ٣٣ عزبة عقل - هاتف: ٠١٢٥٣٦٠٣٣٥

Web site: www.daribnragb.com

Email: ibnragb@gmail.com

الْفَتْوَى حَامِلُ السَّيِّئَاتِ

فِي تَفْسِيرِ

أَمْرُكَ يَا اللَّهُ الْحَسَنِي

بُضَائِطِ الْكُتُبِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ أَعْلَامِ الْأَئِمَّةِ

لِأَمْتَيْنِ

لِلْمَوْلَةِ حَمْدُ بَنِي مُحَمَّدٍ

الْمُجْتَهِدِ الثَّانِي

حَامِلُ الْفَسَادِ

فُلُورُ بْنُ رَجَبٍ

من إصدارات المؤلف

- الفقه الميسر (٦ أجزاء) فقه مقارن - مكتبة مكة - القاهرة - طنطا (ت: ١٤٢٣٤٨٩٨٥٣).
- أمراض القلوب - خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ١٤٢٣٤٨٩٨٥٣).
- التعليقات الجليلة على العقيدة السفارينية - للإمام السفاريني (٢ جزء) - دار الآثار - القاهرة (ت: ١٤٢٥١٢٥١٨٤).
- مجموعة بداية الهداية (أصول الإيمان - تفسير القرآن - فقه الحلال والحرام - الحديث) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ١٤٢٢٣٦٨٠٠٢).
- الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى (٢ جزء) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ١٤٢٢٣٦٨٠٠٢).
- عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ١٤٢٢٣٦٨٠٠٢).
- الدرر البهية - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة - مكتبة/ دار ابن الجوزي بالقاهرة (ت: ١٤٢٥٠٦١٦٢١ - ١٤٢٥٠٦١٦٢٠).
- المحجة البيضاء في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ١٤٢٥٠٦١٦٢١ - ١٤٢٥٠٦١٦٢٠).
- محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ١٤٢٥٠٦١٦٢١ - ١٤٢٥٠٦١٦٢٠).
- بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين - مكتبة آل ياسر - القاهرة (ت: ١١١٤٤٥٨٤٤٤).

الموقع الرسمي لأم تميم

omtameem.com

الصفحة الرسمية لأم تميم على الفيسبوك

<https://www.facebook.com/Om.Tameem.Dr.Azza.Mohamed>

مُقْتَلَفَتَا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتابي «الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى»، وقد حوى الكتاب خمسة وعشرين اسمًا من أسماء الله الحسنى. أما عن منهج الكتاب فقد سرت على نفس منهج الجزء الأول، ولذلك من الأهمية بمكان أن يطلع القارئ على مقدمة الجزء الأول ليتسنى له معرفة الأصول والقواعد المتبعة في تصنيف الكتاب.

وختامًا: أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يضع القبول في قلوب المسلمين لهذا الكتاب، وأن يجعله سببًا في معرفة معاني أسماء ربهم وصفاته، فيزداد في قلوبهم حب الله والخوف منه، فمن المحال أن تستقيم عبادة المرء بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، فلا بد من أن يجتمع الحب لله والخوف من الله في قلب العبد، وبهما تتحقق العبودية التي من أجلها خلق الله تعالى الإنس والجن.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن شاهين

٥ شوال ١٤٤٢هـ / ١٧ مايو ٢٠٢١م

اسم الله

اللطيف

١٨

اللطيف

هذا الاسم العظيم، ورد في النص بصورة الإطلاق، كما ورد مقيداً، وهو من الأسماء التي عدّها جميع العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى من أسمائه تبارك وتعالى، عدا العلامة الأصبهاني -قوام السنة-^(١).

أما الآيات التي ذكر فيها مقيداً:

الأولى: في قوله -جل ذكره-: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف].

الثانية: قال -جل ثناؤه-: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى].

وأما الآيات التي ذكر فيها مطلقاً:

في قوله ﷻ: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِكُنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ أَيْدِي اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب].

وقال جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج].

(١) راجع -إن شئت- جمع الأسماء الحسنى في الجزء الأول من الكتاب -باب: التمهيد.

وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣) [الأنعام].

فائدة مهمة:

آية سورة الأنعام هي أول الآيات التي ورد فيها ذكر اسم الله «اللطيف»، هذه الآية استدلت بها أصحاب الفكر المنحرف من الفرق الضالة -المعتزلة والجهمية، ومن وافقهم من الإمامية والخوارج- أن المؤمنين لا يرون ربهم يوم القيامة، وما لهم به من علم ولا حق، إنما هي فرية افتراها أهل الباطل، إذ يدعون حرمان المؤمن من أعظم النعم يوم القيامة، وهي رؤية وجه الرب تبارك وتعالى، النعمة التي طالما دعا بها الداعون، وشمر للحصول عليها المشمرون، وسعى إليها المجتهدون، فأَي ضلال هذا الذي يعتقدونه ويدعون إليه!!.

الرد على من نفى رؤية الله في الآخرة:

في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ

الْلطيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣) المقصود بالرؤية هنا: هي الرؤيا في الدنيا، وقد أطبق

علماء أهل السنة على هذا، ولما قال موسى كليم الله لربه تعالى: ﴿رَبِّ ارْنِيْ

أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف)، فقال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى

الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ (الأعراف)، ومن المعلوم

عند علماء أهل السنة أن الأحكام الشرعية تعرف بجمع الأدلة من الكتاب

وصحيح السنة، إذ لا تعارض بأي وجه بين نصوص الكتاب والسنة.

ولقد قال ربنا جل ذكره: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٢)

[القيامة]، فأين هؤلاء الضالون من هذه الآية الصريحة في إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة؟!

فهل كلمة: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ تعني شيئاً آخر إلا النظر! أوليس الأصل في التفسير هو جريان الكلام على ظاهره؟!

الأدلة من السنة على رؤية الله تعالى في الآخرة:

اعلم أن أحاديث رؤية المؤمنين ربهم -تبارك وتعالى- في الآخرة بلغت حد التواتر، ونذكر منها: حديث جرير بن عبد الله، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً -يَعْنِي الْبَدْرَ- فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

فالمؤمنون وقتها لا ينضم بعضهم لبعض، ولا يتدافعون لرؤية الله، بل يرونه بلا إشكال ولا عناء أو مشقة، وضرب المثل هنا للتقريب، ففيه تشبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، وهذا خاص للمؤمنين؛ حتى وإن بلغ عددهم ما بلغ، لا للكافرين، ولا للمنافقين عقدياً؛ بل هؤلاء مَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) [المطففين].

ومن الأحاديث التي جاء فيها إثبات رؤية الله يوم القيامة أيضاً حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ»^(٢)، فعدم وجود الحجاب

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٤) واللفظ له، وأخرجه مسلم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦).

بيننا وبين ربنا في الآخرة، فيه إثبات للرؤية، والأدلة في هذا أكثر من أن تحصر في هذا المقام.

ويكفي أن نعلم: أن أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبت الله ﷻ لنفسه، وأثبت له نبيه ﷺ، وهذا من أهم ما ميز معتقد الفرقة الناجية عن سائر الفرق الضالة التي حذر من اتباعهم النبي ﷺ، وأخبرنا أن مآلهم إلى النار - ما لم يعف الله تعالى عنهم -، فمن أراد النجاة فعليه بالعلم، فلن تعبد ربك على بصيرة بغير العلم، وقد قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات]، فلا حجة لمن استطاع التعلم وتكاسل عنه، ولا حجة لمن رأى أمامه الحق والباطل وتهاون في السير في طريق الحق بداعي طول الطريق أو صعوبته، فالحق يسير على من يسره الله عليه.

□ معنى اسم اللطيف في اللغة:

اللام والطاء والفاء أصل يدل على رفق، ويدل على صغر في الشيء ^(١). والكلام هنا عن المعنى اللغوي، فالأصل الموضح هنا يدل على الرفق لا الرفق بذاته، فهناك فرق بين اسمه الرفيق، واسمه اللطيف، ولكن اسم اللطيف يدل على الرفق.

قال الجوهري رحمه الله: لَطْفَ الشيء - بالضم - يَلُطِّفُ لَطَافَةً: أي صَغُرَ. فهو لطيف، واللفظ في العمل: الرفق به، واللفظ من الله تعالى: التوفيق والعصمة، وألفه بكذا، أي برّه به، والاسم: اللَّطْف بالتحريك، يقال: جاءتنا لَطْفَةٌ من فلان، أي هدية، والمُلاطفة: المباراة، والتلطف للأمر: الترفق له ^(٢).

(١) معجم مقاييس اللغة (٥ / ٢٥٠) مادة (لطف).

(٢) الصحاح (ص: ٩٤٧).

قال ابن الأثير في تفسيره: اللطيف هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه، يُقال: لطف به وله، بالفتح يَلُطِفُ لُطْفًا: إذا رَفَّقَ به، فأما لُطْفٌ بالضم، يَلُطِفُ: فمعناه صَغُرَ ودَقَّ (١).

قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللهُ: لطف فلان لفلان يَلُطِفُ: إذا رفق لُطْفًا، ويقال: لطف الله، أي: إذا أوصل إليك ما تحبه برفق (٢).

فاللطيف سبحانه يعلم دقائق حاجات العباد، وما يصلحهم، فبرفقه عليهم يقدِّرها لهم؛ حتى وإن لم يعلموها، أو يروها.

□ **معنى اللطيف في حق الله تعالى:**

قال -جل ذكره- عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠) [يوسف].

قيل في معنى اللطيف في الآية: هو البر بعباده، الذي يلفظ بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) [الشورى] (٣).

يبر عباده، فيكرمهم بصنوف النعم، علموها أم لم يعلموا، طلبوها أم لم يطلبوا، سعوا في تحصيلها ودبروا ورتبوا لجَنِّها أم لم يفعلوا، فإن أراد بهم اللطيف لُطْفًا أوصل لهم الخير من حيث لم يحتسبوا، فكم من النعم وصلت إلى العباد بغير سعي منهم، ولا تدبير، ولا طلب.

(١) اللسان (٨ / ٨٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩ / ٢٧٤).

حكيه في لطفه، لطيف في حكمه...

قيل فيه أيضًا: إذا أراد أمرًا قيد له أسبابًا، وقدره ويسره: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾، بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره وما يريد^(١).

وقيل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾:.... ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها^(٢).

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ دلالة أن لطف الله ﷻ لا يكون إلا عن علم وحكمة، فيلطف بالعبد في الموضع الذي ينفعه وبالشئ الذي يصلحه؛ لعلمه بحاله وماله.

فيلطف بشخصٍ بأن يُقدِّر له الولد؛ لعلمه أنه إن عدم الذرية سخط على أقدار الله فيهلك، وقد يقدر عليه ابتلاء آخر يطيقه؛ كمرضٍ، أو فقرٍ، أو يعافيه، ويلطف بآخر بأن يجعله سليم البدن، قوي الجسم؛ لكن لا يرزقه من المال الكثير، ويلطف بثالث بأن يرزقه أموالاً كثيرة؛ لعلمه أن الفقر سيجعله من الساخطين، فيخسر دنياه وأخراه، وقد يكون الفقر والمنع من اللطف، فربما يُرزق المرء قوة في بدنه فيصبح من الجبارين في الأرض فعافاه الله من هذا، وربما إن رزق مالا كان ممن يكتزون الذهب والفضة، فجعله ربه فقيرًا

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٠٥-٤٠٦).

ليقيه شرور نفسه، وهكذا، فمن لطفه بعبده أن يعافيه من الأسباب التي تضعف إيمانه وتنقص يقينه.

فعسى أن يكون ما تراه أنت مكروهاً هو عين الخير، وعسى أن يكون ما تراه أنت محبوباً هو عين الشر، فالله يعلم، وأنت لا تعلم، فإن كنت لا تعلم حال نفسك التي بين جنبيك وخصائصها وخفاياها وآفات وأمراضها، فكيف ستعلم ما يصلحها وما يصلح من حولك من أبناء وأهل وأقربين؟! أما الرب العليم فإنه يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

ومن لطفه في حكمه تيسير الأسباب لبلوغ المنازل العلى:

ربما لا يبلغ أحدنا منازل الصالحين التي أرادها الله له من خلال أعماله وطاقاته، لكن اللطيف يقدر أقداراً، قد تظهر لنا في صورة ابتلاء ولنا فيه أجراً وطهوراً، لكن زيادة على الأجر والتزكية والتطهير، فهي رفعة وعلو في منازل الكمال، فقد يجد المرء نفسه في الآخرة، مع الشهداء، والنبين، والصديقين، وذلك من لطف الله ﷻ به، وقد تكون تلك الرفعة والمنزلة في الدنيا قبل الآخرة فلطفه سبحانه واسع....

فَمَنْ تمنى امرأة بعينها زوجاً له، وَمَنْ تمنى داراً بعينها سكناً له، وَمَنْ تمنى عملاً بعينه سبباً له في الرزق، ودعا كل منهم وألح، وظن أن سعادته فيما تمنى،

ثم لم يوفق أحد منهم لما أراد، فعليهم جميعاً أن يوقنوا أن ربهم بهم لطيف رحيم، سواء رأوا اللطف أم لم يروه.

اللطف يؤتاه العبد في تلك الحال من جهتين:

مَنْ غفل عن هذه المعاني ولم يدرك أن ربه له الكمال في الأفعال، ولم يوقن بلطفه وحكمته في أقداره، فقد يلطف ربه به في هذه الحال بألا يُنزل به العقوبة جزاء سخطه وضجره في الحال؛ بل يحلم عليه ليتوب ويرضى فيلطف به بأن يقدر له أكثر الأمور خيراً، ويدفع عنه أكثرها شراً.

لكن دأب كثير من البشر، ألا يسبق نظرهم أطراف أقدامهم، ولا يجاوز تفكيرهم الرغبة العاجلة، ويغفلون عن كون اللطيف هو من أصلح لهم المنافع والمصالح من حيث لم يحتسبوا، وأعلى منازلهم في الدنيا والآخرة من خلال أمورٍ قبلوها أم لم يقبلوها، وأوصل إليهم البر والإحسان من حيث لا يشعرون، بل ساق لهم الخير في أوقاتٍ مقدرة لا تنصلح أحوالهم إلا فيها، فلنصبر ولنستسلم لأقداره سبحانه ففيها الخير كله لا ريب.

آثار لطف الله جلّ وعلا في الكون:

آثار لطف الله في الكون عظيمة، فيعجز الإنسان عن حصرها، فبإمعان النظر والتأمل نجد أن اللطف له صور كثيرة جداً منها:

لطف التكريم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]

إذا تأملت، ودققت النظر في مخلوقات الله، ستعلم أن الله ﷻ كرمك أيما تكريم، فأنت تمشي على رجلين ومن المخلوقات من يمشي على بطنه، وميّز سبحانه شكلك عن شكل الحيوانات كالقرد والحمار وعن شكل الحشرات كالخنفساء والصرصور، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ [التين].

وكذلك ميّزك بالعقل والعلم، وهذا كله من لطف تكريمه سبحانه، فإن كان الرب تبارك وتعالى قد ميّز الإنسان هذا التمييز وكرّمه هذا التكريم فحريّ بالمؤمن ألا يذل نفسه وينقص من قدرها، يفضل عقله ليعبد غير الله فيصير كمن خلقوا ضعاف العقل أو لا عقل لهم ولا فهم، أو يصير متبعاً لشهواته كاتباع الدواب لشهواتها دون ضبط للنفس ولا تحكيم للعقل.

لطف التسخير:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٢﴾ [إبراهيم].

وقال -جل ذكره-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٣﴾ [إبراهيم].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿١٥﴾ [الملك]، فكل هذا تسخير.

سخر: أي ذلل الأشياء ومهدّها ويسرها.

فلا أنهار أو بحار تطغي، أو تختل خصائصها فتغرق السفن فيها، بل تطفو فيحصل النفع بسيرها فوق الماء، ولا شمس تقترب، أو تبتعد فتختل حرارة الأرض، ولا جبال تندك فيختل الاتزان والثبوت، ولا سماء تنطبق على الأرض فتهلك بما فيها وبمن فيها، كل هذه الأمور من لطف التسخير.

ومن لطف التسخير أيضًا: أن سخر الله تعالى لنا الآن وسائل المواصلات بمختلف أنواعها، والتي لم تسخر لمن سبقونا، وكان كثير من المسلمين في صدر الإسلام يملكون من القوة البدنية ما لا يملكه كثير منا الآن.

فإن كانت الأمراض قد ظهرت الآن، وانتشر التلوث والضعف، فقد لطف بنا اللطيف بأن يسر لنا وسائل مواصلات فائقة السرعة، فتنوعت الطرق، وصار الأمر أكثر راحةً وتذليلاً بفضل الله ﷻ علينا.

في حين أن وسائل السفر قديمًا للحج، أو للتجارة مثلاً كانت الدواب، أو السير على الأقدام لأيام وشهور، فهب أن هذا اللطف لم يقدره الله، فمن منا الآن يستطيع أن يسافر لطلب العلم أو للتجارة أو للحج والعمرة وغيره على قدميه أو على دابة يمتطيها لشهور طوال؟!

اللطيف في التقدير:

«إنما يستحق هذا الاسم، من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في العلم تم معنى اللطف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا الله تعالى، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق.

وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضاً تحت الحصر، إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم «اللطيف»^(١).

فما خفي عليك، فهو به عليم، وما غاب عنك، فعنه لا يخفى ولا يغيب، فالخفي مكشوف له كالجلي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ]، يرزقك الخير مهما دق وصغر ومهما غابت عنك منافعه، يرزقك الخير بلطف لا شدة، حتى وإن كان الخير لك في الابتلاء، فيرزقك معه السكينة والراحة والهدوء، ومن فقد معرفة هذا المعنى فقد خيراً كثيراً، فاللطيف لا يكون لطيفاً إلا إذا لطف في علمه، ورفق في عمله، ولا يرفق في العمل الرفق التام إلا من علم دقائق الأمور معرفة تامة، ومن علم كعلم الله، ومن رفق كرفق الله؟! وبقدر تأملك وإمعانك النظر في أفعال الرب تبارك وتعالى بقدر استشعارك للطفه ﷻ وفهمك لهذا الاسم العظيم.

ومن مشاهد لطف التقدير....

١ - لطفه بالجنين في بطن أمه:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقيل: إن الظلمات الثلاث: ظلمة المشيمة - وهي الغشاء المحيط بالطفل -، وظلمة الرحم، وظلمة البطن.

وهذه الآية تعد من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ إذ لم يكن

(١) انظر: المقصد الأسنى (ص ٧٥).

على عهد النبي ﷺ علم الأحياء والتشريح، فمن أخبر الأمي -محمدًا ﷺ- بما في بطون وأرحام الأمهات؟! ومن أخبره أن تلك الظلمات ثلاث؟!، فمن يعلم في هذا العصر ما يسمى بالمشيمة، ومن يعلم مراحل تكوين الجنين من نطفة وعلقة ومضغة؟! فوالله ما أخبره إلا خالقها ﷻ.

والطفل في وسط تلك الظلمات وتلك الوحدة لا يعلم حاله إلا العليم، ولا يلطف به ويرفق إلا الرفيق، سبحانه أرفق به من أمه التي تحمله، فوصل إليه غذاءه بأكمل طريقة، والتي لا يمكن على الإطلاق أن يكون هناك أفضل منها، ثم ينفصل عنها بعد ولادته، فيلهمه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في الظلام الدامس من غير تعليم ولا مشاهدة.

كثرت نعم الله علينا وإحسانه إلينا، ولكن ألهانا التكاثر...

ألهانا التكاثر بالأموال والأولاد، ألهانا التكاثر باللهو واللعب، ألهانا السعي وراء الرزق، فالرجل من الصباح إلى الليل في عمله، والمرأة كذلك، منشغلة بدنياها ودنيا أولادها، فإن أنعم الله ﷻ عليهم بأوقات فراغ ضيعوها في الجلوس أمام شاشات الحاسوب والهواتف والبرامج التي ما جنينا منها إلا قتل الوقت -الذي هو رأس مالنا في هذه الدنيا- شغلتنا دنيانا عن التفكير في آلاء الله بالرغم من كونها تحيط بنا، وهذا من الطوام ومما عمت به البلوى، ويعد من أسباب نقصان الإيمان في قلب الإنسان ووقوعه في كثير من المعاصي والذنوب، فعدم التفكير والتدبر سبب أكيد لعدم العلم عن الله ﷻ، وقد حث سبحانه عباده على التفكير والتأمل في أكثر من آية في كتابه العزيز، قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴿الغاشية﴾، ومثلها من الآيات الكثير، فداوم على التفكير في آلاء الله ولو لوقت قليل يزداد إيمانك، وتزداد الرغبة فيما عند الله، وتقمع الشيطان بعلو الإيمان، فلا يجد إلى إغوائك سبيلاً.

٢- لطفه في خلقه وتصويره لعباده...

خلق الله الطفل الصغير يعلم طريقة بديعة لإيصال الطعام لجوفه بلا تعب ومشقة -ولا أبداع من هذه الطريقة كما ذكرنا- وخلق في ثدي الأم لبنًا يخرج نظيفًا مغذيًا -وهذا من اللطف بالطفل-، وخلق الطفل الصغير بلا أسنان ليتمكن من التقام ثديها بلا تعب لها ولا له -وهذا من لطفه بالأم- وبالرغم من شعور الأم ببعض المشقة في الرضاع إلا أن إلصاق الطفل بصدرها في هذه المدة فيه شعور بالأمان لها وللطفل، لا تنكره أم جربت الرضاع أبدًا -وهذا من لطفه بهما جميعًا- ثم ما إن كبر الولد أمر سبحانه بفصله عن الرضاع؛ لأن ما يصلحه الآن مضغ أنواع الطعام، فكل هذا من لطفه بالخلق.

٣- وتأمل لطفه في خلق اللسان:

اللسان هو آلة النطق، وبسبب حركته الدائرية المستمرة -في هذا المكان الضيق وهو الفم- يتم تحريك الطعام في الفم لتسهيل عملية المضغ ومن ثم البلع فالهضم، فقدر الله ﷻ للسان التحرك داخل الفم لسهولة عملية الأكل، وقدر لأسنان الإنسان ألا تقوم بمضغ لسانه وهو في فمه وهو ملاصق للطعام حتى تستقيم حياته، فهل فكر أحد منا يوماً لماذا لا يؤكل اللسان وهو قطعة من اللحم قد تمضغها الأسنان بسهولة؟! إنه لطف اللطيف في تكوين وتصوير خلقه...

٤- لطفه في تيسير وصول الطعام إليك...

فلا حُ أصلح أرضه للزراعة، ثم بذر فيها البذر، ثم سقى ورعى ما يصلح أرضه وما يفسدها، ثم حصده وجمع، ثم باعها لغيره، لتذهب للدرس ثم الطحن، ثم آخر يخبزها، وغيره يحملها ويشحنها، وآخر يبيعها إليك..... ثم تصل إليك تلك اللقمة بعدما سخر اللطيف كل هؤلاء لإصلاحها لتقول أنت: هذه اللقمة لا تعجبني، وهذه لا أحبها، وتلك تزيد عن حاجتك فترميها في القمامة بلا اهتمام!! ما ألطفه بنا، وما أكفر ابن آدم للنعم إلا من رحم ربي، فربما نظر للطف التكريم إذ أكرمه الله بالنعم، لكنه غفل عن لطف التسخير إذ سخر الله ﷻ له من يوصل له تلك النعم في هيئة زارع وحاصد وخباز وسائق وبائع للسلع، وغيرهم، وهذا في كل نعمة تصل إليك، فتفكر! ولا تكن من الغافلين.

فإن فهمت هذه الأنواع الثلاثة من اللطف -التكريم والتسخير والتقدير- علمت أن كل أمر في هذا الكون يديره اللطيف سبحانه بحكمة من حيث أوجده، ورتبه لأنه المصور، ووضع كل شيء في موضعه لأنه الحكيم العدل، وعلم دقائق الأمور فرفق فيها لأنه اللطيف الرفيق، فاعلم تلك الحقيقة لتدعو الله ﷻ بأسمائه على الوجه الذي يرضيه.

٥- لطفه في تكليف العباد...

من لطف التقدير أن الله ﷻ كلف الخلق بما يطيقون، وأعطاهم من القوة والقدرة على القيام بتلك التكاليف الكثير والكثير، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كلفنا الله تبارك وتعالى بصلوات خمس، بالرغم أن من الخلق من

لهم القدرة على صلاة السنن الرواتب وقيام الليل والتنفل المطلق بما يزيد عن الخمس بأضعاف مضاعفة، وكذلك الصيام ألزمننا بصيام شهر واحد في العام، ومن الناس من له القدرة على الصيام معظم أيام العام، وهكذا..

وأوصلك إلى الجنة بسعي خفيف في مدة قصيرة:

فسعي الإنسان في هذه الدنيا ضعيف مهما بلغ عمره، فضلاً عن قصر هذا العمر لهذه الأمة إذ قال رسول الله ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِّينَ، إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»^(١). وهذه الستون أو السبعون يتخللها فترات تخلو من سعيه واجتهاده، ففي طفولته إلى أن يشب لا تكاليف ولا حساب، فينقص من هذه السبعين أول عشر سنوات تقريباً، ثم ينقص منهم أيضاً تقريباً ثلثهم للنوم، وكثير من تلك السنين أيضاً تكون في مرض وهرم وكبر لا يكلفه الله فيها بكثير من الأمور التي يكلفها الشاب الصحيح، وينقص من هذا العمر أيضاً السعي في الدنيا في المباحات - من سعي على الرزق والتعلم والدراسة والاهتمام بالأزواج والأبناء والضيقات وغيرها - وليكن نصف هذا العمر المتبقي، ففي النهاية يتبقى عدد قليل جداً من السنوات التي إن سعى فيها الإنسان بجهد واجتهاد - ولم يقصر ولم يفتر أو يتكاسل - ما استحق على اجتهاده جنة تدوم ولا تفنى، الخلود فيها بلا موت والسعادة فيها بلا كدر، فكيف يتعبد إنسان لربه سنوات قليلة يجازيه

(١) رواه الترمذي (٢ / ٢٧٢)، وابن ماجه (٤٢٣٦)، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم (٧٥٧).

الله عنها جنة عرضها السماوات والأرض لا تفنى أبد الآباد! وقد قال فيها رسول الله ﷺ: «وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١)، ولذلك يقال لسفهاء الأحلام الأشقياء -يوم القيامة- على وجه اللوم والتبكيت: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ [المؤمنون].

«وقيل اللطيف: من وفق للعمل في الابتداء، وختمه بالقبول في الانتهاء»^(٢).
فما عمل العاملون وصبر الصابرون إلا بفضلته وتوفيقه وكرمه، أما من ظن أنه عمل بقدرته وقوته واجتهاده وهمته وحده ولم ينسب الفضل لله، فقد أعظم الفرية، وكذب على نفسه وكفر إحسان ربه، وبالرغم من توفيق الله له ابتداءً إلا إنه يختم عمله بالقبول انتهاءً، وهذا من تمام لطفه بخلقه.

«وقيل: هو الذي ولي فستر، وأعطى فأغنى، وأنعم فأجزل، وعلم فأجهل»^(٣).
فالله ﷻ يتولى العبد، ويستر معايبه عن الخلق، ويعطيه من فضله، ويغنيه عن سؤال غيره، حتى وإن كان فقيراً، فكم استغنى الفقير عن سؤال غيره أن يطعمه اللقيمات، أو يرفع ليده كوب الماء؟! تلك نعم وغنى لا يستشعرها كثيرون، فالبعض يظن أن الغنى مال فحسب، لكن الغنى أشمل من ذلك بكثير، فسبحانه أعطانا فأجزل لنا العطاء، وأغنانا عن خلقه وعلمنا ما ينفعنا في ديانا وآخرانا، وأعظم الغنى أن ترزق نفس قانعة بما قُدِّرَ لها وإن كان قليلاً.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) لوامع البينات (ص ٢٤١).

(٣) المصدر السابق.

٦- لطفه مع أدق المخلوقات وأصغرها:

تأمل عالم النمل، كائنات صغيرة جدًّا، لا يكاد الإنسان يشعر بها إن كانت متفرقة، لكن من لطف خالقها بها أن أعطاها من الذكاء والدهاء والفتنة والحيلة الكثير الذي ربما لم يتميز به غيرها من المخلوقات كبيرة الحجم، ويظهر ذلك جليًّا في تنظيمها وترتيبها وتديرها لمصادر الطعام وإخفائها عن كل من يُعد لها عدوًّا. ومن مظاهر فطنتها أيضًا ما ورد في قصة سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

يقول أهل التفسير: تكلمت النملة فيها بعشر أنواع من الخطاب في هذه النصيحة:

«النداء والتنبية، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار»^(١).

فاللطيف وهبها من حسن المنطق، ما تستطيع به أن تتحدث في جملة واحدة بعشر أنواع من الخطاب! ولذلك أعجب سليمان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وفي تبسم سليمان لطيفة لا نفوتها لأهميتها: تبسم نبي الله سليمان عليه السلام

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ١٥١-١٥٢).

لما سمع كلامها وإعذارها له، تبسم ضاحكاً وفرحاً ومعتزلاً بمنة الله وفضله عليه إذ علمه منطق النمل وغيره، وهذا حال الصالحين المتقين من عرفوا معبودهم حق المعرفة وعبدوه حق العبادة، إن أصابتهم نعماء شكروا وحمدوا ونسبوا النعمة لمن أنعم بها، من غير استكبار ولا طغيان لكن بشكر وعرفان.

٧- ومن لطفه في التقدير، تقديره للرياح والإعصار والزلازل وما شابه:

بالرغم من أن ظاهر هذه الأمور الدمار والخسائر والألم، وبالرغم من جهل بعض الخلق بمنافع تلك الظواهر أو خفاء حكمتها على البعض، إلا أنه يستحيل إنكارها، فأفعاله سبحانه كلها حَكَمٌ وكمالات، فالزلازل تُعد نوعاً من طرق التنفس للأرض، ويستخرج بها عبوديات كثيرة من الخلق قد لا تستخرج بغيرها، فهذا يخشع ويخضع، وهذا يتوب لربه ويقلع عن المعاصي، وهذا يتذكر أمر الآخرة، ويعلم قوة ربه وقدرته عليه، فيقبل إليه بالطاعات، فقد قال تعالى: ﴿فَاخَذْنَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٤٢) [الأنعام]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) [الأعراف]، وورد أن الأرض قد زلزلت في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوقف يخطب في الناس فقال: «والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم»^(١)؛ وذلك لعلمه أن الزلازل قد تكون عتاباً من الله وقد تكون غضباً، وأسباب الغضب الذنوب والمعاصي، وإن

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٤٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٣/ ٣١٨)، وابن الجوزي في المنتظم (٤/ ٢٩٥).

كان الحال كذلك فالعذاب والغضب يرفع بالتوبة النصوح.
وتلك الظواهر بما فيها من بعض التألم للخلق إلا أن لطف الله يشملها
أيضاً، فقدّر سبحانه الزلازل لكن لطف فيها فآثارها ربما كانت معدومة،
وربما كانت طفيفة، وإن كانت آثارها كبيرة فقد لطف الرب جل وعلا فلم
يجعلها أكبر مما هي عليه، فهو قدير أن يُزلزل الأرض زلزلةً تدك من فيها
ويشتد الإعصار فيدمر كل شيء في لحظات، لكنه سبحانه يخوّف عباده
ليذكّره أن الملك القوي القدير الذي لا يتعاضمه شيء.

ومن أنواع لطف التقدير:

لُطْفٌ في الإيجاد، ولُطْفٌ في الإعداد، ولُطْفٌ في الإمداد، ولُطْفٌ في الابتلاء.
لُطْفُ الإيجاد: قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان]، فكانت الخلائق أجمعين عدماً، فلطف بهم الرب
فأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئاً، وذلك بتيسير الأسباب لذلك، بوجود الأب
والأم، واجتماع ماء الرجل وماء المرأة وتقديره للنطفة فالعلقة فالمضغة بما فيه
من رفق ودقة كما سبق بيانه، فلولا لطف إيجاده سبحانه لنا ما خلقنا وما كنا.

لُطْفُ الإمداد: فبعد أن أوجدك وخلقك وصورك وجعلك في أحسن
تقويم أمدك بالنعم الظاهرة والباطنة علمتها أم لم تعلمها، فأمدك بالسمع
والبصر والكلام والعقل وبحسن الخلقة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين]، وكذا علمك ما لم تكن تعلمه، كل هذا محض إنعام
منه وتفضل وبغير دعاءٍ سابق، وذلك كي تستقيم حياتك.

ومن لطف الإمداد: «إذا قدر له طاعة جليلة لا تُنال إلا بأعوان، أن يقدر له

أعواناً عليها ومساعدين على حملها، قال موسى ﷺ: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ
 ٢٩ هَارُونَ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ٣١ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ نُسَيِّدَكَ كَثِيرًا ٣٣﴾
 وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ [طه]، وكذلك امتن على عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
 الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ١١١﴾
 [المائدة]، وامتن على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ
 وَبِالْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال]، وهذا لطف لعبده خارج عن قدرته^(١).

لُطْفُ الإِعْدَادِ: خلق الله ﷻ الخلق لغاية -وهي العبادة- ويسر لهم
 سبل الوصول لها وتحقيقها، وذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين،
 وإنزال الكتب، وتيسير سبل العلم، وتبصير الأنفس بعيوبها، وتيسير طرق
 فعل الطاعات، وتبغيض القلب في المعاصي، فكل هذا يسمى الإعداد وهو
 من لطفه سبحانه إذ أوصل لخلقه مصالحهم ومنافعهم من حيث لا
 يحتسبون ولا يعلمون.

فَمَنْ أَجَابَ دَاعِيَ اللَّهِ، واستجاب لأمره، واجتنب نهيه أسعده الله في
 الدنيا بالأنس به، ويا لها من سعادة لا يعلمها إلا من ذاقها، فليس مَنْ سَمِعَ
 كَمَنْ رَأَى، وليس مَنْ رَأَى كَمَنْ ذَاقَ، فكثيرون يأنسون باللهو واللعب
 والأغاني والفواحش، والمؤمن يسعد بركعتين في جوف الليل، وبدمعة من
 خشية الله، وبظماً الهواجر في صيام اليوم شديد الحرارة، فالمستأنسون
 بربههم في سعادة، وهذه السعادة من لطفه سبحانه لتثبيت المؤمنين على طريق
 الحق ثم يمن الله عليهم في الآخرة ويجعل جزاءهم الجنة، ورؤية وجهه

(١) ما بين القوسين من المواهب الربانية (ص ١٢٣).

الكريم والسعادة الأبدية السرمدية.

ويفتقد تلك السعادة في الدنيا - التي لا شبيه لها ولا نظير - كثير ممن يظنون أنهم يحصلونها بنزهة مليئة بالمحذورات، أو باختلاط محرم أو بكأس خمر، أو بسماع الغناء الذي حرمه الشرع، أو بالزنا والفواحش والعياذ بالله، فوالله تلك الضحكات التي تتعالى من أصحاب الشهوات ليست بمقياس للسعادة على الإطلاق، فغالب حالات الانتحار من الغارقين في ذلك المستنقع، فهو لاء ما عرفوا للسعادة طريقاً ولا ذاقوا لها طعمًا، فما عرفها على حقيقتها إلا من آمن وصدق ولزم أمر ربه وأقبل عليه وأحبه.

لطف الابتلاء: أَوَيكون اللطف في الابتلاء؟! نعم، قال رسول الله ﷺ:

«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنَزَلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاءُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ»^(٢)، وغيرها.

فمن قصرت همته، وقصر عمله، ولكن علم ربه من قلبه الخير - وهو اللطيف الذي يعلم دقائق وخبايا القلوب - ربما ابتلاه ببعض الابتلاءات ليرفع له بها الدرجات ويحط عنه من السيئات، وكأنه يساق للجنة سَوْقًا، ويُدفع لجنات عدن دفعًا، فما أعظم لطفه! فسبحانه اللطيف في ابتلائه وعافيته وعطائه ومنعه.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح

(٢/١٦٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٩٩)، وفي صحيح الترغيب

والترهيب (٣٤٠٩).

فمن لطفه أن يكون البلاء شديداً - كفقد الولد - ولكن الله يعلم أن هذا الابتلاء بمثابة طوق النجاة للمبتلى، فينزل عليه السكينة فتهداً نفسه ويسكن قلبه، حتى أنه إن رُئي لم يُعرف أبتلي هو أم كان من المعافين؟ وإن رآه غيره ممن عافاهم الله من مثل ما ابتلي به تعجبوا من صبره ورضاه، وسألوا الله ألا يروا ما قد رأى، وحق لهم فلا يتمنين أحد منا البلاء أبداً، ونسأل الله العافية، لكن من رضي عنه ربه رزقه مع ابتلائه رزقاً حسناً، وهو الرضا عنه وعن أقداره سبحانه، فكن على يقين أن ربك بعباده لطيف خبير....

وربما قال قائل: إن كان الرجل صالحاً، وابتلي بالفقد أيضاً، فما السبب؟!

نقول: قد ورد مثل هذا في قصة الخضر وموسى -عليهما السلام- في سورة الكهف، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) [الكهف]، فقد يكون الابتلاء للتطهير، ولتكفير الذنوب، وقد يكون لرفعة الدرجات، أو للمعافاة من ابتلاء أشد وأكبر، كأن يكون الولد كافراً ويتسبب في كفر أمه، وأبيه، أو ارتكابهما للمعاصي، أو يصابان بسببه بحزن أكبر من حزن فقده بكثير، فيبتليان بالفقد ويرزقان معه الرضا والصبر والأجر العظيم، فما أطفك يا لطيف وما أكرمك وما أرحمك بنا.....

لطف التدبير:

قال ابن القيم: «أن يُريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع

هذا فلا خروج له عما قُدِّرَ عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه؛ لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيُّله في رده فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريقًا كالهيئة، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف»^(١). انتهى

قال تعالى عن الإنسان: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]،

فحرص الإنسان على حصول المال وغيره من الخيرات، حرص جبلي لا ينكره أحد ولا يلومه عليه لائم - ما لم يصحبه إثمًا أو بغيًا أو غفلة عن الذي من أجله خلق -، وجهله بالغيبيات وافتقاده للحكمة في كثير من الأمور لا ينكره أحد أيضًا، فمن لطف الله تعالى بك أن أراحك من الأفكار المتعبة وذلك بأن قَدَّرَ عليك مقادير، فلو قام المسلم بما عليه وطرق سبل الخير التي أجازها له الشرع واجتهد فيها ثم استسلم لتلك التقديرات والاختيارات من الرب العليم الحكيم الخبير لكان هذا سببًا في راحته واستقرار نفسه واطمئنائها، أما من انشغل تفكيره بما سيحدث وطلب الكمال في مآلات الأمور فهذا يشق على نفسه، وقد أراد الله له الراحة بأن أفرغه من التقدير لنفسه والتدبير لها، بل كان هو سبحانه المدبر والمقدر للمقادير، فقدرها بلطفه وحكمته وعلمه بالحال وبالمآل.

(١) فوائد الفوائد (ص ١٧٦).

تأمل لطفه بيوسف ﷺ:

«لما تنقلت بيوسف -عليه الصلاة والسلام- تلك الأحوال، وتطورت به الأطوار من رؤياه وحسد إخوته له، وسعيهم في إبعاده جداً، واختصاصهم بأبيهم، ثم في محنته بالنسوة، ثم بالسجن، ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة، وانفراده بتعبيرها، وتبوءه من الأرض حيث يشاء، وحصول ما حصل على أبيه من الابتلاء والامتحان، ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السار، وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع، والاجتماع العظيم ليوسف، عرف عليه الصلاة والسلام أن هذه الأشياء وغيرها لطف، لطف الله لهم به، فاعترف بهذه النعمة فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: لطفه تعالى خاص لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالى محلاً لذلك، وأهلاً له، فلا يضعه إلا في محله، والله أعلم حيث يضع فضله»^(١).

تيسير طريق الهدى من لطفه...

«فإذا رأيت الله تعالى قد يسر العبد لليسرى، وسهل له طريق الخير، وذلّل له صعابه، وفتح له أبوابه، ونهج له طرقه، ومهد له أسبابه، وجنبه العسرى فقد لطف به، ومن لطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والبدع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة»^(٢).

(١) ما بين القوسين من المواهب الربانية (ص ١٢٠).

(٢) المصدر السابق.

احذر كسر الحواجز....

قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١).

واعلم أن: «الغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره، وخلق النار وحفها بالشهوات»^(٢).

فكلما اتبع الرجل شهواته، تكسرت الحواجز التي بينه وبين النيران ولا تزال به حتى يُطرح فيها، وبالعكس كلما تصبر الرجل وقاوم قيود الشهوات وفك تكييلها له، زاد لطف الله به، وزاد رزقه له من الصبر والرضا. واعلم أن غالب النفع يأتيك مغلفاً بمكروه، وغالب الضر يأتيك مغلفاً بمحبوب، والسعيد من علم سنن الله في الأرض وبصره الله بحقيقة الأمور وبواطنها، فلزم النافع وإن كرهته نفسه، وفر من الضار وإن أحبته، وكلما زاد إحسانه وجهاده زادت هدايته وإحسان الله له ومحبته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت].

من توكل على نفسه ضل.....

قال تعالى عن أخوة يوسف: ﴿اقْنُتُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف]، توكلوا على أنفسهم وتوهموا فيها قوة وقدرة ليس لهم منها شيء، فظنوا أن الوسيلة لخلع محبة

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢).

(٢) ما بين القوسين من بدائع التفسير (٢/ ٤٦٢-٤٦٣) بتصرف يسير.

يوسف من قلب أبيه -عليهما السلام- هو قتله بإلقاءه في الجب، وهيهات! فما ثبته الله لا ينزعه إلا هو، وما قدره لا يغيره إلا هو، ويقابل الله كيدهم بكيد، ومكرهم بمكر خير منه -سبحانه- ليس كمثله شيء.

فيجب علينا جميعاً أن نعلم أن جمع القلوب ومحبتها بيد الله وحده، وكذلك نزعها بيده وحده، فمن تطلب محبة زوجها فلتسأل الله، ومن يتمنى محبة أولاده له فليسأل الله، ومن يتطلع لمحبة الخلق وأن يوضع القبول له في الأرض فليسأل الله وحده، فلا قبل له بذلك إلا بالسعي في طلب محبة الله، فهذا لا يكون إلا بمحض فضل الله ﷻ عليه حتى ولو أنفق ما في الأرض جميعاً، ومن ظن غير ذلك فقد فسد تصوره، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

من فساد التصور...

أن يظن المرء أن وقت التوبة متسع وكأن العمر بيده، فيسوف التوبة ويعلقها بأمر أو موعد محدد، كمن تقيم عرساً مختلطاً يعج بالمخالفات الشرعية فإذا ما سمعت النصح من ناصح أمين قالت: سوف أتوب عن قريب، أو من تقول: سألتزم بالحجاب الشرعي بعد الانتهاء من الجامعة، أو من يقول: سأتوقف عن التعامل بالربا بعد شراء البيت والسيارة، وغيرها من التسويات التي أوردت أصحابها المهالك.

ومن فساد التصور الظاهر في قصتنا هنا ما لحق بأخوة يوسف حين ظنوا أنهم قادرون على التوبة وضمنوا قبولها، بعد قتل أخيه، وقطع رحمهم،

وإدخال الحزن والألم على قلب أبيهم، فشجعهم هذا على الإقدام على المعصية، فقد قالوا: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ لكن من لطف الله ﷻ أن جعل في قلب أحد الأخوة بعض الرحمة، فاقترح عليهم إلقاءه في الجب لا قتله ولا طرحه أرضاً في الصحراء: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف].

فَاللطف الأول: منع هذا الأخ بقية الأخوة من قتل يوسف ﷻ.

واللطف الثاني: أن أبعد الله عن عقولهم فكرة طرحه أرضاً، لما في الصحراء المقفرة من حيوانات مفترسة وحشرات مؤذية وغيرها من مخاطر.

واللطف الثالث: وضعه في الجب، وهذا أأمن من غيره.

واللطف الرابع: تثبيت قلب يوسف ﷻ بأن أوحى تعالى له أن النصر له في النهاية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف].

أوحى الله تعالى ليوسف ﷻ - في ذلك الحال من الضيق والشدة وهو في خوفه ووحدته، وحزنه في تلك المحنة الشديدة - أنه سيجتمع بإخوته ويخبرهم بأمرهم وأمره وهم لا يشعرون به الآن، أو لا يشعرون بمآلهم ومآله ليستأنس بذلك، فكان هذا من لطف الله ﷻ به ليطمئن قلبه وتسكن روحه^(١).

وقيل: وكذا سنته تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء إلا فتح على قلوبهم أبواب الصفاء وفنون لطائف الولاء.

فقبل مواجهة يوسف لتلك المحنة كان يتنعم في مراعاة أبيه يعقوب عليهما السلام، وحين انقطعت هذه المراعاة جاء له الوحي ليشعر بولاية

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧/٨) ط دار ابن رجب، وتفسير السعدي (ص ٣٩٤-٣٩٥).

الله تعالى له، ويا له من عوض! فيه سكينة وصفاء نفس واطمئنان قلب وذهاب حزن، فغمره ربه بفنون اللطائف وهذا يكون بحسب قوة إيمان المرء بربه وقوة صلته به، فكلما زادت الصلة زاد اللطف، ولطفه حاصل للمؤمنين لا محالة لكنه درجات، وكيف يخاف أو يحزن من تولاه الله تعالى وكان معه! والعبر في هذه القصة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها...

ومن صور لطف الرب بعباده أن صرف قلوبهم عن الاشتغال بغيره..

فكل ما يملأ قلب المقربين هو حب الله، وقرهم منه، ومقامهم عنده، فإن انشغل أحدهم بغيره قطع عنه انشغاله بأي طريقة كانت.

قال ابن القيم: وها هنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالى لطيف لا تهدي إليه العقول وهو أن العبد يفتح له باب من الصفاء والأنس والوجود فيساكنه ويطمئن إليه وتلتذ به نفسه فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحق فيخليه منه ويرده حينئذ إليه بالفقر والذلة والمسكنة ويُشْهده غاية فقره وإعدامه، وأنه ليس معه من نفسه شيء البتة، فتعود عزة ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلة ومسكنة وفقرًا وفاقة، وذرةً من هذا أحب إليه سبحانه وتعالى وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة، وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد^(١).

وصفة الغيرة ثابتة لله ﷻ وهي صفة تليق بكماله وجلاله بلا تكييف ولا تمثيل كما أصلنا من قبل، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»^(٢).

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١، ٢٧٦٢).

فحديث الإمام ابن القيم هنا عن نوع لطيف وعزيز من غيرة الرب تبارك وتعالى قل من يتفطن إليه، فبعد قطع العلائق والعوائق وصرف الشواغل بلطفه سبحانه عن قلب العبد الصالح المقرب، يصرف عنه نوعاً من الأنس والسكون والصفاء يلقيه العبد من طاعة مخصصة يحبها، كمن يتحول أنسه بالله إلى أنس بطاعة القيام أو الصيام، أو الدعوة إلى الله، فتصير سعادته بعبادته لا بمعبوده، وتصير محبته لذات الطاعة لا لذات الرب تبارك وتعالى، فيشغل بالوسيلة عن الغاية وبالسبب عن ربّ السبب.

ويكون هذا الصرف لمدةٍ ما، ليخلو قلبه من هذا الأنس والتعلق ويعود التعلق بالله وحده، فيجد وحشة بينه وبين تلك الطاعة المخصصة التي ملأت قلبه، فيخلي الله بينه وبينها فتصير عليه ثقيلة، ولا يستشعر تلك اللذة التي اعتادها حين القيام بها، فيعود للافتقار والذلة والمسكنة لربه ورب الطاعة، وينضبط قلبه لاحقاً فيستعمل الطاعة ولا يتركها تستعمله كما قال بعض أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: حكي أن أبا حامد بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. قال: «فأخلصت أربعين يوماً فلم يتفجر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، لم تخلص لله»^(١).

□ آثار معرفة العبد لهذا الاسم:

الأثر الأول: تحبيب الخلق إلى الحق بلطف:

وكيف لا يُحب؟! مَنْ لطف في التقدير والتدبير والتكريم والتسخير، كيف

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/٦٦).

لا يُحب مَنْ أنعم على عباده برهم وفاجرهم، بصنوف النعم، كيف لا يُحب من شرع لنا شرعاً ما رأينا منه إلا الحسن والخير، وأرسل لنا رسولاً رؤوفاً رحيماً حليماً، زكي النفس، طاهر القلب، حريصاً على نفع الخلق إنسهم وجنهم.

فمن عرف معنى اسمه اللطيف تطف بدعوة الخلق، وقرّبهم من ربهم ومليّكهم، ورغبهم في جنته ومحبته بلطف خاصة مع من لم يسلكوا للحق طريقاً قط، وابتعد تمام البعد عن الشدة والعنف.

«فحظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله ﷻ والتطف بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ومن غير تعصب وخصام، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل السنية، والسيرة المرضية، والأعمال الصالحة، فإنها أوقع وأطف الألفاظ المزيّنة»^(١).

فاللطيف من الخلق لا يحتقر غيره ممن سبقهم في الهداية، ولكن يعلم أن فضل الله عليه عظيم، وما نراه من بعض السالكين طريق الحق الآن من شدة وعنف، فشدة اللوم للعصاة لا يدل إلا على ضعف معرفة معنى اسم الله اللطيف، أو ضعف دعاء الله به، وكذلك الجدال والخصام في خلاف يسع الجميع! أو جدال في مسألة علمية قد تخفى على البعض أو يصعب عليهم فهمها - فالأفهام تتفاوت - أو معاملة الخلق وكأنهم معاندين مشاقين لله ورسوله لا جاهلين غابت عنهم الحكمة والفتنة! فما جئنا من تلك الطريقة إلا بُعد الخلق عن ربهم أكثر وأكثر، ونخشى أن يكون هذا في موازين سيئات من تصدروا للدعوة وسلكوا غير طريق الرفق.

(١) المقصد الأسنى (ص: ٧١).

الدعوة إلى الله بالعمل أبلغ من الدعوة بالقول...

فالدعوة بالخلق الحسن، والمعاملة الطيبة، والأعمال الصالحة أنفع وأعظم وقعًا في قلوب العباد من الكلمات الرنانة، فالفعل يُقتدى به أسرع وأكثر من القول، ومخالفة فعل الداعية لقوله يؤثر تأثيرًا سيئًا على المدعوين، والموافقة بين الاثنين مفقودة عند كثيرين.

وما ذكرنا هو دأب السلف من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن تبعهم بإحسان، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا جراء هذه الأخلاق التي رباهم بها هذا الدين، واقتدوا فيها بخير الخلق المبعوث رحمة للعالمين، فما اعتلى جميع الصحابة المنابر ولا اتخذوا الدعوة عملاً منفصلاً عن حياتهم، لكن حياتهم كلها كانت دعوة لهذا الدين العظيم، فكما يُقال: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل، لذلك كان تأثير الصحابي على الناس كبيرًا، وتأثير بعض الدعاة الآن ضعيفًا، فالأول وافق قوله فعله ففتح الله على يديه، وأجرى الحق على لسانه، وظهر صدقه على صفحات وجهه، فانشرت له الصدور، والثاني خالف قوله فعله، فما وجد إلا فتورًا من المدعوين وعدم اكتراث، فالسعيد من كان فعله أبلغ من قوله.

الأثر الثاني: دعاء الله باسمه اللطيف:

من انتفع بمعرفة معنى هذا الاسم العظيم دعا الله أن يرزقه اللطف، واعلم أن الجزاء من جنس العمل، فهذه سنة ماضية، قال جلّ ذكره: ﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾ (النبا)، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٦٠).

[الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الجزاء من جنس العمل.
فكن لطيفاً مع الخلق، واحرص على ذلك؛ حتى وإن كانت في نفسك حدة،
أو ثورة، اكنم غضبك، وروض نفسك على الحلم والأناة والصبر، واحرص
على إيصال المنافع لهم بلطف ولين، احرص على دعوتهم وإنقاذ العصاة منهم
من نار قعرها بعيد وحرها شديد، فمن تطف بالخلق لطف الله به.

وتذكر دومًا قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩٤]، كم كنت عاصيًا مفرطًا غافلًا! كم أتتك إشارات وإنذارات وأهملتها! كم أنعم عليك الله بنعم وكفرتها! كم دنست روحك وزكاها ربك! كم أفسدت قلبك وأصلحه لك ربك! كم أكرمك! كم ستر جهلك وعلمك!

فكما كان معك كريمًا فكن كريم الخلق رفيق الطبع مع عباده، لا تغتر وتتكبر وتتأفف، وأحسن كما أحسن الله إليك، وانتظر من ربك المزيد والمزيد، فهو اللطيف الكريم، والحمد لله رب العالمين.....



اسم الله

السَّاقِ

١٩

الرِّزَاقُ

اسم الله تبارك وتعالى الرزاق، من الأسماء الحسنى، التي أجمع العلماء على كونه اسماً لله تعالى.

وقد ورد الاسم مفرداً مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

□ معنى الرزاق لغة:

الرزق: معروف، رزق الله تعالى، والرزق المصدر، بفتح الراء، قال الراجز: وبث في هذا الأنام رزقه.

وقال أيضاً: سميت بالفاروق فافرق فرقه وارزق عيال المسلمين رزقه، وكل من أجريت عليه جناية فقد رزقته رزقاً، والله عَلَّمَ الرازق والرزاق. وجمع الرزق أرزاق... (١).

قال الأزهري رحمته الله: يقال رزق الله الخلق رزقاً ورزقاً، فالرزق مصدر، وقد يوضع الاسم مكان موضع المصدر، ويقال: رزق الجند رزقة واحدة، ورزقوا رزقتين أي: مرتين (٢).

قال الجوهري رحمته الله: الرزق: ما يُتَنَفَّعُ به والجمع الأرزاق، والرزق العطاء، وهو مصدر قولك: رزقه الله، والرزقة بالفتح: المرة الواحدة، والجمع الرزقات، وهي أطماع الجند، وارزق الجند، أي أخذوا أرزاقهم، وقوله تعالى:

(١) جمهرة اللغة (٢ / ٧٠٧).

(٢) تهذيب اللغة (٨ / ٣٢٥).

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي شكر رزقكم التكذيب، هذا كقوله ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أهلها، وقد يُسمَّى المطر رَزْقًا، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَمَا أُنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [الباقية: ٥]، وقال ﷺ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهو اتساعٌ في اللغة، كما يقال: التمر في قعر القلب، يعني به سقي النخل^(١).

«وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، قيل: هو عنب في غير حينه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، قال الزجاج: روي أنه رزق الجنة، قال أبو الحسن: وأرى كرامته بقاءه وسلامته مما يلحق أرزاق الدنيا»^(٢).

فمعناه في اللغة يدور حول العطاء، وقد يكون العطاء دنيويًا أو دينيًّا، فالرزق ليس قاصرًا على المال كما يظن كثيرون، فقد يكون مطرًا، وقد يكون جنة، وقد يكون ولدًا إلى غير ذلك من أنواع العطاء، فكل ما تتفع به هو رزق، فعلمك رزق، وصحتك رزق، وأولادك رزق، ومالك رزق، وفضل منه سبحانه.

□ معنى اسم الرزاق في حق الله تعالى:

خلق الله جلّ في علاه الخلق وتكفل لهم بالرزق؛ لعلمه بضعف العباد، وضعف نفوسهم وتعلقها بالأشياء؛ لذلك أقسم وهو غني عن العالمين، قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [٢٢] فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل^(٣) في تفسير

(١) الصحاح (ص: ٤٠٤).

(٢) اللسان (٤ / ١٣٢).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٧ / ٣٧٥)، وتفسير القرطبي (١٧ / ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) أن الرزق المقصود به هنا المطر.

وخص الله ﷻ هنا المطر؛ لأنه ماء، والماء سببٌ للحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإذا عُدِمَ الماء عُدِمَت الحياة، وقيل: المعنى: وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب.

قال عطاء رَحِمَهُ اللهُ (١): ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي الثواب والعقاب، **وقال الضحاك:** ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي الجنة والنار.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَطِقُونَ﴾ (٢٣) فرزقك حق، فعلام القلق والضجر؟ علام التقاتل والتناحر بينك وبين الناس؟! علام الخوف على من تعول؟! وقد أقسم ربنا تبارك وتعالى أن الرزق بيديه وحده - وذاك حق لا ريب فيه - فإذا تيقن المرء من ذلك أفرد ربه بالقصد، فلا يذل نفسه لبشر مثله لا يملك رزق نفسه فضلاً أن يملك رزق غيره، فيحيى عزيزاً متوكلاً على من بيده خزائن كل شيء.

الرب هو الرِّزْقُ للخلق أجمعين:

«هو المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها، وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته، فلم يختص بذلك مؤمناً دون كافر، ولا ولياً دون عدو، يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيلة له ولا متكسب فيه، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المرة السوي» (٢).

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: شأن الدعاء (ص ١٢٠).

وقد قيل:

كم من قوي قوي في قلبه مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
وكم من ضعيف، ضعيف الرأي تبصره من خليج البحر يغترف

فالله سبحانه وتعالى قيومٌ على جميع خلقه - من الجن والإنس وغيرهم - متكفل برزقهم وقوتهم، وسِعَ الخلق كلهم برزقه ورحمته، فإن لم يكن رحيماً لم يكن رزاقاً؛ فقد رزق خلقه برحمته وعلمه وحكمته، رغم تقصيرهم ومعاصيهم التي يعلمها منهم ويعلمونها هم من أنفسهم، بل ويعلم ما قد يغفلون عنه، ويرزق حتى الكافر الذي ظلم نفسه وبغى وطغى وقال قولاً إداً، فالله سبحانه يعطي الجميع وليهم وشقيهم، فتأمل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، دعا ربه أن يرزق المؤمنين من أهل البلد الحرام الأمن والأمان والخير الوفير من الثمرات، فقال الرزاق المنان: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فكتب الرزق للجميع في الدنيا، البر والفاجر، الطائع والعاصي، بل ربما تمتع الفاجر في الظاهر أكثر من تمتع البر الطائع، ولكن اللذة الحقيقية في الآخرة لا تكون إلا للمؤمن، والحساب على النعم كثيرها وقليلها يكون في الآخرة على الجميع، إلا أن يشاء الله شيئاً.

وكذلك يسوق - سبحانه - الرزق إلى الضعفة من خلقه ومن لا حيلة لهم، فكم من مخلوق ضعيف رزقه الله تعالى من حيث لا يحتسب!!، كم رزق من طيرٍ صغير لا قدرة له على الطيران وسخر له أمّاً وقذف في قلبها رحمة؛ لتغدو وتروح لوليدها بطعامه وطعامها!!، وكم من دابة في الأرض لا

تستطيع حمل رزقها وادخاره، ولكن يرزقها الرزاق في كل وقتٍ وحين!! كم رزق من أجنة في بطون أمهاتها!! وهم لا حول لهم ولا قوة، بل لا حول ولا قوة للأم نفسها على إطعام وليدها وهو ملازمٌ لها وفي أحشائها، ولكن برزقه - سبحانه - رزق الجنين السبيل للطعام وهو بداخل بطن الأم ومحاط بظلمات بعضها فوق بعض، وبعد أن قدّر له الحياة والميلاد، يسر له رزقه المناسب له في هذا الحين، بأن خلق في جسد الأم لبنًا نافعًا يستقيم به جسده، فسبحانه رزاق، يرزق من لا حيلة له، يرزق الطير في السماء، والحيتان في الماء، والدواب على ظهر الأرض وفي قرارها، فسبحانه مقدر الأرزاق، كتبها قبل أن تُخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فلتتفكر!! وقد قيل:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا يأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

توكلتُ في رزقي على الله خالقي	وأيقنتُ أن الله لا شك رازقي
وما يك من رزقي فليس يفوتني	ولو كان في قاع البحار العوامق
سيأتي به الله العظيم بفضله	ولو لم يكن مني اللسان بناطق
ففي أي شيء تذهب النفس	وقد قسم الرحمن رزق الخلائق ^(١)

أفمن رزق هؤلاء ينساك !!

قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾

(١) ديوان الشافعي (ص ٩٠).

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ [العنكبوت]، والدابة: هي كل ما دب على الأرض، حيوان كان أم إنسان؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وإن كان الشائع إطلاقها على غير الإنسان.

فالمرأة التي مات زوجها، وفقدت السبل، فلا أب لها، ولا أخ يعولها ويتكفل بها، وظنت أن زوجها كان لها رزاقًا، وتظن الآن أن رزقها سيساق لها بالربا من البنوك وغيرها، ثقي أن ربك هو وحده الرزاق، كان لك رزاقًا في حياة زوجك، ولا زال رزاقًا لك ولغيرك من خلقه، فلم تنسب الفضل لغيره؟! ولم تظنين أنه لك تاركًا وعنك غافلًا؟!

لم تركنين للسبب وتتركين رب السبب؟! ألم تعلمي أنه الرزاق، يرزق من يشاء بغير حساب ومن حيث لا يحتسب! كيف يأمن قلبك في حياة زوجك وهو العبد الذليل الفقير الذي لا يملك لنفسه رزقًا ولا غنى، ويخاف قلبك ويضطرب ويخشى الفاقة وكفيلك ووكيلك وربك الملك الغني، الحي الذي لا يموت، رب كل شيء ومليكه، الذي لا تنقص عطاياه للعباد من ملكه شيئًا، وهو سبحانه من أوجب على نفسه - بغير حق لنا ولا فضل - أن يرزقنا جميعًا، إذ قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾. أي: «لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تؤخر شيئًا لغد» ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ الله يقيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذرة في

قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء»^(١).

الرزق مكتوب، فلا تتعجل.....

«وقد يكون وصول الرزق بسبب، وبغير سبب، ويكون ذلك بطلب وبغير طلب»^(٢).

فالرزق نوعان:

النوع الأول: بسبب: كالساعي على رزقه، والمجتهد في الأخذ بالأسباب لتحصيله.

النوع الثاني: بغير سبب كمن رزق حظاً وافراً من الذكاء وقوة الحفظ أو الجمال ونحوه، وقد يكون الرزق بغير طلب كالطفل الصغير، يُتوفى والده، فيرث أمواله بلا اجتهاد منه، أو طلب، فتدخل في ملكه من غير قصد، ولا سعي، وهو من جملة الرزق.

وقد يأتي الرزق بعد دعاء الله ﷻ، وقد يأتي بغير دعاء، وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب، لكن علينا ألا نتوكل على الأسباب أو تركز قلوبنا إليها، فالله تعالى خالق الأسباب ومسبب الأسباب، فقد يرزق بسبب وقد يرزق بغير سبب ولا طلب.

وقد قيل:

- لا تطلبن معيشة بتدلل فليأتينك رزقك المقدور.
- واعلم بأنك آخذ كل الذي لك في الكتاب مقدر مسطور.
- توكل على الرحمن في كل حاجة ولا تؤثرن العجز يوماً على الطلب.

(١) ما بين القوسين من تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٩).

(٢) انظر: شأن الدعاء (ص: ١٢٠).

• **ألم تر أن الله قال لمريم:** ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فُسْقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا

جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم].

اعلم أن: «كل ما وصل منه من مباح وغير مباح فهو رزق الله على معنى أنه قد جعله له قوتاً ومعاشاً، كقوله سبحانه: ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ ۝١١﴾ [ق: ١١]، إثر قوله سبحانه: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق: ١٠]، وكقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات]، إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً له في تناوله فهو حلال حكماً، وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكماً، وجميع ذلك رزق»^(١).

فكل رزق يُرزقه المخلوق هو من عند الله ﷻ، سواء كان هذا الرزق يباح استخدامه أم لا يباح، فتغير الحكم لا يعني أن الأصل الذي ذكرناه يتغير، وهذا بخلاف ما يعتقده المعتزلة - من الفرق الضالة - من أن الرزق لا يكون إلا من حلال، وهذا ضلال؛ فالسارق الذي جمع مالا من سرقاته ومن أكل أموال الناس بالباطل واستخدمه في الإنفاق على نفسه وأولاده فذاك المال يُعدّ رزقا ولكنه رزقا محرما.

ولا تعارض بين كون هذا المال المحرم رزقا، وبين عدم محبة الله ﷻ له، فقد أراد الله سبحانه وتعالى - كونا - وجود هذه الأشياء المحرمة في الدنيا لحكمة بالغة مع عدم حبه لها، فهو لا يحب الفساد، ولا يرضاه لعباده ولا يرضاه منهم، ويحب - سبحانه وتقدس - أسماؤه - الرزق الحسن ويأمر به ويثيب الساعي لتحصيله، فإن قدر سبحانه بقدره الكوني

(١) انظر: شأن الدعاء (ص ١٢٠)، وقد بسط الكلام في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية، راجع - إن شئت - مجموع الفتاوى (٥٤٦/٨)، (١٣٢/٨).

هذا الرزق المحرم لهذا الإنسان فذلك لحكمة وسبب سواء علمه هذا الإنسان لاحقاً أم لم يعلمه، فذلك الرزق مكتوب له لا محالة، فلو صبر عن تحصيله بالطريق المحرم، لرزقه الله إياه بطريق يحبه ويرضاه، لكنه تعجّل، فسيق إليه الرزق من الطريق المحرم؛ لأنه يستحق ذلك، لسوء فعله، وضعف عقله، وفساد قلبه، واستشرافه لما يبغضه الله ولا يرضاه.

التمتع بالرزق رزق...

خلق الله مع الأرزاق أسباب التمتع بها، فقد يُرزق العبد رزقاً، ويفقد سبب التمتع به، كمن يرزق مالاً، ويحال بينه وبين ماله بأن يسلط عليه عدو فيأخذه، فما قيمة المال؟! أو من يرزق قصرًا فخماً، وسيارة فارهة، ويصاب بمرض نفسي من اكتئاب ونحوه فيفقد الاستمتاع بهم، فتجد من يعيش في حجرة أسعد حالاً منه، وكمن يُرزق الكثير من الطيبات من المطعومات والمشروبات، ويمنعه مرضه من التلذذ بها، وكمن يرزق الذرية ويفتقد البر والمعاملة الطيبة منهم وغير ذلك، فلا يبقى لهم من تلك الأرزاق إلا حسد الحاسدين، لكنّ الرب رحيم، إن سلب رزقاً رزق آخر، وإن سلب متعة وهب أخرى، فإن علمت ذلك داومت على شكره ليلاً ونهاراً، فحين تسأله فاسأله الرزق الحسن، واسأله أن يمتعك بما أعطاك.

من حكم الله البالغة أنه يبسط الرزق لبعض عباده، ويضيقه

على آخرين..

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت:

٦٢]، ويقدر له: أي يُضيّق عليه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ

عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴿[النحل: ٧١]﴾. فقد ييسط الله الرزق للأتقياء، مثل سليمان عليه السلام وقد ييسطه للأشقياء، مثل: قارون وفرعون وهامان وغيرهم من الجبابرة، والعكس، فقد يضيق الرزق على الأتقياء كالصحابة رضي الله عنهم، أكثرهم كانوا فقراء، ويضيقه أيضاً على الأشقياء كفقراء الكفار والفجار.

فالعطاء من الله تعالى، والمنع لا تعلق له بالحب والرضا، ولا بالبغض والسخط، بل تعلقه بمشيئته ومقتضى حكمته، فقد يكون بسط الرزق للعباد أو قبضه اختباراً لعباده ليميز الخبيث من الطيب، والشاكر من الجاحد، والراضي من الساخط، وغير ذلك من الحكم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿[الفجر]﴾، كلاً أي: لا تظن أن ضيق الرزق إهانة وعدم رضا من الرب تبارك وتعالى، أو أن بسط الرزق دليل محبة، فالله قد يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم.

فإن فهم المسلم هذا ما تعجب أو تسخط وتضجر إن لزم طريق الهداية ثم وجد تضيقاً أو ابتلاءً، سيعلم يقيناً أن هذا الطريق طويل وشاق، وأن الجنة سلعة الله الغالية، التي يُدفع من أجلها كل غال وثمين، بل تباع من أجلها الأنفس، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، وسيمرن قلبه على حسن الظن بربه وسوء الظن بنفسه، وسؤال الله من فضله والاستعاذة به من الابتلاءات، والصبر والجلد إن قدر الله تعالى عليه الابتلاء، وحينذاك سيرضى بقضاء الله وقدره، فيطمئن قلبه، وتهداً نفسه ويحيا سعيداً.

ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يعد المسلمين بجنان عرضها السماوات والأرض، لا يعدهم أن ينعموا في دنياهم، إن هم أسلموا، فكثيرًا ما كان يقول: من يفعل كذا وله الجنة، وكان يقول للمعذيين: صبرًا فإن موعدكم الجنة، فلا تظن أنك ما إن آمنت ستفتح لك مغاليق الدنيا كلها، الله على شيء قدير، لكنه سبحانه حكيم يريد أن يختبر عباده ويتوب عليهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويرفع درجاتهم في الآخرة.

لكن! لا تظن بربك إلا الخير..

لا يظن مَنْ يقرأ ما ذكرنا أنه ما من عبد عرف طريق ربه إلا حلت به المصائب، أو يخاف ويظن أنه بالتزامه الأمر واجتنابه النهي أنه مقدم على مصائب وأهوال لا قبل له بها، لا والله، فطريق الهداية لا يعلم حلاوته إلا من عاينه، وما قال الصالحون: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف، إلا بذاك النور الذي قذفه الله في قلوب المحبين من عباده، وما شعر العباد والزهاد ببرد الرضا وهدوء النفس والقلب إلا بملازمة الطاعة وإن لاقوا منها ما لاقوا، وكيف لا وقد قال سبحانه: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]، فهو لاء ممن اطمئنت قلوبهم، وعانت الرضا بعين البصيرة، فاسأل الله من فضله.

وقد قيل:

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا	فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر	لعل الله يغني من قليل
ولا تظنن بربك غير خير	فإن الله أولى بالجميل

عطاؤه واسع في الدنيا والآخرة..

رزق ربك خير وأبقى، سبحانه كريم المن، واسع العطاء عظيم الفضل، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْآخَرَى الْفَيْضُ - أَوْ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»^(١).

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن لله يدين -تليقان بجلاله وكماله- بغير تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، فكيفية يديه يعلمها هو وحده تبارك وتعالى. تفكر، كم أنفق سبحانه وتعالى منذ أن خلق السموات والأرض، كم قطرة ماء أنزلها من السماء إلى الأرض فربت وأنبتت الزروع والثمار؟! كم قطرة ماء روت إنساناً وحيواناً وطيراً ونباتاً؟! سبحانه سحاء الليل والنهار الرزاق. كم أطعم خلقه من صنوف الأطعمة والأشربة!! كم رزقهم من الأكسية والأمتعة!! كم متع من عباده بالصحة والعافية منذ أن خلق البشر!! سحاء الليل والنهار الرزاق، لم ينقص كل ذلك الإنفاق والعطاء من خزائنه شيئاً، ولكن يرزق بحسب ما تقتضيه مصلحة العباد، بقدر هو يعلمه ويقدره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر].

من أعظم الأرزاق أن يرزقك الله الرضا....

الرزق قد يكون مادياً، وقد يكون معنوياً، فالرضا من الأرزاق المعنوية؛ بل من أعظمها، فالراضي أغنى الناس برضاه؛ لغناه عما في أيدي غيره، لا يتطلع لبيت هذا ولا مال ذاك، لا ينظر من من الخلق تزوج، ومن أنجب،

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٩).

ومن ذاع صيته، ومن اشتهر اسمه وزاد علمه، لا يهتم إلا بشكر من رزق وأنعم وزاد فضله عليه.

أما الساخط، فهو الفقير الشقي، شقي في الدنيا والآخرة، مُعَذَّبٌ بمرض قلبه وفساد عقله، حتى وإن رُزق من الخير الكثير، لا يشبع قط، ولا يملأ عينيه إلا التراب كما وصف النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَا بُتْغَىٰ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

وهذا الطمع يحول بينه وبين التمتع بما رزق به من رزق واسع باشتغاله بتحصيل المزيد، وقد ينقضي عمره في مراقبة فضل الله على غيره، ويغفل عن شكر فضله عليه، فلا فاز بلذة الشاكرين، ولا تعبد بصبر الصابرين، ولا تمتع بالنعيم التي تغمره، وكثيراً ما نرى مثل هؤلاء، من لا يرون في حياتهم إلا المنغصات، ولا يرون في حياة غيرهم إلا الخير والسعادة والاستمتاع بالجاه والمنصب والمال وغير ذلك، وغفل أن الكبد كُتِبَ على بني آدم، وأما النعيم الخالص السالم من المكدرات والمنغصات ففي الجنة.

□ آثار معرفة العبد لاسم الله الرزاق:

الأثر الأول: العلم بأن من أعظم الأرزاق العلم النافع:

من أعظم الأرزاق التي يُرزقها العبد هو العلم النافع، وهو الذي يقود صاحبه إلى العمل به، فإن لم يكن كذلك، فهو حجة الله على عباده.

فعلى العاقل أن يجعل ذلك نصب عينيه وأن يسأل الله الرزاق أن يرزقه علماً نافعاً، ولساناً ذاكرًا شاكرًا، وعملاً صالحاً متقبلاً، وأن يجعله سبباً

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٠) وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

لوصول العلم إلى عباده فتُفتح به القلوب، وتستنير به العقول وتقوى الأبدان على طاعة الله جل وعلا، فإن رُزق ذلك، فأَي رزق أفضل منه؟! **قال بعض العلماء:** «الرزاق من غَدَى نفوس الأبرار بتوفيقه، وحلَّى قلوب الأخيار بتصديقه»^(١).

غذاهم بتوفيقه إلى العلم النافع والعمل الصالح، وحلاهم باليقين والإيمان الجازم بكل ما جاء من عنده سبحانه، فالتوفيق والتصديق من أعظم الأرزاق. **الأثر الثاني: الرزق مكتوب فاستعن بالله في تحصيله:**

يجب أن يسير الإنسان في دنياه طالباً لرزقه من ربه متيقناً أنه قد كُتب له قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فاللقمة والشربة والكساء وحتى الهواء الذي يُتنفس مكتوب من سنين طويلة، وليعلم هذا المتقاتلون على الدنيا الزائلة، الظانون أن الرزق يستجلب بالمعاصي والآثام والحرص الزائد، وقد قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرَّمَ»^(٢).

ولا نقول هذا حثاً على التكاثر والتواكل، فمعلوم أن الجميع مأمورون بالأخذ بالأسباب؛ بل والسعي على الرزق والاجتهاد في العمل، والاستغناء عن سؤال الناس، لكن كل هذا مع الإجمال في الطلب كما ذكرنا، واليقين أن ما عند الله

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى (ص ٢١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان (٣٢٣٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٩/٦) وقال: صحيح على شرط مسلم.

لا يُنال إلا بطاعته، سبحانه وهو يرزق من يشاء بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾ [الذاريات]، رازق الجنين وهو في بطن أمه لقوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكِتَابِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ»^(١).

فبعد مائة وعشرين يومًا من حمل الأم يرسل الله ﷻ ملكًا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب ويكون أول ما يكتب رزقه، ثم أجله، وعمله، وشقي أو سعيد، واستهل المكتوب بالرزق؛ ليطمئن قلوب عباده أن رزقهم آتيهم لا محالة، فالله وحده لهم خالق وهو وحده لهم رزاق، فإن علمت ذلك علمت خطأ من ظن أن كثرة الأولاد سبب في ضيق رزقه، ولهذا الظن والفكر السقيم يقتلون أولادهم خشية الفقر، أو مشاركتهم الرزق، وقد نهى الله ﷻ عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الأثر الثالث: نبذ دعوة الشيطان للعبد للإمساك وعدم الإنفاق؛

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ [البقرة]، عمل الشيطان الأول هو إضلال ابن آدم، فهو العدو المضل المبين، وقد بين الله سبحانه وتعالى عداوته للإنسان في أكثر من موضع في كتابه، وكذلك بينها نبيه ﷺ في سنته، ومن سبل عداوته لبني آدم، وسوسته بعدم الإنفاق خشية الفقر، يخوفه من جوع أطفاله،

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) واللفظ له.

ويحببه في رفاهيتهم؛ ليستجيب صاحب النفس الضعيفة لدعوته، وأما المؤمن فيقينه في ربه راسخ؛ لأنه يعلم أنه الرزاق، فلا تحول هذه الوسوس بينه وبين الإنفاق مهما اجتهد الشيطان في صده عن سبل الخير.

وكيف لا، وقد وعده ربه تبارك وتعالى بمغفرة وعطاء لا يضاهيه عطاء، فهو الكريم الذي لا يحيط بكرمه أحد من خلقه.

فإن كان محسنًا فسيكافئه ربه بالإحسان، وإن كان معطاءً فليبشر بعطاء ذي المن والكرم، وإن كان رحيماً بالخلق فسيرحمه رب الخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة]، فما وجه ذكر الحكمة في هذا السياق؟

فمن معاني الحكمة هنا: العلم بالقرآن والفقه في الدين، والإصابة في القول والفعل^(١).

فمن يفتقد تلك الحكمة سيقع في شرك وسوس الشيطان ولا بد، ومن تحلى بها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فهو سبحانه واسع الفضل، عظيم المن والإحسان، عليم بحال المنفق، وهو الشكور الذي يجازي بالكثير على العمل القليل.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ]، وقال ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ،

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٢٤-١٢٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٣١)، وتفسير السعدي (ص: ١١٥).

كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ»^(١). وقال ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يُنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتْسِكًا تَلَفًا»^(٢).

الأثر الرابع: العلم بأن من آداب العبودية الرجوع إلى الرب في كل

مطلوب ومرغوب:

اجعل رهبتك ورغبتك إليه، لا تلجأ إلا له، ولا تسأل إلا هو، علق قلبك به وحده، اسأله رزقاً حسناً لا يطغيك ولا يلهيك، كن كالصالحين الذين قال سبحانه فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢٠١) [البقرة]، وتكون بطلبك الرزق من ربك من المتشبهين بالأنبياء وهم أتقى الناس وأفضلهم وأزكاهم وأقربهم منزلة منه سبحانه.

قال نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣٥) [ص]. فسأل الله ولم يسأل غيره.

ولما خرج موسى من بلده خائفاً يترقب قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٢٤) [القصص].

فهذا حال الأنبياء والصالحين، دائمي التضرع، لا ينفك حالهم عن دعاء الله ﷻ بالرزق الحسن في الدنيا والآخرة، ولنا فيهم أسوة حسنة.

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

الأثر الخامس: الإنفاق على الفقراء فيه حماية لجنان التوحيد:

فالفقير مع شدة الاحتياج، قد يلجأ إلى الحرام؛ ليسد حاجته، وحاجة أولاده، فيقع في محظورين:

الأول: السعي وراء المال المحرم؛ سواء رشوة، أو ربا، أو سرقة وغيرها من السبل المحرمة.

والثاني: ضعف الثقة بالرب تعالى، ومن ثمَّ يضعف التوحيد في القلب. فإذا حرص الغني على إخراج زكاة المال لمن يستحق؛ لأصلح حال المسلمين من هذين الوجهين، فيدفع عن الفقراء اللجوء للمال المحرم، ويقوي لديهم التوحيد واليقين بأن لهم ربًّا رزاقًا، لا يغفل عنهم، ولا ينام، فمهما أصيبوا ببلايا ومصائب يأتي لهم الفرج والمخرج من الرزاق بعد أن انقطعت أسباب الرزق، وتقطعت بهم السبل.

والدليل على أن الإنفاق للمستحق يزيد قوة الإيمان والتوحيد في القلب أن الله ﷻ لما ذكر مصارف الزكاة الثمانية ذكر منها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٠]، ومنهم حديثو عهدٍ بإسلام، وربما كانوا ضعيفي الإيمان، ورجوعهم للكفر مرة أخرى مظنون؛ لذلك جعل الله تعالى لهم سهمًا في الزكاة؛ لتطمئن نفوسهم، ويعلموا أن لهم ربًّا لا يضيعهم.

أما السُّنة، فقد روي عن أنس رضي الله عنه، عن أبيه قال: «إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَآتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: «أَيُّ قَوْمٍ أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ» فَقَالَ أَنَسٌ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمَ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا

عَلَيْهَا»^(١)، فكان كرم وعطاء النبي ﷺ، خير داع للإسلام للرجل؛ بل ولقومه أيضًا.

وكلما زاد يقين العبد أن ربه رزاق، زاد إنفاقه، وهذا فيه حماية له من النيران، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الْآيَةَ»^(٢).

الأثر السادس: معرفة أسباب زيادة الرزق:

أولاً: التقوى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

ثانيًا: الاستغفار والتوبة من الذنوب، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ ﴿١٢﴾﴾ [نوح]. فذكر خمسة أصناف من الرزق، يُرزق بهم مَنْ تاب وأكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار^(٣).

ثالثًا: الحج والعمرة: قال رسول الله ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبُ، وَالْفِضَّةُ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٤ / ١٦١ - ١٦٢)، وتفسير القرطبي (١٨ / ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (٢٦٣١)، وأحمد (٣٦٦٩) باختلاف يسير، وحسن

فالرزق قد يكون خفيًا بدفع الأمراض والأوباء والأوجاع، والتي لو ابتلي بها واحد منا لأنفق عليها ماله كله، وقد يكون جليًا بزيادة المال، ونماء التجارة.

رابعًا: صلة الأرحام: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(١).

فنسأل الله سبحانه وتعالى، أن يرزقنا قوة في دين وعملاً في يقين وهو خير الرازقين.



= إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان (٣٦٩٣)، وصحح إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٤٣١)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٧/٣).
(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

اسم الله

المؤمنين

٢٠

المؤمن

هو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، جاء في الكتاب بصورة الإطلاق، في قوله سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) [الحشر]، ولم يأت اسم الله المؤمن في القرآن إلا في هذه الآية. واعلم أن جميع العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى عدّوا هذا الاسم منها إلا الأصهباني رحمه الله (١).

□ معنى المؤمن لغة:

أَمِنَ: الأمان والأمانة بمعنى، وقد أَمِنْتُ فأنا آمِنٌ، وأَمَنْتُ غيري، من الأمان والأمان، والإيمان: التصديق (٢).

والإيمان هو التصديق: فإذا قال أحد أنه آمِن بكذا فالمعنى أنه صدّق بكذا، فقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] أي صدّق بما أنزل إليه.

قال ابن فارس رحمه الله: أَمِن: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان (٣).

(١) راجع جمع أسماء الله الحسنى، باب التمهيد - الجزء الأول من الكتاب.

(٢) الصحاح للجوهري (ص: ٥٦).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١ / ١٣٣).

ومعناها سكون القلب: فالأمن قلبه دوماً في حالة من الطمأنينة، لا يختلج ولا يضطرب خوفاً ولا ذعراً.

«وأما التصديق، فقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي مُصَدِّق لَنَا»^(١).

قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، فقله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ثعلب: يُصَدِّق الله ويصدق المؤمنين، وأدخل اللام للإضافة^(٢).

قال الراغب رحمه الله: أمن: إنما يقال على وجهين، أحدهما متعدياً بنفسه، يقال أمنت، أي: جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن. والثاني: غير متعد، ومعناه: صار إذ آمن^(٣).

أمنته أي: جعلت له الأمن. فإذا أمنتك شخص فقد أعطاك الأمن والأمان، فلن يضررك.

□ معنى المؤمن في حق الله سبحانه وتعالى:

من المعنى اللغوي يتضح المعنى الشرعي، فالمعنى اللغوي دللنا على أن لهذا الاسم معانٍ منها: التصديق والأمن والأمان.

قد يتبادر إلى ذهن كثير منّا سؤال: كيف يكون اسم الله المؤمن؟ فبمن سيصدق الله ﷻ؟ فنحن نؤمن بالله لكن ما معنى اسمه سبحانه وتعالى المؤمن؟

(١) مقاييس اللغة (١ / ١٣٥).

(٢) اللسان (١ / ٢٣٤).

(٣) المفردات (ص: ٣٠).

والجواب: أن الله جل وعلا يصدق غيره ويصدق نفسه كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) [آل عمران]، فشهد الله على نفسه بوحدانيته، فصدق نفسه سبحانه وتعالى، وهذا معنى من معاني المؤمن.

قال الزجاج في معنى المؤمن في حق الله: المؤمن الذي وَحَّدَ نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)، وقيل: المؤمن الذي أَمِنَ الخلق من ظلمه^(١).

قال الهاردي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي المؤمن ثلاثة أوجه:

أحدها: الذي يؤمِّن أوليائه من عذابه.

الثاني: أنه مصدق خلقه في وعده، وهو معنى قول ابن زيد.

الثالث: أنه الداعي إلى الإيمان^(٢).

فالوجه الأول: الذي يؤمِّن أوليائه من عذابه:

فأولياء الله الذين كانوا في الدنيا على تقوى وصلاح يؤمِّنهم الله ﷻ من أهوال يوم القيامة ومن العذاب في الآخرة.

الثاني: أنه مصدق خلقه في وعده:

فالله ﷻ لا يخلف وعداً وعده أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١١٤)

[آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩) [آل عمران].

الثالث: أنه الداعي إلى الإيمان:

فالمؤمن يدعو عباده إلى أن يوحدوه ويمجدوه ويؤمنوا بما أرسل به الرسل.

(١) معاني القرآن للزجاج (٥/ ١٥٠)، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٢) سورة الحشر.

(٢) النكت والعيون (٥/ ٥١٣).

وقيل في تفسير المؤمن:

المؤمن: «اسم فاعل، من آمن بمعنى آمن، وقيل معناه: المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا»، وذلك بأن يقذف في قلوب الناس أنهم مؤمنون حقًا، وهذا نلاحظه جليًا، فكم من شخص رأيناه لا نعلم عن حاله شيئًا ولكن إن نظرت في وجهه استشعرت أنه من أهل الفضل، وكم من شخص إذا دعا الله انشرفت لدعوته الصدور، وصُدِّق فيما يقول ورأى أثر دعوته فيمن يدعوهم.

وقيل: «في شهادتهم على الناس في القيامة»^(١)، فالنبي ﷺ قال: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(٢)، قالها النبي ﷺ ثلاثًا حين مرّت جنازة، فأثّوا عليها خيرًا فقال: «وجبت»، ثم مرّت جنازة فأثّوا عليها شرًا، فقال: «وجبت»، ثم قال: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» ثلاثًا. فإذا شُهِد لشخص فستكون شهادة له يوم القيامة، وأيضًا يوم القيامة يشهد المؤمنون على الناس.

«وقيل: المصدق نفسه في أقواله الأزلية: أنه لا إله غيره»^(٣).

وقيل: المصدق لرسله بإظهار المعجزات، فيُرسل سبحانه الآيات، ويظهر المعجزات على يد رسله، فيصدقهم العباد ويؤمنون برسالاتهم، وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدق للكافرين بما وعدهم به من العذاب»^(٤).

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٧-٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: فتح القدير للشوكاني (٢٩١/٥).

وقيل هو: المُصدِّقُ ظنون عبادِه المؤمنين فلا يُخيب آمالهم^(١)؛

وهذا يوافق الحديث القدسي، الذي رواه النبي ﷺ، عن رب العزة أنه قال: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»^(٢).

الله -جل وعلا- رؤوف رحيم بعباده، وقد أمرنا أن نحسن الظن به سبحانه مع الإحسان والاجتهاد في العمل، فقوله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». أي: من ظن في الله العطاء الجزيل، والثواب الكبير، أعطاه الله إياه، والله تعالى لا يتعاضمه شيء، ولا يُخيب أمل من رجاه.

ومن قصر عقله فأساء الظن بالله، فإن الله يعطيه على قدر ظنه.

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» قيل:

معناه: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار... وكذلك ينبغي للتائب والمستغفر، وللعامل أن يجتهد في القيام بما عليه من ذلك، موقناً أن الله تعالى يقبل عمله، ويغفر ذنبه... فأما ظن المغفرة والرحمة مع الإصرار على المعصية، فذلك محض الجهل والغرة، وهو يجر إلى مذهب المرجئة^(٣).

(١) العنوان من شأن الدعاء (١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٠١٦)، والدارمي (٢٧٣١)، وابن حبان (٦٤١)، والطبراني في الأوسط (١٢٦/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٢٢٥)، وفي صحيح الجامع (٤٣١٥) والجزء الأول من الحديث: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٦٨/٢٢) باختصار يسير.

وقيل: بل المؤمن الذي آمن عباده المؤمنين يوم القيامة من عذابه (١) :

سيجمع الله ﷻ الأولين والآخرين في صعيد واحد، والموقف يومئذٍ عصيب إما جنة، وإما نار، فقلوب العباد واجفة، وأبصارهم شاخصة خاشعة، الكل في حالة خوف ورعب وترقب، نار عمقها سبعون خريفًا.

فعن أبي هريرة، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» (٢)، حرها شديد، وقعرها بعيد، و«لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» (٣).

أهوال وفزع والجميع لا يعلمون مآلهم، هل إلى نعيم مقيم أم إلى عذاب أليم، ودعاء الأنبياء كلهم في هذا اليوم: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ» (٤)، وجواب الجميع في هذا اليوم نفسي نفسي إلا النبي ﷺ، ولكن المؤمن سبحانه وتعالى، يؤمن المؤمنين في هذا اليوم بما لهم من سابق إحسان وأعمال وإيمان، فقد سعوا في الدنيا، وتعبوا وجاهدوا؛ ابتغاء مرضات الله، وكانوا على وجل وخوف، وفي حالة محاسبة ومراقبة وتقوى لله العلي الأعلى، فكان الجزاء من جنس العمل، فكما جاهدت واجتهدت في الدنيا، فالمؤمن يوم القيامة يؤمنك من هذه الأهوال والشدائد التي لا يعلم قدرها ولا حدّها إلا رب العالمين.

(١) العنوان من شأن الدعاء (ص: ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

(٣) انظر: صحيح مسلم (٢٨٤٢).

(٤) انظر: صحيح البخاري (٦٥٧٣).

وقيل أيضاً: المؤمن هو الذي آمن عباده من ظلمه^(١)؛

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) [الكهف]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) [فصلت]، فالظلم منفي عن الله سبحانه وتعالى وإن كان مثقال ذرة بل له كمال العدل، وقد ذكرنا أن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنه لا يكفي في مدح الله والثناء عليه أن ننفي صفات النقص عنه فحسب؛ بل لابد أن نثبت له كمال الضد، فعندما نقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩): أي له الكمال في العدل، وعندما نقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦): أي له الكمال في العطاء الذي هو محض فضله ونعمائه على العباد ليس حقاً لهم.

فلو اعتقد المرء أن ربه ﷻ لا يُظلم عنده أحد، ولا يُظلم مثقال ذرة، لن يكون في صدره حرج من قضائه وقدره، فإن قُدر عليه ما يخالف هواه لم يتضجر، و لكن يعلم أن ربه حكيم لا يُقدر شيئاً إلا لحكمة، فما قُدر عليه إما يكون يستحقه بسبب فعله، فيكون تكفيراً للذنوب، وتطهيراً من الآثام والعيوب، وإما لينال المنازل العالية في الآخرة.

فلو ظلم من عبدٍ مثله، ولم يُقتص منه في الدنيا، فإن كان جاهلاً لصفات الله ﷻ وأسمائه تجده مضطرباً حائراً، لا يهنأ له عيش، ولا تكتحل عينه بنوم، ولا يستشعر نعمة، ويمتلاً قلبه بالسخط وكأن ربه له ظالمٌ حتى ولو لم ينطقها لسانه نطقها قلبه بلسان الحال.

أما من عرف ربه بأسمائه وصفاته، فبيقينه وفهمه لاسم الله المؤمن يسكن قلبه، ويهدأ فكره، وتقر عينه، ويعلم أن ربنا ليس بظلام للعبيد، فإما

(١) العنوان من شأن الدعاء (ص: ١٠٩).

أن هذا الحق مؤجل وسيأتي لا محالة في الدنيا، وإما أن القصاص من هذا الظالم سيكون في الآخرة أو يكون بتطهير من الذنوب ورفعة في الدرجات للمظلوم، فعلام الحزن والهم والغم!!

وقيل أيضاً: «المؤمن هو الذي يُعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه وسد طرق المخاوف، ولا يُتصور أمن وأمان إلا في محل الخوف، ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك»^(١).

فكل أمن في الدنيا الله أولى به، فمعطي الكمال أولى به، فإذا أعطاك الله الأمان فهو أولى به، فكل أسباب وطرق المخاوف بيد الله، وهو وحده القادر أن يؤمّنك من الخوف والجوع والأعداء وغيرها من الأضرار التي قد تقع عليك، ولو أمّنك غيره فلن تكون في مأمن تام أبداً لأن الأمن التام يكون من الله جل ذكره.

وقيل: المؤمن المطلق الذي لا يُتصور أمن ولا أمان إلا أن يكون مستفاداً من جهته هو الله سبحانه وتعالى:

فأي أمان في الدنيا، هو من عنده ومنّ علينا به بفضله وكرمه. فالأعمى ربما يهلك، من حيث لا يرى، فلا يستطيع السير في الطرقات المزدهجة إلا بدليل له، فعينه كانت بالنسبة له أمن من المخاوف والأضرار، وكذلك الأقطع -الذي قُطعت يده- لا يستطيع دفع الأضرار، أو الدفاع عن نفسه بيده، فكل عضو من أعضاء الجسد، هو أمن للإنسان من الأضرار والمخاوف، ومن يسر له هذه الأطراف والحواس هو الله جل في علاه.

(١) المقصد الأسنى (ص: ٤٨).

الله أحق من يُعطي الأمن والأمان، وأحق من يُسمى مؤمناً..

تخيل معي: رجل يطارده أعداؤه ليلحقوا به أذى، فاخْتَبَأَ في طريق ضيق مظلم موحش، وحيداً لا يراه فيه أحد ولا يستمع له مستمع، لا سلاح معه يدافع عن نفسه، ولا قدرة له على الاستنجاد بغيره، فعلم آخر بحاله فأرسل إليه عصابة من الرجال يدافعون عنه ويمدُّونه بسلاح للدفاع عن نفسه، بل وبنى له حصناً حوله ليزيد في حمايته، هل تخيلت شعور هذا الرجل وقتها؟ يقيناً سيكون غاية في الفرح لاستشعاره بالأمن والأمان، والله المثل الأعلى فهو من أمدك بكل سبل الأمن والأمان التي تتنعم بها الآن، بل وإن افترضنا أن هذا المثل حقيقي، فهو سبحانه من يسر وسخر هذا الآخر الذي أنقذه وأجرى على يديه أسباب نجاته، فالله أحق من يُعطي الأمان وأحق من يُسمى مؤمناً.

نحن ضعفاء إن لم يؤمننا المؤمن ﷺ:

الدنيا دار نصب وشقاء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البعد]. فالإنسان فيها عرضة للكبد والآفات، تارة مرض، وتارة فقد عزيز، وتارة ظلم يقع عليه، وتارة جحود ونكران للفضل، جوع، عطش، ألم بدني أو نفسي... وغيرها كثير، والإنسان بفطرته ضعيف، قال سبحانه: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء]، فإذا لم يؤمنه المؤمن سبحانه وتعالى لهلك، فالعبد يحتاج لمن يدفع عنه المرض ويسر له الدواء وأسباب العلاج، يحتاج لمن يدفع عنه الأذى والظلم، فهو فقير للمؤمن الذي يؤمنه من كل هذا.

كلنا نحتاج لله المؤمن ليؤمننا من تسليط كل ذي شر علينا:

قد تُسلط النفس الأمارة بالسوء على الإنسان، فتصيبه بالهم والحزن،

وتدفعه للشرور، وتحجب عنه رؤية الخيرات، فلو علم العبد معنى اسم الله المؤمن، ودعاه سبحانه أن يؤمنه من شر نفسه، كما يؤمنه من شر الناس، وشر الشيطان وشركه، لوجد الله مجيباً، فنحن فقراء إلى الله تعالى. هو الذي يؤمنك من تسلط زوج لا يخشى الله، من ابن عاق لا يعلم حق أبويه عليه، من تسلط صاحب عمل فظ غليظ، من شر جار سوء، يؤمن أولادك مما يضرهم ويصيبك فيهم، يؤمنك من الأضرار والآفات التي قد تصيب جسدك، يؤمنك من مهلكات الدنيا التي قد تعلمها وقد لا تعلمها.

□ آثار معرفة العبد لاسم الله المؤمن:

أولاً: لو علم المسلم معنى اسم الله المؤمن لأمن الناس بوائقه..

الإنسان الذي يدعو الله بهذا الاسم، لا يستطيع أن يروّع أحداً من المؤمنين، ولا يؤذيه؛ لأن المؤمن سبحانه أَمَنَهُ في نفسه وولده وبيته وأعطاه الأمن والأمان، فهل يليق بك أن يؤمنك الملك -وهو القادر عليك- فتروّع عباده وأنت المخلوق الضعيف!!

أفيعقل أن يكون الملك الجبار المؤمن مؤمناً لعباده من المخاوف والشرور والأضرار، وأنت المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه شيئاً -حتى الأمن الذي تتمتع به هو ملك لله جل وعلا وهبة وفضل منه- تكون مخوفاً متجبراً على عباده متسبباً في إيذائهم وترويعهم!!

قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(١)، وهذا وعيد لمن

(١) رواه البخاري (٦٠١٦).

يُلحق بجيرانه الإيذاء والضرر، لكن المقصود في الحديث نفي كمال الإيمان ليس أصل الإيمان، فلا يحتج محتج بمثل هذا الحديث على تكفير المسلمين.. فانتبه!

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»^(١)، وهذا من عدل الله ﷻ حتى تطمئن قلوب المظلومين، وتسكن أفئدتهم في الدنيا، فالحقوق لا تضيع عند الله، ولم لا ورسول الله ﷺ قال: «دَخَلَتْ امْرَأَةُ النَّارِ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢)، فإذا كان هذا عقاب الله لامرأة عذبت هرة، فما بالك بمن عذّب عباد الله، ماذا سيفعل الله به؟! وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: قال أبو القاسم رضي الله عنه: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدْعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»^(٣).

دل الحديث على النهي الشديد عن ترويع المسلم وتخويفه، فمن أشار إلى أخيه بحديدة أي: رفع في وجه أخيه المسلم حديدة أو سلاحاً ليروعه أو يخوفه - وإن كان مازحاً- فإن الملائكة تلعنه، أي: تدعو عليه بالطرد من رحمة الله، وإن كان أخاه الشقيق من أبيه وأمه^(٤).

وكل ذلك لسد ذرائع الشيطان ومداخله، وتربصه بالناس؛ ليوقع بينهم العداوة والبغضاء والشر.

(١) رواه مسلم (٢٦١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩)، واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٦).

(٤) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/٤١٧-٤١٨) ط. دار الحديث.

فعلينا أن نحذر من هذا، ونُعلِّم أبناءنا أن الأمر شديد وفيه طرد من الرحمة؛ لأن الله ﷻ هو من أَمَّن عباده فلا يحق لأحد أن يسلب منهم هذا الأمان بل علينا أن نؤمن العباد من الأذى والخوف كما أَمَّننا الله ﷻ.

احذري من ظلم العباد...

كلمة أوجهها لنساء المسلمين اللاتي لم يرتدين الحجاب الشرعي بعد، أختي إني لك ناصحة، احذري من ظلم النفس وظلم الغير.

فملايسك وزينتك وعطرك وما شابه، مما يُعذب عباد الله -رجالاً ونساءً- فالشاب الذي لا زوجة له، ولا يستطيع الزواج لضيق يده ماذا يفعل وهو يراك بكامل زينتك، وكأنك متزينة لزوجك في بيتك وتدعينه لنفسك! ولا أظن في بنات المسلمين أن يكون هذا غرضهن أبداً، معاذ الله من سوء الظن، لكن الرجل نظرتة غير نظرة المرأة، وفكره وقوة شهوته تختلف كثيراً عن المرأة، وهو بفعلك هذا يُعذب بشدة ولا يستطيع فعل شيء، فتخلي إنساناً يتضور جوعاً ويرى أمامه الطعام ولا قبل له به فكيف سيكون حاله!!

أظن أن حاله سيكون أسوأ بكثير ممن لم يأكل؛ لأنه لم يُعذب برؤية الطعام أمامه، مع الاعتبار أن شهوة الطعام أقل بكثير من شهوة النساء، فقد عَلِمْنَا أن الصحابة كانوا يصومون بل أرادوا مواصلة الصوم كالنبي ﷺ لولا أن نهاهم عن ذلك، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن النساء تذهب بلب الرجل الحازم، فكيف إذا رجع هذا الشاب الذي فُتن بك إلى بيته فشكا لربه في سجوده من تسببت له في هذا الأذى النفسي والبدني!! أو قضى شهوته بالباطل بأي طريقة محرمة!!

وكذلك المرأة التي تراك في هذه الحال من الجمال أو الزينة والملابس وغيرها وهي لم تُرزق بمثل ما رُزقت أنتِ به، أو كنت أنت صغيرة وجميلة وهي كبيرة وذهب أو ضعف جمالها، فهي تُعذب بنظرات زوجها لك وهي تسير بجواره فتراه ينظر إليك فيرى فيك ما لا يرى فيها وهي لا ذنب لها في ذلك، فتتحسر وهي لا تملك شيئاً تفعله، فاحذري أختي ظلم العباد، فهو والله ظلم لنفسك قبلهم.

وانظر للحديث الذي رواه جابر فقال: مَرَّ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ بِسَهَامٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْسِكْ بِنَصَالِهَا»^(١)، فحذره أن يُصيب أحداً بهذه السهام بدون قصد، فلتعلم من النبي ﷺ حرصه على المسلمين والنهي عن إيذائهم.

ثانياً: أن تكون سبباً في أمن الناس يوم القيامة:

فقد يجعلك الله سبحانه وتعالى سبباً في تأمين الناس يوم القيامة، كيف ذلك؟ والأمن والأمان بيد الله ﷻ، والإنسان خلق ضعيفاً!! فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟

يكون ذلك بالسير في طريق الدعوة إلى الله جل وعلا، طريق الأنبياء، والمرسلين، والصالحين، فيدعو الخلق للحق سبحانه وتعالى، يدعوهم لعبادة الواحد الأحد ويبذل الجهد ويستفرغ الوقت، تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، فيبذل أقصى ما عنده لنفع العباد ليزيد محبة الله ﷻ ومحبة نبيه في قلوبهم، ويكون سبباً في إخراجهم من الظلمات إلى النور، من الضلال والمعاصي والذنوب إلى نور الإيمان والعمل بالكتاب والسنة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٤).

فإذا فعلت كنت من أحسن العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [فصلت].

احرص على نجاة نفسك أولاً...

لابد مع الدعوة أن تعمل صالحاً، فالدعوة وحدها لا تكفي؛ لتنجو وتنال أفضل المنازل فتكون من أحسن العباد، فمن الناس من يشغل بإصلاح الناس، وينسى نفسه، فيكون كالشمعة التي احترقت لتتير لغيرها، أو كالجسر الذي عبر عليه الناس للجنة وألقى به في جهنم والعياذ بالله.

ومما يرغبك في دعوة الخلق معرفتك لهذا الحديث إذ قال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» ^(١)، فحمر النعم أغلى أنواع الإبل، فشخص واحد يهتدي على يدك خير لك من ذلك.

واعلم أن الهداية نوعان:

١ - هداية إرشاد وبيان.

٢ - هداية توفيق وعمل.

أما هداية الإرشاد والبيان: فهي وظيفة الأنبياء والمرسلين والدعاة الصالحين من بعدهم، فمهمة الدعاة أن يُبينوا للناس الطريق ويدعوهم إليه وينذروهم سوء عاقبة من ضل منهم واستكبر وعاند، سواء استجاب الناس لذلك أو أعرضوا، فليثبت الدعاة، فليس عليهم هدى الخلق ولكن الهدى بيد الله كما قال تعالى لنبه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢٧٢﴾ [البقرة]، وهذه هي هداية التوفيق والعمل.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩-٣٧٠١-٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

فالمطلوب من الداعي بذل الجهد، واستفراغ الوقت، وبيان الحق، وإرشاد الناس إلى سواء السبيل، بما أُوتي من علم، وقد قال الله تعالى لنبه ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد، ٤٠]، ومن دون النبي ﷺ أولى.

فبلغ وذكر، وعليك بالرفق، واستعن بالله وكن حكيماً، فرّق بين مواطن الترغيب ومواطن الترهيب، والتوفيق من عنده تبارك وتعالى.

فكم من أم حريصة على هداية أبنائها محبة لهم ينفطر قلبها خوفاً عليهم، لكن لا قدرة لها على هدايتهم، وكم من داعٍ اهتدى على يديه الآلاف لم يستطع هداية أولاده، لنعلم جميعاً أن هداية التوفيق بيد الله ﷻ وحده، فنحن لا نهدي من نحب لكن الله يهدي من يشاء.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصر، ٥٦]. والآيات في ذلك كثيرة.

أما الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [٥٦] فالجمع يسير وواضح بإذن الله، فقلوه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى، ٥٢]، أي: بقولك ودعائك إلى الله، وبيانك الحق، وطريق الجنة، وكيفية الوصول إليها، وطريق النار، وأسباب دخولها، وكيفية النجاة منها.

وهذه هي هداية الإرشاد والبيان، بأن يدعو الداعي إلى الله ويبيّن ما في الكتاب والسنة وليس عليه أكثر من ذلك، وأما المدعوين سواء عملوا بما قاله الداعي أو لم يعملوا فهذا أمر ليس على الداعي كما وضعنا سابقاً.

ثالثاً: أن يعلم يقيناً أن الله سبحانه وتعالى يصدق وعده للمؤمن

ووعيده للكافر:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء)، فما وعد الله به المؤمنين من النعيم المقيم في داره وجواره واقع وصدق لا شك فيه، وما وعد به الكافرين من عذاب ونكال، وخلود في النار واقع وصدق لا شك فيه. فقد ابتلينا اليوم بأقوام يطلون علينا برؤوسهم في الفضائيات يدعون أن اليهود والنصارى ليسوا كفاراً، ولن يُخلد أحد في النار، **قال تعالى في شأن اليهود والنصارى:** ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة)، ويتعجبون كيف لكل هذا العدد من غير المسلمين، أن يُخلد في النار! ونقول: إن هذا كفر بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (آل عمران).

فالله سبحانه هو من وعد بذلك: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء)، ولن يخلف الله وعده للموحدين، ولا وعيده لمن مات على الكفر، فقد توعدهم سبحانه وتعالى، وتفصيل المسألة في كتب الاعتقاد.

فكل من بلغته دعوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام فعاقبته دخول النار، والحرمان من الجنة، قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ

بِي أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

رابعاً: لا بد أن تعلم أن الأمن المطلق في الآخرة على قدر إيمان

الإنسان:

فقد ذكرنا أن الله المؤمن سيؤمّن عباده يوم القيامة؛ لكنه سيؤمّنهم على قدر إيمانهم، فيوم القيامة يوم مليء بالأهوال، ففيه الوقوف لانتظار الحساب، والشمس تدنو من الخلائق، والصحف تتطير، والصراط يُضرب على جهنم، والموازين تنصب، أهوال رهيبة، والكل في حاجة للأمن وقتها.

لكن يأتيك الأمن على قدر إيمانك وسعيك في الدنيا، فكلما زاد إيمانك في الدنيا زاد أمنك في الآخرة، وكلما ضعف إيمانك في الدنيا ضعف أمنك يوم القيامة، فكما أن الخلائق غير متساويين في الإيمان في الدنيا، هم كذلك غير متساويين في الأمن في الآخرة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمَقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةٌ الْأَرْضِ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، من حديث المقداد بن عمرو بن الأسود رضي الله عنه.

ومنهم من هو في ظل عرش الرحمن فنسأل الله أن يجعلنا منهم.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمْلُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١)، فعلينا الاجتهاد؛ لتحقيق هذه الصفات أو بعضها؛ لننعم بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله حيث الأمن الكامل.

والأمن نوعان: أمن مطلق، ومطلق أمن.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ^(٨٢) [الأنعام].

فالأمن المطلق، يكون لمن معه الإيمان المطلق أو التام، ومطلق الأمن يكون لمن معه أصل الإيمان، أو مطلق الإيمان.

قال العلامة السعدي رحمه الله: قال الله تعالى -فاصلاً بين الفريقين-: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾، -أي: يخلطوا- ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ^(٨٢) الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء^(١).

الأمن المطلق:

لأصحاب الإيمان المطلق، أي: اكتمل إيمانهم في الدنيا بتحقيق التقوى، ففعلوا ما أمر الله به، وتركوا كل ما نهى عنه، ثم اجتهدوا في فعل النوافل وسعوا في أبواب الخيرات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فأوامر الله وحدوده لا يتجاوزونها، فبهذا السعي المشكور تزداد درجاتهم في الجنة، فمن يفعل ذلك ويقبل على الله بقلبه، وبكل ما يملك، له الأمن الكامل يوم القيامة، قال تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾^(٨٩) [النمل]. فلن يُفزع في هذا اليوم، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٩٠) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٩١) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ^(٩٢) ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٩٣) [يونس].

فأولياء الله: كما فسرهما القرآن، فهو يُفسَّر بعضه بعضاً: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون «فكل مؤمن تقي هو ولي»، فمن يتق الله بامثال أوامره والإذعان والإقبال عليه واجتناب نواهيه، يصبح من أوليائه، فلا خوف عليه ولا حزن، ولهم أيضاً البشـرى في الدنيا وفي الآخرة.

«أما البشارة في الدنيا فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة^(٢)، وما يراه العبد من لطف الله به، وتيسيره لأحسن

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٦٣).

(٢) قيل لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ:

الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوى الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها: البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢٠) [فصلت].

وفي القبر ما يُبشِّر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم^(١).

مطلق الإيمان:

من معه مطلق الإيمان، قوم معهم أصل الإيمان، ولكن اقترفوا ذنوبًا، ولم يتوبوا منها، فأمنهم في الآخرة على قدر ما معهم من إيمان، فقد خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٢) [التوبة]، فخلطوا الصالح بالطالح، والسيئ بالحسن، فيعملون الحسنات، وتزل أقدامهم في السيئات، ويستقيمون على الطريق، ثم ينكصون عنه فيعودون، ليسوا على استقامة كاملة في فعل الأمر، وترك النهي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه^(٢).

= «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ». أخرجه مسلم (٢٦٤٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) تفسير السعدي (ص ٣٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٢٩٣) ط دار ابن رجب.

وقال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ فَاْبْتَعَثَانِي، فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبْنٍ ذَهَبٍ، وَلَبْنٍ فُضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رَجَالٌ شَطْرُ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرُ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرُ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطْرُ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(١).

أتى النبي ﷺ ملكان في المنام، وأخذاه، وAntهوا به إلى مدينة مبنية بلبنة من ذهب وأخرى من فضة، وقد رأى أناسًا شطراً منهم كأجل ما ترى والشر الآخر أسوأ ما ترى، أشكالهم رهيبة، والله بعفوه وكرمه عفا عنهم وأمرؤ أن يلقوا بأنفسهم في نهر فخرجوا أحسن مما كانوا عليه.

ولكن لا بد ألا نغتر بهذه الأحاديث، لماذا؟

نحن ليس معنا ميزان نزن به الحسنات والسيئات، فهؤلاء تساوت حسناتهم بسيئاتهم، فمن يضمن، أو يحد لنفسه حدًا تتساوى فيه حسناته مع سيئاته، فالإنسان قد يفعل السيئة، ولا يعلم أنها سيئة، ولا يبالي بفعلها، وربما علم أنها سيئة، ولا يعلم قدرها، وكم أغضبت عليه الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٢)، فربما تتكلم بكلمة واحدة يكتب لك

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٤) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).

الرضوان بسببها، وربما تتكلم بكلمة واحدة تهوي بها في النار.
 والبعض يغتر بمثل هذه الأحاديث، فإذا قيل له: اتق الله ولا تفعل كذا
 وكذا مما لا يرضي الله، قال: أنا أفعل كذا وكذا من الحسنات، وحتى لو
 علمت أن حسناتك مساوية لسيئاتك فهل تعلم من أخبرنا بحالهم النبي ﷺ
 وفي الحديث كم وقفوا في شمس حرها شديد، وكم لقوا من الأهوال في يوم
 مقداره خمسين ألف سنة؟!!

وتكفي حيرتهم وخوفهم فهم لا علم لهم بمآلهم إلى جنة ونعيم مقيم،
 أم إلى نار مستعرة وعذاب لا ينقضي، وأضف إلى ذلك نظر الناس لهم في
 أرض المحشر وهم في هذا الحال، وأيضا حالهم في القبر هل في نعيم أم
 عذاب، فهذه المعاناة تجعلك لا تتمنى أبداً موقفهم حتى ولو كان مآلهم في
 النهاية لعفو وجنة.

فاحذر أن تغتر بنصوص الرجاء والمغفرة والعفو فتتجراً على ربك
 بالمعاصي فتسقط في بحر لا ساحل له من الضلال، فهو وحده أعلم من
 يُرحم ومن يُعذب، ومن يختم له بخير ومن يختم له بسوء، من سيُكرم ومن
 سيُهَان، فحريّ بالإنسان أن يكون حريصاً أن يؤمن نفسه في الدنيا بالابتعاد
 عن كل ما يُسخط الله، ويؤمن غيره بأن يدعو إلى الخير حتى يضمن لنفسه
 يوم القيامة الأمن والأمان من المؤمن سبحانه وتعالى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما جهلنا، وينفع
 الخلق بهذا العلم.

اسم الله

السَّعْدَاءُ

٢١

السَّلام

اسم عظيم من أسماء الله - تبارك وتعالى -، جاء في النص مطلقاً في موضع واحد، في قوله ﷺ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) [الحشر].

وهو من الأسماء التي أجمع أهل العلم المهتمين بجمع أسماء الله تعالى على كونها من أسمائه عدا الأصبهاني رحمه الله.

ورود الاسم في السنة:

عن شقيق عن عبد الله رضي الله عنه قال: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ» (١).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (٢).

□ معنى السلام لغة:

السلام والسلامة: البراءة، وتسلم منه: تبرأ.

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥-٧٣٨١)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١).

قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللهُ: السلامة: العافية، والسلامة شجرة.

وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [٦٣] **[الفرقان]** معناه:

تسليماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر، وليس السلام المستعمل في التحية؛ لأن الآية مكية ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، هذا كله قول سيوييه.. (١).

هل يلقي المسلم تحية السلام على الكافرين؟

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه» (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ» (٣).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: في معرض شرحه لحديث أبي هريرة المتقدم: إنما نهي عن ذلك؛ لأن الابتداء بالسلام إكرام، والكافر ليس أهلاً لذلك، فالذي يناسبهم الإعراض عنهم، وترك الالتفات إليهم؛ تصغيراً لهم، وتحقيراً لشأنهم؛ حتى كأنهم غير موجودين (٤).

ومذهب الإمام مالك: «أنه لا ينبغي السلام عليهم زجراً لهم» (٥) انتهى.

(١) لسان العرب (٤/ ٦٦٠ - ٦٦١) مادة (سَلَمَ)، وانظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطاني (٩/ ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) المفهم (١٧/ ١٥٠).

(٥) انظر: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (١/ ٤٥٩).

فإذا أراد مسلم تحية أهل الكتاب فيكون بأي كلمة، ولا يلقي عليهم تحية الإسلام «السلام عليكم».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: إذا أراد تحية ذمي بغير السلام، قال المتولي والرافعي: له ذلك، بأن يقول: هداك الله، أو أنعم الله صباحك، وهذا لا بأس به ^(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: اتفق العلماء على الرد على أهل الكتاب إذا سلموا، ولكن لا يُقال لهم: وعليكم السلام؛ بل يُقال: «عليكم» فقط، أو «وعليكم» ^(٢).

□ **معنى السلام في حق الله جلّ في علاه:**

هو الذي برئ من العيوب والنقائص، وسَلِمَ الخلق من ظلمه، فلا يظلم أحدًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٩] **[الكهف].**

قال ابن جرير، إمام المفسرين: السلام هو الذي يسلم خلقه من ظلمه ^(٣).

قال ابن منده رَحِمَهُ اللهُ: ومعنى السلام، أن ذات الله ﷻ خلصت بانفراد الوحدانية من كل شيء، وبانت عن كل شيء، وأخلصت به القلوب إلى توحيد الله ﷻ وسلمت ^(٤).

الله سبحانه سلم من مشاركة غيره في الملك - فالملك له وحده -، وخلصت ذاته سبحانه بالوحدانية، وبالبينونة عن كل شيء، ومن عرف

(١) المجموع شرح المذهب (٤/٦٠٧)، وانظر: زاد المعاد لابن القيم (٢/٤٢٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/٤٠١) ط. دار الحديث.

(٣) جامع البيان (١٤/٧٠).

(٤) التوحيد لابن منده (ص: ١٥٧).

معنى هذا الاسم العظيم استسلم له وتخلص قلبه من أمراضه ومعايبه، لينعم بالسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة إذ قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: السَّلَامُ أي: ذو السلامة من النقائص، وقال ابن العربي: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله «السلام»: النسبة تقديره ذو السلامة، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال:

الأول: معناه الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل نقص.

الثاني: معناه ذو السلامة، أي المسلم على عباده في الجنة كما قال: ﴿سَلَمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) [يس].

الثالث: أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه.

قلت (القرطبي): وهذا قول الخطابي^(١)، وعليه والذي قبله يكون صفة فعل، وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات^(٢).

التفريق بين اسمي الله السلام والقدوس:

كل اسم من أسماء الله تعالى يدل على ذات الله تعالى ويدل على صفة أو أكثر له سبحانه، وليس في أسماء الله اسمًا مرادفًا لاسم آخر بالكلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقُلَّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

(١) انظر: شأن الدعاء (ص: ١٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ٤٥).

فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ﴾ [الطور]، إن المور هو الحركة كان تقريبًا؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة.

وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام، أو قيل: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣]، أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤]، أي: أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق؛ فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالًا إليهم وإيحاء إليهم^(١).

وهذا إن كان في ألفاظ القرآن عمومًا، ففي أسمائه تبارك وتعالى أولى، فالاسمان قد يشتركان في معنى من المعاني أو يكون أحدهما أعم من الآخر وهكذا، لكن لا يترادفا ترادفًا تامًّا، فالتكرار بلا حكمة ونفع يعد نقصًا، والنقص منتفٍ عن كلام الله تعالى.

فسبحانه قدوس، تقدس أي تنزه عن النقص والعيب، وسبحانه سلام سلم وبرئ من العيوب والنقائص، لكن بينهما فرق، نوضحه فيما يلي:

اسم الله القدوس يتضمن صفة ذاتية، لا يتعدى أثرها للخلق، كاسمه الأحد، واسمه الأعلى، والحي، وغيرها... أما اسمه السلام فيتضمن صفة ذاتية ومتعدية لغيره، أي لها أثر على غيره كاسمه الكريم، يظهر هذا الكرم على خلقه، واسمه الرحيم فلكونه رحيماً يرحم المخلوقين، وهكذا.. فالسلام صفة متعدية.

وفرق آخر كذلك معنى اسمه القدوس هو البريء من النقائص والمعائب في الحاضر والماضي وفي المستقبل، فأسمائه أزلية أبدية، أما

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ١٧، ١٨).

السلام: فهو الذي لا يطرأ عليه شيء من المعاييب أو النقائص في المستقبل، ففي حق المخلوقات الشيء الموصوف بالسلامة في الوقت الحاضر ثم طرأ عليه طارئ فأصيب بآفة في المستقبل تنتفي عنه الصفة ويصير غير سالم، وهذا لا يكون في حق الله تعالى أبداً، وله سبحانه المثل الأعلى.

وقيل في معنى السلام: «السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله. فهذا ضابط ما ينزه عنه، ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثل أو شبيه أو كفؤ أو سمي أو ند أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها، ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن سوء، ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثيلاً على ربه: «سبحان الله»، أو «تقدس الله»، أو «تعالى الله»، ونحوها كان مثيلاً عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال»^(١).

قال ابن القيم في نونيته:

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

وقال رحمه الله: «هو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل

(١) قاله الهراس في شرح القصيدة النونية لجمع من العلماء (٣/ ١٩٥).

وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك.

ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها، فحياته سلام من الموت ومن السنّة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عرض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم بل تمت كلماته صدقًا وعدلًا، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه.

والوهيته سلام: من شارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه.

وكذلك عذابه وانتقامه: وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا، أو تشفيًا أو غلظة، أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء في مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه على إحسانه، وثوابه، ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا

لحكيمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله، وحكيمته، وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه الجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سلام: من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته بل شرعه كله حكمة، ورحمة، ومصلحة، وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي.

ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه؛ بل العرش محتاج إليه وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة بشيء به - سبحانه وتعالى -، بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يتوهمه معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء، أو محصوراً في شيء، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله. وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل،

وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة، وخير، وإحسان، وبر كما قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١].

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه -تبارك وتعالى- وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني^(١).

الأدب مع الله تبارك وتعالى:

تأمل الآيات في سورة الجن، تجد فيها أدبًا ربما غاب عن بعض المسلمين، فلما تكلمت الجن عن الشر لم ينسبوه إلى الله تبارك وتعالى، - لأنه سلام من كل شر - ولكن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، «أريد» فإنهم أسندوا الشر إلى غير فاعل، ولم يقولوا أراد الله بمن في الأرض شرًا، ولما ذكروا الرشد نسبوه لله، فبنوا الفعل للمعلوم فقالوا: ﴿أَمَرَ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾^(١٠)، فهذا أدب كاد أن يفتقد فأصبح البعض يتكلم عن الله تعالى بأسلوب لا يليق لجلاله وكماله، ويتفوه بكلمات شنيعة لا يلقي لها بالًا، وهذا يعد من كبائر الذنوب التي تدل على ضعف توقير القلب لربه جل وعلا.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١١٦-١١٨).

أكمل الأسماء تنزيهاً لله.....

اسم السلام، أكمل الأسماء تنزيهاً لله تبارك وتعالى؛ لأن فيه التنزيه من جميع النقائص، وإثبات جميع الكمالات، وصفة متعددة يصل أثرها للخلق. ومن النقائص التي ينسبها بعض الجاهلين لله، اتخاذ الصاحبة والولد، وهو الغني عنهما، فالإنسان في الدنيا يتزوج لحاجةٍ ونقص، إما لقضاء شهوة، أو لإنجاب الأطفال، أو لحاجة الأُنس والخوف من الوحدة، وغيرها من أمور لا تدل إلا على احتياج صاحبها لغيره، والله ﷻ هو العزيز الغني عن خلقه، بل هو القيوم على حاجات خلقه؛ لذلك ينزه عن مثل هذا لغناه وسلامته من الحاجة والعوز؛ لكونه من النقائص سالماً، سبحانه لا نظير له ولا مثيل ولا شريك له، ولو كان له شريك في الملك لفسدت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء].

المشرك مجرم، وإن كان أحسن الناس خلقاً.....

من مقتضيات اسمه السلام، أن يسلم ملكه ممن ينازعه فيه، أو يشاركه، ويسلم من أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالسلام له تمام الملك، لا يحرك مخلوق ساكناً في ملكه إلا بأمره، فكيف ينازع أو يشارك أو يشفع عنده من لا يأذن له؟!

لذلك من ادّعى مع الله إلهاً، أو ادّعى الربوبية لنفسه فهو أشد الناس عذاباً، يلقي في نار خالداً فيها، لا تفنى ولا تبديد، يشقى فيها ولا ينعم، عقابه أشد من عقاب أصحاب الكبائر، فمهما ظلم وتكبر وتجبر المتكبرون -إن ماتوا على التوحيد-، فهم أقل جرماً من المشرك بالله حتى وإن حسن خلقه،

وفعل أشياء حميدة، وقضى حوائج الخلق، فهو مجرم إذ جعل لربه ندًا وقد خلقه، فلا يستحق العبادة إلا الخالق الأحد، فالمشرك قال قولًا إدًّا، وافترى على الله الكذب...

سلم ربنا من الحاجة والعوز...

سبحانه! يعطي ويكرم لا عن مذلة أو حاجة وعوز، وعطاؤه لا يكون مقابلًا لعطاء غيره أبدًا - تعالى وتقدس عن ذلك -، لكن عطائه عطاء الغني المحسن القوي، الذي لا يصانع أو يداهن بعطاءه، ولا ينتظر العوض والجزاء ممن أكرمهم وتفضل عليهم، وهذا بخلاف البشر؛ ممن يكرمون ويبرون ويتصدقون ويتخلقون بأحسن الأخلاق وينتظرون الجزاء الحسن سواء في الدنيا ممن أكرمهم، أو بتلمسهم بذلك راحتهم النفسية والروحية، أو في الآخرة من ربهم الذي أمرهم بالجود والإكرام، فالحاصل أن كرمهم لحاجة ومصلحة وغاية....

وانتقامه عدل ورحمة....

كم رأينا صنوفًا للانتقام بين البشر! وغالب هذا الانتقام يكون للتشفي وللغيط بسبب ظلم طرف لطرف، وكثيرًا ما يتلبس انتقام الثاني من الأول بظلم أشد وأزيد للأول، فلا يكون رد الفعل على قدر الفعل - إلا ما رحم ربي -، وهذا بسبب الضر الذي يصيب هذا المنتقم فيهيح الحقد في قلبه، فيولّد فيه غيظًا وغلاً لا يهدأ إلا بالانتقام ممن ظلمه بظلم أشد مما ظلم هو به، كمن يتفنن في ظلم طليقته، ومن تتفنن في ظلم زوجها الذي تركها وقد أكل مالها

وتزوج بأخرى بعد أن فني شبابها، فتنتقم منه ردًا على ظلمه، أما انتقام رب العالمين فيسلم من كل هذه الأمور، فالله ﷻ لا يبلغه ضرر العباد فيضروه فيشفى منهم - لقدرة عليهم، تعالى ربنا عن الظلم علوًّا كبيرًا - بل ينتقم من الظالمين لحكمته وعدله، ويحب من عباده الكاظمين الغيظ ويكافئ من يعفو عن الناس، قال سبحانه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران]، وقال ﷺ: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَكْظَمَ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ»^(١).

لولا صفات جلاله لتمادى الظالمون وتجبر المتجبرون....

قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج]، فانتقامه وبطشه لكمال عدله، فمن للمظلومين إن لم ينصرهم ربهم وينتقم من الظالمين! من يجبر كسر المكسورين ممن آذاهم وبطش بهم! من يرد كيد الكائدين إن تمادوا في كيدهم وغيهم! لو لم يكن ربنا شديد البطش، سريع العقاب لتمادى الظالمون وأكل القوي الضعيف بلا رادع ولا مانع، ففي هذا منع للظلم والشر، وجبر لأهل الحق والخير، واعلم أن انتقامه سبحانه وبطشه من الظالمين المتكبرين يكون بعد إنذار وإعذار وآيات بينات، حتى إذا أخذ أحدهم لم يفله، فكما أن صفات الجمال ليس كمثلها شيء فصفات الجلال أيضًا ليس كمثلها شيء، فاحذر من عاقبة الظلم، واعتبر من مآلات الظالمين...

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٢٦٩)، والطبراني في الأوسط (٧٢٨٢) باختلاف يسير، والعراقي في تخريج الإحياء (١٦٣١٤)، وقال الألباني: موقوف، رجاله ثقات وقد صح مرفوعًا. صحيح الأدب المفرد (٩٩٠).

وقد سلم شرعه من الاختلاف والتضارب...

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

[النساء] فلا يتوهم أحد التعارض والتضارب في نصوص الكتاب العظيم، وليتهم كل منا عقله قبل أن يتهم شرع الحكيم الخبير، فالخالق خلق لعباده العقل لفهم النصوص لا للحكم عليها، فمن يتوهم تعارضاً بين النصوص فليسأل أهل الذكر، فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة لا تخالف العقل الصريح أبداً.

هو الكريم، وإن منع!.....

منعه سبحانه سلام من البخل، فلم يبخل وهو الغني؟!، وكيف يبخل ومن صفاته الكرم والجود والإحسان؟! فالخلق قد يبخلون لفقرٍ وعجزٍ أو لخوف من افتقار أو حاجة في المستقبل، أو شحٍّ وحبٍّ وطمعٍ في زيادة الملك، أما الرب العلي فغناه كامل، والفقر والطمع عنه منتفٍ سبحانه إذ هو وحده مالك الملك.

ومنعه إحسان كما قررنا، فمن يتلي بفقر في جانب من الجوانب - فقر في المال أو في الذرية أو في الصحة - فليتذكر أن ربه سلامٌ من البخل والشح، سلامٌ من التقدير بلا حكمة، سلامٌ من بغض عباده الصالحين وإلحاق الضرر والشر بهم، وليعلم أن مصلحته الكاملة في هذا المنع، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يشكر شكر الله له.

سبحانه صفاته سلام في كيفيتها عن كل ما تبغاه العقول والمخيلات...

الله ﷻ أثبت لنفسه صفات كما أثبت له نبيه ﷺ صفات، وهو من بين

لنا أتم بيان أنه ليس كمثل شيء، فمن نفى صفاته عنه أو أولها على غير ظاهرها ليحملها غير ما تحتمله من معان فقد افترى على ربه الكذب، ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته فقد انتقص منه سبحانه لتشبيه إياه بما فيه نقص وقصور، وكلا الطرفين على خطرٍ عظيم.

لا ولد له ولا شريك له فينازعه في ملكه..

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء]، فله المجد والحمد والسلامة من كل آفة ونقص لكونه لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك ولا منازع في ملكه. فمن كان له شريك في الملك يكون عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفاً، ولا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين، وربنا لم يكن له حليف حالفه من الذل الذي به، فربنا لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد، تبارك وتعالى ربنا عن كل ذلك ^(١).

ولايته للمتقين الصالحين...

قد يتولى شخص آخر ليعاونه ويساعده في ما يريد، حتى عظماء الدول وملوكها يتولون غيرهم - وزراء ووكلاء وأمرأء... وغيرهم - وذلك للمساعدة والمعونة والحاجة، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس] فالولاية لا تتفي مطلقاً عن الله، فله ولاية لكن

(١) انظر: جامع البيان (٢٣٥/١٨)، تفسير القرطبي (٣٥١/١٠) بتصرف يسير.

مخصوصة، فهو ولي الذين آمنوا وهو يتولى الصالحين، ولاية محبة وإحسان، يتولاهم إكرامًا منه وفضلًا، لا حاجةً لهم أو عجزًا. ومن أراد الفوز بتلك الولاية عليه أن يكون من المتقين المؤمنين المجتهدين في الطاعة المتمسكين بشرعه.

وليس كحبه حب...

سبحانه أثبت لنفسه صفة المحبة، فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة]، لكنه سلامٌ في تلك المحبة، فمحبته ليست كمحبة البشر، ممن يحبون لتملق أو منفعة أو قرابة، أو تغيير محابهم بلا سبب، أو لافتقادهم تلك المنافع التي من أجلها كانت المحبة، فسبحانه سلامٌ من هذه العوارض كافة، فمحبته لا كمحبة غيره، ولا تُطلب ولا تُتَظَر مثلها إلا منه وحده لا من بشر مهما كان قريهم وودهم، فلتعلم أنه لن يحبك أحد كحب ربك، ولن يرفق بك أحد مثله، فلا تطلب الكمال في المحبة والرحمة والرفق إلا منه وحده، فهو وحده ذو صفات الكمال ونعوت الجلال.

□ آثار معرفة العبد لاسم الله السلام:

الأثر الأول: اعلم أن العبد له سلامة في الدنيا وسلامة في الدين:

السلامة في الدنيا: وهي أن يتخلص من المؤذيات ويحصل له ما كان في حيز الضرورات والحاجات^(١).

فكيف يحيا بلا سلامة في دينه ودنياه! وسلامة دنياه من المؤذيات سبب

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى (ص: ١٨٤).

لتمكنه من القيام بالطاعات والاجتهاد في السنن والمستحبات، فالابتلاءات وما تسببه من توتر وتشتت وتشويش على العقل والقلب كلها عوامل مؤثرة على همته وصفاء ذهنه وقدرته على التحصيل، فإن تشوش ذهنه فعل العبادة بقلب لاهٍ بلا روح ولا خشوع فتكون على وجه لا يرضيه سبحانه، أو تقل طاعاته، أو يصرف عن فعل العبادة بالكلية - وهذا أقوى وأشد -، وكثيراً ما رأينا من ترك طريق الطاعة لانشغاله بالتفكير في ابتلاء أصاب ابنه، ومن ترك صلاة الفجر ليفكر في ابتلاء أصابه في العمل، وغير هذا من التفریط والتقصير الذي قد يصيبه إن لم تسلم له دنياه.

سددوا وقاربوا...

فالسعيد من علم أن سلامة دنياه تكون فيما أراده الله له، فيجتهد لتحصيلها ويحرص على السلامة، ويدعو بها، مع عدم الغفلة أن الدنيا لم تسلم بالكلية لأحدٍ قط، فلو سلمت لأحد لسلمت للأنبياء والمرسلين الذين هم أحب عباد الله إليه، وكانوا أشد الناس بلاء في هذه الدنيا، فمن الخسران المبين استفراغ الأوقات؛ لتحقيق مطامع الدنيا ومصالحها، وكأن لسان حاله أنه رضي بالدنيا، وسعى لها ولم يبال بالآخرة، أما من غرس في نفسه هم الآخرة، سلمت نفسه من الأقدار، وقلبه من الأكدار، فلا يقدم خدمة أحدٍ على طاعة الله تعالى.

قيل لرجل: ما الذي حبب إليك الخلوة، وطرده عنك الفترة؟ قال: وثبة الأكياس من فح الدنيا، وقيل لآخر: لم تخلت عن الدنيا؟ فقال: خوفاً والله من الآخرة أن تتخلي عني.

مراتب السلامة في الدين:

أولها: السلامة في مقام الشريعة: أن يسلم دينك من البدع والشبهات، وأعمالك عن متابعة الهوى والشهوات^(١).

فمن السلامة في الدين بل من أهم آثار السلامة في الدين هي السلامة من البدع والشبهات، والسلامة من الشهوات، ولا تكون السلامة من البدع ودفع الشبه إلا بالعلم النافع.

ولنسلم من الانقياد وراء الشهوات المحرمة كلها أيًا كانت، وأن تفر من اتباع الهوى فرارًا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٤١) [النازعات]، ولاحظ أن الأمر في الآيات فيه نهي النفس عن الهوى، وذلك لنعلم جميعًا أن مخالفة الهوى تحتاج جهادًا، فالسعيد من جاهد وخالف هواه، وهذه المجاهدة مطلوبة في ذاتها وبها تتحقق الهدايات، فمن جاهد قلبه المحب للهوى المتعلق بالنساء ليرغمه ألا يتعلق إلا بربه وحده، وألا يحب إلا مرضيه، ومن جاهد لسانه ليكف عن اللغو واللغو، ومن جاهدت حبها للزينة المحرمة وللتبرج والاختلاط، وآثرت حب ربها وخافت مقامه وقدمت الآخرة على الدنيا، فهؤلاء هم المجاهدون حقًا، الذين خالفوا هواهم فقادتهم تلك المخالفة للفوز العظيم.

وتذكر دومًا أن متعة الشهوة زائلة، ولا يبقى منها إلا الحسرات، فإن صبرت على البعد عن الشهوة كان ذلك أيسر وأهون عليك من الصبر على ما توجه به الشهوة، فلذة الشهوة غالبًا لا تتعدى دقائق أو سويحات معدودة،

(١) انظر: المصدر السابق.

ولكن ما توجه به الشهوة من ألم وحسرة وظلمة في القلب وندم أشد وأكثر إيلاماً، فضلاً عن الحسرة الكبرى يوم القيامة وفوات الأجر العظيم، فتذهب الشهوة وتبقى الشقوة -ويا لها من شقوة-، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ثانيها: السلامة في الطريق: أن يكون عقله أمير شهوته وغضبه، ولا يكون أسيراً لهما....

قال تعالى: ﴿وَالْوِاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنُفَتِّنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن]، «والمقصود بالطريقة هنا هي الطريق الأمثل وهو الصراط المستقيم»^(١).

فالإنسان إما أن يكون ذا عقل راجح، يحكم عقله في شئونه، وإما يحكم شهوته وغضبه، فكن صاحب عقل رزين، لا تسوقه شهوته، ولا ينقاد خلف غضبه وحميته، بل يفكر ويجعل عقله أميره، ويعلم أن الغضب قد يعميه عن الحق والخير، فلا يترك ذمام أمره في يد غضبه، بل يمتطي هو غضبه ويمسك بعنانه. ويكون بهذا قد استفاد من علمه، ولا يكون كمن قيل فيهم: فقيه ما لم يحضر العمل، فالبعض يكون عالماً فإن جاء وقت العمل أو ألتمت به شهوة وتملكته صار أقل من العامي الذي لم يتعلم قط، فلا يرى حراماً ولا ينكر منكراً.

الأثر الثاني: إفشاء السلام:

لأنه سبب في دخول الجنة، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٨٩١).

حَتَّى تَحَابُّوْا، أَوْ لَا أَذْكَكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في معرض شرحه للحديث: وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام، وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف^(٢).... والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع وإعظام حرمة المسلمين^(٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: إذا سلم المسلم على المسلم، فقال: السلام عليكم، فكأنه يعلمه بالسلامة من ناحيته، ويؤمّنه من شره وغائلته، كأنه يقول له: أنا سلم لك، غير حرب، ووليٌّ من غير عدو^(٤).

فهل رأيت لصًّا يدخل ويسلم على أهل الدار؟ بالتأكيد لا يحدث هذا؛ لأنه جاء بالشر، أما من جاء بالخير فيلقي السلام، فالقائمه يُعدّ إيذاناً بفتح باب المودة بين المسلّم والمسلّم عليه، وسبب في تبادل الاطمئنان، وتمكن الألفة بينهما، ومعلوم أنه لا يلقى تلك التحية إلا المسلمون؛ لذلك يجب على المسلم المعتز بدينه أن يظهر شعائره ويحرص عليها ولا يستبدل بها غيرها من شعائر أهل الكفر كالتّي انتشرت بين ظهري المسلمين.

(١) أخرجه مسلم (٥٤).

(٢) عن عبد الله بن عمرو، أن رجلاً سأل النبي ﷺ «أي السلام خير؟»، قال: «تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» أخرجه البخاري (١١) ومسلم (٥٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣١٢/١).

(٤) شأن الدعاء (ص: ١٠٥).

من آفات اللسان التي على الإنسان المجاهدة في السلام منها:

الغيبة: وهي من الكبائر المحرمة بالإجماع كما نقل غير واحد من أهل العلم.
قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: والغيبة محرمة بالإجماع ولا يستثنى من ذلك إلا ما رُجِّحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة^(١).

قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢).

إذا ضابط الغيبة هو التكلم بما لا يحبه المتكلم عنه، فانتقاد الشخص لملابس أخيه، أو سيارته أو عمله أو أسلوب كلامه ونحوه، كل هذا وإن كان ضئيلاً في نظر قائله إلا أنه إن كان مكروهاً للمتكلم عنه فيعد من الغيبة المحرمة حتى وإن كان صدقاً، وحتى وإن كان المتكلم قادراً على مواجهة أخيه به، أما أن يتكلم من خلف ظهره فهذا حرام ومن سوء الخلق، فلننتبه، فقد يتكلم الرجل بالكلمة وتهوي به في جهنم وهو لا يدري، والعياذ بالله. فالغيبة آكلة للحسنات، فقد يكون صواماً قواماً ذاكراً لله متصدقاً باراً، لكن لا يمسك عليه لسانه، فيغتاب إخوانه، فتأكل تلك الكلمات اليسيرة حسناته العظيمة، فيأتي يوم القيامة مفلساً، يأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فلا يجد لنفسه شيئاً ولا يبقى له يومها إلا الحسرات، وقد قال رسول الله ﷺ: «... وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

أَلَسْتِهِمْ»^(١)، وقال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا يَبِينُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

وتأمل حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا - قَالَ غَيْرُ مُسَدِّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ»^(٣).

وفي الحديث النهي عن الغيبة، والتنبيه لحفظ اللسان، ووصف فعل الغيبة بوصف شديد ودقيق، فهذه كلمة واحدة تصف بها أم المؤمنين عائشة صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بما هو فيها - فكيف بمن يظلم ويشدد ظلمه لإخوانه؟! وكيف بمن يذكر كلمات وكلمات، وتطول به الجلسات في الغيبة والنميمة والمحرمات؟! كم مزجت ألسنتنا من أبحر ونحن في غفلة.

فعلينا بالتقوى في الأقوال والأفعال فقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ^(٧١) [الأحزاب].

فإن كنت من المتقين الله القائلين لما يحبه ويرضاه، أصلح لك عملك، وغفر لك ذنبك.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، والهيثمي في المجمع (٣٠٢/١٠)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٥٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٥)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٨٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، وصححه الوادعي في الفتاوى الحديثية (٤٣٠/١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٣٤)، وتحقيق رياض الجنة (١٥٣٣) وغيرهم.

ما يباح من الغيبة:

قال بعض أهل العلم: «القدح ليس بغيبة في سِتَّةٍ: مُتَظَلِّمٍ، ومُعَرِّفٍ، ومُحَذِّرٍ، ولمُظْهِرٍ فسقاً، ومُسْتَفْتٍ، ومن طلب الإعانة في إزالة مُنْكَرٍ».

أباح الشرع الغيبة إذا وجدت مصلحة راجحة، ومن ذلك:

أولاً: التظلم أو الشكوى:

كالتظلم للحاكم والقاضي، وغيرهما، لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلْتُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ أُمْرَأَةً أَبِي سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النِّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ، فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ»^(١).

«وفي هذا الحديث فوائد، منها.... جواز ذكر الإنسان بما يكرهه، إذا كان للاستفتاء والشكوى ونحوهما»^(٢).

ثانياً: الاستفتاء أو أداء النصيحة:

كقول رسول الله ﷺ، لفاطمة بنت قيس، وقد خطبها معاوية، وأبو الجهم، فقال لها: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ لَا مَالَ لَهُ، أَنْكِحِي أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»^(٣).

قال أبو العباس القرطبي رحمته الله في معرض شرح الحديث: وفيه ما يدل على

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢٤٩/٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

أن ذكر مساوئ الخاطب، أو من يعامل أو من يحتاج إلى قبول قوله، أو فتياه جائز، ولا يعدُّ ذلك غيبة ولا بهتاناً، إذ لا يذكر ذلك على وجه التنقص وإضافة العيب إليه، لكن على وجه الإخبار، وأداء النصيحة، وأداء الأمانة^(١).

ثالثاً: الاستعانة على تغيير المنكر أو رفع البلاء:

كمن له جار يشرب الخمر، أو يأتي بالبغايا إلى بيته، أو ما شابه ذلك، فعليه أن ينصحه بترك هذه المنكرات وبيان عظم الذنب، وعقوبة فاعله، فإذا لم يستجب، فله أن يعلم من حوله بحاله حتى يمنعه، ودليل ذلك الحديث المتقدم.

رابعاً: تحذير المسلمين من أصحاب الشر، أو ممن يخاف عليه:

قال يعقوب لابنه يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٥﴾ [يوسف].

قال القرطبي رحمته الله: وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً^(٢).

خامساً: ذكر المجاهر بالمعصية بما فيه، أو صاحب البدعة

ببدعته:

يجوز ذكر المجاهر بالمعصية بما فيه، كشارب الخمر أو المتبرجة أو قاطع الطريق إلى غير ذلك، وكذا ذكر صاحب البدعة وتحذير المسلمين منه لأن خطره أعظم على المسلمين من خطر صاحب المعصية، ودليل ذلك،

(١) المفهم (١٣/ ١٠٢)، وانظر: معالم السنن للخطابي (٣/ ١٩٥)، عون المعبود وحاشية ابن القيم (٦/ ٢٧١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٨٩).

حديث عائشة رضي الله عنها، ذكرت: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «اُذْنُوا لَهُ، فَلَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بَيْتَسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ» فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ وَدَّعَهُ، أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»^(١).

ويستفاد من الحديث أيضًا جواز المداراة لمن يتوقع فحش قوله وسوء خلقه، وهذا لا يعني النفاق ولا الكذب، ولا وصف هذا الشخص بما ليس فيه، ولا المبالغة في إظهار المشاعر، ولا إظهار المشاعر الزائفة، لكن التبسم، وحسن الاستقبال، وإلانة القول مباح للجميع؛ بل مستحب للبعض.

قال الإمام النووي رحمته الله: وفي هذا الحديث مداراة من يتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه.... ولم يمدحه النبي صلى الله عليه وسلم ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام^(٢).

سادسًا: التعريف إن كان معروفًا بلقب معين:

كمن عُرف بلقب الأعمش والأعرج ونحو ذلك، ولا يحل لمسلم أن يطلق على أخيه المسلم مثل هذه الألفاظ على وجه التحقير أو التنقيص من شأنه، فهذا حرام بإجماع المسلمين كما سبق بيانه. وإن أمكن تعريفه بغير ذلك كان أفضل وأولى وأقرب للتقوى.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٤-٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) شرح مسلم (٣٨٩/٨).

ويدل على جواز ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ^(١) أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هَوْبَهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافعل»^(٢).

والبرص عيب ومرض وصف به النبي ﷺ صاحبه للتعريف، لا للتنقيص، وفي الحديث جواز طلب الدعاء من الصالحين؛ حتى وإن كانوا أدنى في المنزلة.

الترهيب من الغيبة وعقوبة المغتاب:

ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال - في خطبة الوداع -: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ»^(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ هُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ، يَخْمُسُونَ وُجُوهُهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا

(١) أمداد أهل اليمن: هم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو - شرح مسلم للنووي (٨/ ٣٣٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٥-٢٥٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) وغيره.

جبريل؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(١).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»
قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي
يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا،
وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا
مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ
فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٢). وغير ذلك من الأدلة فهي كثيرة.

أسباب الغيبة:

أولاً: الحقد والحسد:

الحسود: إذا رأى من أخيه تفوقاً في مجال من المجالات سواء دينياً، أو
دنيوياً يبغض فضل الله عليه، ويتمنى زواله منه، وربما اتهم ربه بعدم العدل
أو عدم الحكمة والعياذ بالله سواء بلسانه أو بلسان قلبه، وربما انتقص من
قدر من يحسده ويحقد عليه وبخس حقه لتهدأ نفسه، وهيئات أن تهدأ
نفس حسود، ويردد دائماً: لماذا حاز هذا المنصب وأنا أفضل منه؟ لماذا
لديه وليس لدي؟ لماذا يحبه الناس؟ لماذا تفوق في كذا وهو لا يستحق؟
لماذا ختم القرآن ولم أختم؟ لماذا تعلم العلم الشرعي ولم أفرز أنا بما فاز به؟
لماذا هو أغنى، أقوى، أجمل...؟ وغيرها من تساؤلات لا تنم إلا عن جهله
بالخالق الرزاق الحكيم.

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨١).

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

وليعلم كل منا أن من يخفض ويرفع هو الله، وأن من يعز ويذل هو الله، وأن النفع والضرر بيديه وحده، ومهما اجتهد الحاقد في تشويه صورة من يحقد عليه فالقلوب بين أصبعين من أصابعه سبحانه، وهو وحده من مدحه زين وذمه شين، ومهما استفرغ الحاسد الوقت والجهد في إسقاط أخيه لن يفلح، فالذي يرفع أقوامًا ويضع آخرين هو العزيز سبحانه، ولنعلم أن الحاسد يضر نفسه قبل أن يضر غيره، فنار الحسد تأكله قبل أن تأكل المحسود، فالحاسد أراد أن يسقط محسوده فسقط هو من حيث لا يدري، سقط في نظر الناس وعند الله تبارك وتعالى وهذا أشد.

ثانيًا: الفراغ؛

فالنفس إن لم تشغل بالحق، شغلت صاحبها بالباطل، وإن لم يفعل الإنسان ما يفيد غالبًا يفعل ما يضره، فالفراغ يفتح للشيطان سبيلًا ليغوي المسلم ويوسوس له بفضول الكلام مع هذا وذاك، وهذا الكلام يجز خلفه غيبة ونميمة وكثيرًا من آفات اللسان، فهذا فعل وهذا فعل، وهذا طلق وهذا تزوج، وذلك ترك عمله، وهذا ترقى في منصبه، وهذا يستحق وتلك لا تستحق، وهكذا.... الكثير والكثير من القيل والقال الذي لا يجني منه العباد إلا التباغض والتحاسد وفقد الحسنات، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ

اللَّهُ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ^(١).

وضياع الوقت يعد ضياعاً لرصيد ورأس مال الإنسان في هذه الدنيا، فلا تكن كصاحب المال الكثير الذي اغتر بتلك الكثرة وظل ينفق منه وينفق وينفق حتى فوجئ بنفاد ماله، فالأعمار قصيرة، والسنوات محدودة، والساعات المستغلة معدودة، فافعل لنفسك ما تفرح به غداً، وسل ربك البركات، واحذر يوم القيامة الحسرات على هذه الأوقات، فانشغل بالعبادة، وبتعلم أمور دينك، وبحفظ القرآن، وبقضاء مصالح العباد، وبالعمل الدنيوي النافع لك ولغيرك، ولا تترك نفسك فريسة العجز والكسل، وتعوذ بالله منهما على الدوام، كما تعوذ منهما نبيك ﷺ.

ثالثاً: ضعف المراقبة؛

لو علم المرء أن ربه سميع، خبير، عليم بذات الصدور لاستحى أن يعصيه بتلك المعصية المشينة، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢٨) [فاطر]، فإن كان عالمًا بدينه لخشاه وراقبه في الخلوات، بل وإن كان لديه شيء من العلم لاستحى من الملائكة التي تحيط به، فقد قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١٨) [ق]، فالملائكة مراقبين للعباد ليل نهار، يكتبون ما يقولون وما يهمسون، يكتبون الهمز واللمز، يكتبون التهكم على الخلق يكتبون كل شيء، فلننتبه لذلك جميعاً.

رابعاً: الاجتهاد في إرضاء الناس؛

فالبعض يغتاب إخوانه؛ لإرضاء من يحب، أو لإرضاء من يظن أنه

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

يملك منفعةً له، أو لإرضاء من يخجل من منعهم من هذا المنكر، فيشاركهم في هذا الضلال.

فكم مرة تكلم فيها شخص عن إخوانه؛ ليظهر في ثوب خفيف الظل ذي الحس الفكاهي، فيضحك ويضحك من حوله؟!

وكم مرة تمادى شخص، أو خاض في الغيبة؛ لخوفه من تهمة التشدد؟! وكم مرة اغتاب فيها أخاه المسلم؛ ليستجلب رضا آخر بينه وبين الأول عداوات؟! هذا كثير، ولا يكون إلا من حب الدنيا، وضعف اليقين، ومظنة أن النفع بيد الخلق لا بيد الله، وأن القلوب يقلبها غيره سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس]، فإن أراد الله أن يجعله محبوباً بين الخلق لفعل، وإن أراد أن يجعله مبغوضاً عندهم؛ لفعل، حتى وإن داهن وناق و اغتاب ليل نهار.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»^(١).

ولنعلم أيضاً أن المحبة الوقتية التي تظهر على وجوه من يحاول المغتاب إرضاءهم ما هي إلا سراب وكذب منهم، أو مكر من الله ﷻ لمن رضي أن يأكل لحم إخوانه، وسرعان ما ينقلب السحر على الساحر، وكما اغتاب هو المسلمين سيُغتَاب وسييغضه الخلق، وسيعلم عواقب فعله في الدنيا قبل الآخرة.

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (١٦٢ / ١ - ٢)، والجوزجاني في كتابه «أحوال الرجال»، وابن حبان (١٥٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١١).

الأثر الثالث: سلامة القلب من الحقد ومن كل شر:

من آثار معرفة اسم السلام على العبد المؤمن، أن يسعى في طهارة قلبه من الحقد ومن كل شر، فلا ينفع العبد في الآخرة شيء إلا القلب السليم.

قال جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

«كل عبد سَلِمَ من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبه، وسَلِمَت عن الآثام والمحظورات جوارحه، وسَلِمَ عن الانتكاس والانعكاس صفاته فهو الذي يأتي الله بقلب سليم....»

وأعني بالانتكاس في صفاته، أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه، إذ الحقُّ عكسه، وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه، فإذا انعكس فقد انتكس ولا سلامة، حيث يسير الأمير مأموراً والملك عبداً، ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه»^(١).

لا يسلم الخلق ممن لم يسلم من نفسه..

قال النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٢).

فلا يسلم الناس ممن امتلأ قلبه بالحقد والحسد، ولا يسلمون ممن لم يسلم لسانه من الآفات، لا يسلمون أبداً ممن لم يستطع قهر غضبه وشهواته المحرمة، لا يسلم الخلق من العبد إلا إن سلم هو من شر نفسه أولاً، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

(١) المقصد الأسنى (ص: ٤٧-٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٤١).

اسم الله

الحكماء

٢٢

الحكمة

من الأسماء التي عدّها جمهور العلماء من أسماء الله تعالى^(١)، لكنه لم يذكر صراحة في القرآن -أي: لم يأت بصورة الإطلاق ولا بصورة الإضافة- ولكنه جاء متضمناً في الآيات:

كقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وجاء في السنة صراحة بصورة الإطلاق:

عن شريح، عن أبيه هانئ أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكونونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟ فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوُلْدِ؟» قَالَ: لِي شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»^(٢).

(١) راجع -إن شئت- أسماء الله الحسنى لجمع من العلماء الذين اعتنوا بهذا الباب الجزء الأول من الكتاب - باب التمهيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٤٠٢)، وابن حبان (٥٠٤)، وقال الدارقطني في

وكانت كنيته في البداية كما ورد؛ لرضا الناس بحكمه إذا حكم، وامتثالهم أمره وقضائه إن قضى بينهم في قضية أو إشكال، فكنوه بذلك، لكن النبي ﷺ نهاه عن التكني بهذه الكنية - بهذه العلة - وبين لنا ﷺ أن من إليه الحكم هو الرب تبارك وتعالى.

والنهي هنا كان دفعاً لظن من يظن أن حكم فلان كحكم الملك ﷻ، فشريح ﷺ كنّوه بهذه الكنية لأنه اشتهر بالحكم بين الناس - لا لعلّة أخرى - فكان النهي منه ﷺ.

وإلا فأسماء البشر ربما تشترك مع أسماء الله تبارك وتعالى في المسمى، كوصف الله ﷻ لإسحاق بالعليم، ووصفه لإسماعيل بالحليم - عليهما السلام - ولا يقتضي هذا الأمر المساواة في الصفات، ف سبحانه ليس كمثله شيء، كما تقرر ذلك.

وهذا النهي أيضاً كنهى النبي ﷺ عن التسمي بالأسماء التي تدل على تزكية صاحبها لنفسه أو تزكية أهله له؛ كالتسمي ببرّة، إيمان، تقّي، وغيرها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم، ٣٢) وعن أبي هريرة ﷺ: «أَنَّ زَيْنَبَ، كَانَ اسْمُهَا بَرَّةٌ فَقِيلَ: تُزَكِّي نَفْسَهَا، فَسَمَّاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ» (١).

فالأسماء التي تحمل معنى صفات الله ﷻ، وتسمّى بها أحد البشر

= التتبع (١٠٨): يلزمهما إخرجه - البخاري ومسلم - وحسنه الوادعي في الصحيح المسند (١١٩٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٧/٨)، والأدب المفرد (٦٢٣)، وصحيح أبي داود الأم (٤٩٥٥)، وصحيح النسائي (٥٤٠٢).

(١) أخرجه البخاري (٦١٩٢)، ومسلم (٢١٤١).

خصيصًا لحمله تلك الصفة تُترك وينهى عنها لما روي عن شريح؛ فقد يفضي بسبب هذه التسمية من تعظيم العبد أو إطرائه بما لا يصح ولا يليق^(١).

□ معنى اسم الحكم لغة:

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: الحاء، والكاف، والميم، أصلٌ واحد وهو المنع، وأول ذلك الحُكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حَكَمَة الدابة لأنها تمنعها، يقال: حَكَمَت الدابة وأَحْكَمَتَهَا، ويقال: حَكَمَت السَّفِيهَ وأَحْكَمَتُهُ، إذا أخذت على يديه^(٢).

قال الكفوي رَحِمَهُ اللهُ: الحكم في اللغة: الصرف والمنع للإصلاح، ومنه (حَكَمَة الفَرَس) وهي الحديدية التي تمنع عن الجموح... وحكم بينهم وله وعليه أي: قضى.

والحكم أعم من الحكمة، وكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة.

والحكم في العرف: إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا...

وفي اصطلاح أصحاب الأصول: خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاختضاء أو التخيير^(٣).

فمنع الشيء أو صرفه عن مساره الأول أو حاله الأصلي للمنفعة والإصلاح يسمى حكمًا، وهذا أعم من الحكمة؛ فكل حكمة تعد حكمًا،

(١) انظر تفصيل المسألة: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (٣٠٠٣/٧)، عون المعبود (٢٠٢/١٣)، والمفهم (٥٠١-٥٠٠/٧)، شرح سنن أبي داود لابن رسلان (٥٤-٥٢ / ١٩).

(٢) مقاييس اللغة (٢/٩١).

(٣) الكليات (ص: ٣١٧).

وليس العكس، وكل من قال قولاً تظهر فيه الحكمة تضمنت حكمته ولا شك حكماً، أما من حكم فربما تضمن حكمه حكمة وربما كان حكمه غير صائب ولا نافع، بل بتسرع ورعونة فيكون لا حكمة فيه.

والحكم في العرف: إسناد إلى شخص سواء كان الحكم مسدداً أم لا، حلالاً كان أم حراماً.

□ معنى الحكم في حق الله تعالى:

قال الحلبي: وهو الذي إليه الحكم، أصل الحكم منع الفساد وشرائع الله كلها استصلاح للعباد^(١). انتهى.

فشرع الله ﷻ يحمل الخير بكل وجه من الوجوه، فما أمر الله سبحانه وتعالى العباد بأمر إلا كان فيه مصلحة خالصة أو راجحة، وما نهى عن شيء وحرّمه إلا وكان فيه مفسدة خالصة أو راجحة، وهذا يقين لا بد أن يرسخ في القلوب؛ لتصلح العباد والبلاد، ولئلا يضل العبد شيطاناً، فيوقعه في الاعتراض على شرعه سبحانه.

ومثال على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فذكر أن فيهما منافع ولكن الإثم أكبر من النفع.

فالمصلحة الكاملة أو الراجحة في الأمر والمفسدة الكاملة أو الراجحة في النهي هي الدين كله، فسواء كان الأمر واجباً أو مستحباً، أو كان النهي حراماً أو مكروهاً، فكلها مصالح مرجو حدوثها للعبد، ومفاسد مرجو درؤها عنه.

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٢٨).

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة] وهذا استفهام للتوبيخ والإنكار ممن رضي بالدنية، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وابتغى حكم الجاهلية ورضي بحكم البشر، وأبى الإذعان والانقياد لحكم رب البشر، فمن اعتقد أن حكمه كحكم الله أو أفضل منه فقد كفر.

فمن تيقن من كمال شرعه وحكمه سبحانه لا يرضى بحكم غيره وإن رضي من رضي أو أبى من أبى، فالراضي بالدنية دنيء، وما ينبغي للمسلم أن يكون دنيئاً...

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى؛ من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: الحكم لمن له الحكم، وهو تنفيذ القضايا وإمضاء الأوامر والنواهي وذلك بالحقيقة هو الله تعالى^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٥/١٩٦) ط. دار ابن رجب.

(٢) شرح الأسماء الحسنى للقرطبي (١/٤٣٨).

فمهما أصاب الحاكم في حكمه، فالحكم الحق على الوجه الكامل هو الله تعالى، فهو من يمضي الأوامر والنواهي ليصلح أحوال العباد والبلاد.

اسم الحكم يرجع إلى ثلاث معان:

تارة يرجع إلى معنى الإرادة، وتارة يرجع إلى معنى الكلام، وتارة أخرى يرجع إلى معنى الفعل^(١).

وقوله الحكم يرجع لإرادته أي أن حكمه بما اقتضته إرادته، لا يُسأل عن حكمه، فالأمر أمره والنهي نهي، ولا إله غيره، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء] لعز جلاله وعظيم سلطانه، ولقوته وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول ولا بفعل.

وأيضاً لكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها، وإتقانها على أكمل وجه، لا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه وحكمه ليس فيه خلل ولا إخلال. لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصرفهم فيما شاء من حياة وموت، وإعزاز وإذلال، وغنى وفقر، فالحكم حكمه، والقضاء قضاؤه^(٢).

كيف يُسأل من كان ولم يكن قبله شيء، كيف يسأل الخلق من يخلقهم ويقدر لهم مقاديرهم ويصرف لهم أمورهم وييسر لهم معاشهم؟! هذا عجيب! ولا يُتخيل حتى في حق البشر، إن سأل شخص آخر في أحوال بيته وأولاده وشؤونهم، وتطفل على سبب فعله لأمر أو تركه لأمر من أموره الخاصة وألح في معرفة ذلك، لعد ذلك المرء تطفلاً وخروجاً عن المألوف

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/١٩)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٢١).

وفعل ما لا يليق، وربما ضاق به صاحب الحق ذرعًا بالرغم من علمه أن سائله هذا مخلوق مثله وقدراتهما متقاربة، فأنى يكون ذلك في حق الرب تعالى؟! الله الذي لا ند له ولا كفاء له، فلا حكمة كحكيمته ولا رحمة كرحمته ولا تدبير كتدبيره لخلقه، ولا شيء مثله.

وقيل: «الحكم يرجع لمعنى كلامه، فيكون معناه: الممين لعباده في كتابه ما يطالبهم به من أحكامه، كما يقال لمن يُبين للناس الأحكام، وينهج لهم معاني الحلال والحرام: حكم، وعلى هذا فلا يكون في الوجود حكم إلا كتابه، فعنده يوقف إذ هو الحكم العدل»^(١).

قال ابن الحصار: وقد تضمن هذا الاسم -الحكم- جميع الصفات العلى والأسماء الحسنى، إذ لا يكون حكمًا إلا سميًا بصيرًا عالمًا خبيرًا إلى غير ذلك^(٢).

فالحكم -حقًا- لا بد أن يكون سميًا بصيرًا؛ ليرى ويعلم بما يحكم ولمن وعلى من يحكم، حكيمًا فلا يحكم إلا بما فيه نفع وصلاح، قويًا قديرًا على إمضاء حكمه دون عجز أو قهر، بل هو القاهر فوق عباده.

ماض فينا حكمه، عدل فينا قضاؤه....

«فهو سبحانه الحكم بين العباد في الدنيا والآخرة في الظاهر والباطن، وفيما شرع من شرعه، وحكم من حكمه وقضاياه على خلقه قولًا وفعلًا، وليس ذلك لغير الله تعالى، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ [الفصلص]، وقال: ﴿الرَّ كِتَبٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود].

فلم يزل حكيماً قبل أن يحكم ولا ينبغي ذلك لغيره.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا حكم إلا الله تعالى وحده وأن كل أفعاله أحكام وقضايا، وكل أقواله حكم ووصايا. ويجب عليه أن يعلم أن الرسل عليهم السلام هم معادن الحكمة، وأهل الحكم، ولم يفوض الله تعالى الحكم إلا لهم، وكل من سواهم يجب عليهم الاقتداء بهم، وأن لا يحكموا إلا بما أنزل الله، وتعبّد الله كافة المؤمنين بنصب الحكام، وإقامة الأحكام، ولا خلاف في ذلك في الجملة، ثم يجب على كل مسلم إذا دعي إلى الحكم عليه أن يجيب إلى ذلك، وينقاد لحكم الله تعالى عليه إذا توجه عليه، وإلا كان ظالماً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور] ويجب على الحكام أن لا يتعدوا حكم الله الذي شرعه لهم ونصبه فصلاً بين عباده، وأن يحكم الحاكم بالحق وإن كان على نفسه كما قال: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿١﴾.

وقيل: الحكم الذي لا يقع في وعده ريب، ولا في فعله عيب ^(٢). انتهى.

سبحانه له الوصف بصفات الكمال ونعوت الجلال مع محبته وتعظيمه، وحكمه سبحانه في خلقه يكون في دنياهم وآخرهم، فحكمه في الدنيا يكون

(١) الأسنى في شرح الأسماء الحسنی للقرطبي (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٢) شرح الأسماء الحسنی للبيضاوي (ص: ٢٣٤).

بتقديره الشقاء والسعادة وغيرها على الخلق، والحكم فيهم وفي شؤونهم بالعدل والقسط، ويكون بقوله - أحكامه في القرآن - لهم وإجراؤه لتلك الأحكام عليهم، ويكون حكمه في الآخرة عليهم، ففريق مآلهم للجنة وفريق مآلهم للسعير، سبحانه ماضٍ فينا حكمه في دنيانا وأخرانا شئنا ذلك أم أبينا.

وقد أحكم سبحانه آياته، وفصل فيها، فأنزل كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يعتريه نقص ولا خلل، وقدّر حفظه وأخبرنا بذلك، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر].

فوض سبحانه رسله الكرام للحكم بين العباد بالحق، فقد حباهم من الحكمة والخيرية، ما تفضل به عليهم، وأوجب على كل من سواهم الاقتداء بهم في أمور دينهم، والحكم بما أنزل الله فيهم، فلا يحكم الحاكم إلا تبعًا لما جاء به الرسول، فلا يتجرأ أن أحد على التنصل من شرعه سبحانه، ولا يرخصن أحد لنفسه ولا لغيره رخصة لمعصية الله تعالى أو للتفلسف من أوامره سبحانه وتعالى.

فقد يُدعى العبد لأمر الله، فيحصل في قلبه من المشقة والهم، ما لا يحمله على جهاد نفسه، خاصة إن كان الأمر فيه بذل - سواء للجهاد أو للمال أو للوقت - فنفسه تأبى التكليف، وهذا لصاحب النفس الكسولة المتوانية والقلب الضعيف، فإذا دعي إلى تحكيم شرع الله وبيّن له الأدلة وظهرت له جليلة مفهومة لا ريب فيها ولا لبس، أعرض وتكاسل وساق الحجج الواهية، فإن رأى الخير لنفسه والمصلحة الدنيوية في تطبيق هذا الحكم أذعن له - ابتغاء الدنيا لا الآخرة - كأنه يتخير من الشرع ما يريد وما

يوافق رأيه القاصر، وإن حُكم بخلاف ما يراه عقله تجاهل وتنصل، ظناً منه أن المشقة ستلاحقه، وغاب عنه أن تلك المشقة -التي يزعم أنه عاجز عن تحملها- ما هي إلا في بدايات العمل ولا تكون للتعذيب بل للتمحيص ثم تتحول لسعادة وراحة وأنس بالله.

ووصف الله تبارك وتعالى - في الآية السابقة - الذي يحكم شرع ربه فيما يوافق هواه ويرفضه فيما يخالفه هواه، بأنه لا يخرج أمره عن أن يكون في قلبه إحدى هذه الصفات:

- مرض لازم للقلب.
- أو شك في الدين.
- أو الخوف من جور الله تعالى ورسوله ﷺ في الحكم.

وختم جل ذكره تلك الأوصاف بظلم النفس، فهو ظالم لنفسه ابتداءً وانتهاءً؛ ظلمها حين رد حكم الله تعالى وتحجج بالحجج والأقاويل، وظلمها حين استسلم لمرض قلبه بل ومكّنه من نفسه بدلاً من أن يقاومه ويعالجه بالاستعانة بالله، وظلمها حين تلبس قلبه بالريب الذي يؤدي به للخروج من الدين، وظلمها حين ظن أن ربه قد يحيف عليه ويظلمه وحاشاه ربي تبارك وتعالى الملك العدل الذي لا يُظلم عنده أحد حتى وإن كان أظلم الظالمين في الأرض وأعظم المتجبرين.

الحكم بما أنزل الله واجب على الجميع حكماً كانوا أم

محكومين؛

ويجب على الحكام ألا يتعدوا حكم الله الذي شرعه لهم، ونصبه فصلاً

بين عباده، وأن يحكم الحاكم بالحق وإن كان على نفسه كما قال: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فانتقل من المسألة الفردية إلى الجماعية، فأشار إلى أنه على الحاكم ألا يتعدى حكم الله، حتى وإن كان ذلك الحكم يقضي به على نفسه، ولكن علينا أن ننتبه أن كلمة الحاكم المقصود بها كل من له حكم في مسألة ما، فالرجل حاكم في بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة كذلك، فالحكم بشرع الله تعالى واجب على الجميع.

يأمر ربنا تبارك وتعالى بالحكم بالحق، أي بما أنزله سبحانه، ويحذر من اتباع الهوى، فمن لم يحكم بكتاب الله حكم بهواه إذ لا سبيل ثالث بينهما.

واعلم أن الهوى أمره شديد فما ضل ضال عن الطريق، ولا حاد عن الجادة، وما تلمس الرخص وزلات العلماء إلا بسبب الجهل واتباع الهوى، فمنهم من يبحث عن رخصة لأكل الربا ومال اليتيم، ومنهم من يبحث عن رخصة لفعل الموبقات وسماع المنكرات، وغيرها من شهوات تُتبع، وشبهات يشرها القلب بسبب اتباع الهوى، بل وقد يصل الأمر أن يُتخذ الهوى إلهاً يأمره وينهاه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، فقد قال جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٣).

[الجاثية] فمتبع هواه لا يسمع الحق وإن علا صوته، ولا يرى الأدلة وإن كانت واضحة جلية كالشمس في رابعة النهار، ولا يجد الحق إلى قلبه سبيلاً،

ولا يعيه عقله وإن كان أذكى الناس، فذاك مخذول مفتون خُتم على سمعه وبصره وغشي قلبه.

عقوبة الإعراض:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم، حتى ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير فلم يروها منكراً، فجاءتهم دولة أخرى، قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداينة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل^(١).

وصف ابن القيم أحوال الناس في زماننا، وكأنه يحيا معنا الآن ويرانا رأي العين، بالرغم من وفاته من مئات السنين.

فقد أعرض كثير من العباد عن شرع الله وتحكيمه في أنفسهم وفيما بينهم، وعدلوا عنه لما دونه من الآراء والأقوال والقياسات الفاسدة، ومن ذلك ما نسمعه الآن من نشر أقوال فقهية عجيبة بحجة القياس والقياس منها براء.

وهؤلاء قد ابتلوا بنفوس خبيثة تستحسن ما يخالف الشرع، فإن

(١) فوائد الفوائد (ص: ٤٤٠).

أخبرتهم بحرمة الطواف حول القبر، استحسنا فعلهم وجادلوا جدالاً طويلاً؛ لإظهار قولهم ونشره بين الناس بحجة محبة الصالحين وطلب شفاعتهم والتقرب لله بذلك، وظنوا أن قولهم ورأيهم أحب إلى الله من شرعه، وهذا عجيب! وكأنهم يعلمون مراد الله منهم أكثر من علم الله ذاته بمراده هو منهم، وهم بذلك يتشبهون بعقيدة المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]!

وكذلك من صفاتهم الاحتجاج بقول الأفراد لا قول الله وقول رسوله، كمن يحتج برأي شيخ من المشايخ ويترك حديثاً واضحاً صحيحاً وصریح الدلالة في أمر ما، وينسى أنه كلُّ يؤخذ من قوله ويرد، وأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ.

فلما فعلوا ذلك انتكست فطرهم وابتلوا بظلمة القلب، وسوء الفهم، وضعف التفكير وعجز العقل وتنفسى ذلك فيهم وعم، حتى أنه تربت فيهم أجيال على هذا الاعتقاد الفاسد، فصار شبابهم يقولون كمن قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فتحولت حياتهم ودنياهم، فصار الخبيث لديهم طيباً والطيب خبيثاً، وصار العدل ظلماً والظلم عدلاً، وتبدلت النوايا وتغيرت، فلن ينجو إلا من عض بنواجذه على قول الله ﷻ لنبيه داود: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

فذاك نذير شؤم:

«فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها وكان أهلها هم المشار إليهم. فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت وراياتها قد نصبت وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس»^(١).

وهذا ظاهر جلي، فالمُقدم في المجتمع الآن هم أصحاب الصفات السالف ذكرها، وهم من يشار إليهم بالبنان، فيكرمون ويعظمون، فيظهرون وكأنهم القدوة والمثل الذي يحتذى به، في حين أن ذوي الفطر السليمة والنفوس الطيبة والديانة والأمانة يؤخرون بل ويتقص من قدرهم ومكانتهم. وقد اتسعت رقعة الفساد وسوء الخلق ومرض القلب، حتى صار السليم المعافى هو المنبوذ السقيم، وما العجب وقد انتشر اتباع الهوى، وسوء الظن، والحق والحسد، والمنافسة على الدنيا، ولم ينبج من ذلك إلا من رحمه الله، فلما أصبح هذا واقعنا، كان نذير شؤم إذ ظهر الفساد في ديانا، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤١) [الروم]. وكانت العقوبة، من محق البركات في الطعام والوقت والمال والصحة وغيرها من نعم، وما عوقب الخلق بمثل ذلك إلا جزاء ذنوبهم وإعراضهم عن ربهم وعدم تحكيم شرعه.

فتكدت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من

الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعتزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء].

اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة والثلث موجود والبضائع رخيصة وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير، ذلك يوم التغابن يوم يعرض الظالم على يديه.

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وإنك لم ترصد لما كان أرصدا^(١)

□ آثار معرفة العبد لاسم الحكم:

الأثر الأول: الإيمان بأن الحكم من خصائص الملك سبحانه

وتعالى:

فالحكم من أخص خصائص الرب -تبارك وتعالى-، إذ الله قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

فالحصر بإلا، يفيد أنه لا تحاكم إلا له ولشرعه سبحانه، وأمرنا سبحانه

(١) الفوائد (ص ٤٤٠-٤٤٢).

في الآية بالعبادة، وهي هنا بمعنى الطاعة، أي الحكم له، وقد أمركم ألا تطيعوا إلا إياه تعالى.

وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأنعام].

فهو وحده من يحكم، ويجازي العباد على حسناتهم، وعلى سيئاتهم، وذلك لكمال علمه المقتضي لحفظ أعمال العباد بما أثبت له في اللوح المحفوظ، ثم إثباتها في الكتب التي في أيدي الملائكة.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والملك والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، فهو من أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فهذا يدل على أن الحكم القدري والحكم الشرعي، والحكم الجزائي لا يكون إلا لله تعالى، فبحكمه القدري قدر أموراً في اللوح المحفوظ، وبحكمه الشرعي قدر وجود الأمر والنهي، وبحكمه الجزائي قدر حساب العباد في الآخرة، فأني للفجار والكفار والعصاة العدول عن من ذلكم وصفه ونعته إلى شرع من ليس له من الأمر شيء^(١).

الأثر الثاني: أن حكم الله تعالى ماض، فلا معقب لحكمه؛

فمن ذا الذي يستدرك أو يعقب على حكم الملك تبارك وتعالى، وقد قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد].

واعلم أنه مهما أوتي القاضي -الذي كُلف بالقضاء بين الناس- من حكمة وذكاء وعدل، فحكمه يعتريه النقص والقصور وربما الظلم؛ لذلك فحكمه يعقب بل ويستأنف عليه مرة وأكثر، وقد يستجيب لذلك التعقيب ويرجع في

(١) ملتقط من تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٥٩) بزيادة وتصرف.

قراره، فكم من عبيد بات معاقباً لحكم قاضٍ ظالمٍ أو مخطئٍ!، أما ملك الملوك ورب السماوات السبع والأرضين السبع فلا معقب لحكمه ولا راد له ولا مانع من نفوذه، فأحكام الله «في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه»^(١)، وكلما ابتعد خلقه عن حكمه ضلوا وأضلوا واختلفوا وتنازعوا، وهذا مما لا يخفى على أحد.

الأثر الثالث: أن الحكم الجزائي يوم القيامة لله وحده؛

قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١١٣)

[البقرة]، من رحمة الله تبارك وتعالى بخلقه أن جعل حسابهم عليه وحده، لا لنبي مرسل ولا لملكٍ مقرب، ولا حتى لوالدي العبد، فالبشر مهما أحبوا فحبهم قاصر، وإن عدلوا فعدلهم ناقص، وإن حكموا فحكمهم يعتريه الخطأ والجهل والنسيان، فهم بشر الأصل فيهم النقص، فالحمد لله أن كتب على نفسه الرحمة، الحمد لله العدل الحكم الحكيم، بل حرّم الظلم على نفسه، قال سبحانه في الحديث القدسي: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا...»^(٢)، بل وإنه من عدله سبحانه جعل لدعوة المظلوم مزية خاصة، إذ قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٣).

(١) ما بين القوسين من المصدر السابق.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤٨)، صحيح مسلم (١٩).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ (٥٧)

[الأنعام]، فهو وحده مَنْ يفصل بين المجرمين والمسلمين، وبين الطائعين والعاصين، وبين المتبع لهواه والمستسلم لشرع ربه، قال تبارك اسمه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم].

الأثر الرابع: أن تجعل الشرع حاكماً على العقل والنفس والهوى:

فلو أدرك العقل إدراكاً جازماً أن الرب تبارك وتعالى قد حكم بين عباده؛ ليجلب لهم كل نفع ويدفع عنهم كل شر، ويصرفهم عن الفساد والضلال والغي، ثم يرزقهم بعدها حياةً كريمة في الدنيا بالستر، وهدوء النفس، وطمأنينة القلب، وفي الآخرة بالقرار في دار السعادة عند ملك مقتدر، فلو علم المرء ذلك، لآمن وأذعن وانقاد للشرع دون معارضة، إذ لا يعارض عقل صحيح نصّاً صريحاً أبداً، ولكن المعارضة وعدم الاستسلام تتولد من فساد العقول، فالذي خلق الإنسان وعقله وذكائه العليم الخبير بمصالح خلقه في معاشهم ومعادهم.

فلو عرضت للإنسان العاقل مسألة شرعية علم فيها كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ لكن لم يدركها عقله تمام الإدراك أو لم يظهر له حكمة الأمر أو النهي الوارد في المسألة، ولم يصل لمن يفصل له المسألة ويفتح عليه فيها، أو كانت المسألة مسألة غيبية يعجز العقل البشري عن معرفة كنهها، فإن كان عاقلاً حقاً وحكماً عقله لأرشده لطريق النجاة وهو الاستسلام للأمر، واتباع النص، والابتعاد عن طريق الشبهات، لئلا يضل ويُضل، وهذا السبيل هو سبيل سلفنا الصالح وأئمتنا الكرام أهل السنة الذين شهدت لهم الأمة

بالخيرية، وهو منهج كل عاقل يريد النجاة والسلامة لنفسه في الدنيا والآخرة، وهو طريق آمن مستقيم لا انحناء فيه ولا اعوجاج، طريق لعلاج ما يصيب القلب من خلل أو هوى، وسيعلم بعدها أن الشرع هو الحاكم على العقل مهما بلغ من ذكاء، وعلى القلب مهما بلغ من تقوى وبصيرة.

علامة قوة الإيمان....

إن نازعتك نفسك ونازعتك هواك ورأيك، ونازعتك الأقربون منك، ونازعتك قول شيخك المقرب الذي تتبعه - إن كان قوله مخالفاً لقول الله تعالى -، ولو نازعتك حتى قلبك، فعلمة صحة إيمانك هو ترك كل ما ذكرنا جانباً، وترجيح قول الله ﷻ وقول رسوله.

فالتلازم حتمي بين قوة الإيمان، وتحكيم شرع الله في كل أمور الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب]، بل إن الاختيار ليس من شأن العبيد، فإن كانوا عبيداً للملك جل وعلا واعترفوا بذلك ورضوا بذلك التشريف، فالعبودية له وحده فليس لديهم الخيرة بين أمره وأمر غيره، بل ما يملكون إلا الانقياد والقبول، فلا يليق بمن ادعى الإيمان والمحبة والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً التنصل والتفلت وروغان الثعالب فليست هذه صفات المسلمين، بل تلك صفات المعاندين من بني إسرائيل.

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور]، وقد علق

الفلاح والإيمان على السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ.
 أسأل الله جل في علاه أن يجعلنا من عباده المتقين المخبتين الذين
 يرجون رحمته ويخافون عذابه.



اسم الله

الْعَالَمُ - الْعَالَمُ

٢٤-٢٣

الْعَالِمُ وَالْعَالَمُ

العليم: جاء في النص بصورة الإطلاق:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) [يس].

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤) [الأنبياء].

وقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) [الروم].

وقوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) [يس].

وقد أجمع العلماء الذين اعتنوا بجمع الأسماء الحسنى، أنه اسم لله تعالى ^(١).

وأما العالم فقد ورد مضافاً في النص:

في قوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤) [التوبة].

وقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩) [الرعد].

وقال أيضاً: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) [التغابن].

وهو من الأسماء التي اتفق أكثر أهل العلم على كونها من الأسماء

الحسنى، وممن تبنى هذا الرأي من المتأخرين العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ^(٢).

(١) انظر: جمع الأسماء الحسنى، لجمع من العلماء الذين اعتنوا بهذا الباب - أول الكتاب،

الجزء الأول.

(٢) انظر: المصدر السابق.

□ معنى العليم والعالم لغته:

قال ابن دريد الأزدي رَحِمَهُ اللهُ: العلم: ضد الجهل، رجل عالم من قوم علماء وعالمين، وأعلام القوم: سادتهم، ومَعالم الدين: دلائله، وكذلك معالم الطريق، والواحد مَعْلَم. وفلان مَعْلَم للخير، أي مَظَنَّة له... ورجل عَلاَمَة، الهاء للمُبَالَغَة... والعالم والعليم واحد^(١).

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: العين، واللام، والميم، أصل واحد، يدلُّ على أثرٍ بالشيء يتميز عن غيره، ومن ذلك العلامة، وهي معروفة، يقال: عَلَّمت على الشيء علامة...
والعلم: نقيض الجهل، وقياس العلم والملازمة، والدليل على أنها من قياس واحد، قراءة بعض القرّاء: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، قالوا: يراد به نزول عيسى عليه السلام، وإن بذلك يُعلم قرب الساعة^(٢).

□ معنى العليم والعالم في حق الله تبارك وتعالى:

اسم الله العليم، يدل على صفة العلم لله -تبارك وتعالى-، ومعلوم أن الأسماء تدل على ذات الله تعالى، وتدل على صفاته كذلك، فسبحانه لم يزل ولا يزال عالمًا، وعلمه كامل غاية الكمال، ليس فيه نقص ولا قصور، ولا يحتمل الخطأ ولا الغلط كعلم البشر.

فسبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن، وما لم يكن لو

كان كيف يكون:

علم سبحانه كل ما فات وكل ما هو آت، علم ما حدث فيما مضى، وما

(١) جمهرة اللغة (٢/٩٤٨).

(٢) مقاييس اللغة (١٠٩/٤ - ١١٠) مادة (علم).

يحدث الآن على وجه التفصيل الدقيق، يعلم ما تحويه صدور الخلق من محاسن أو شرور، وما سيحدث في المستقبل، ولكون علمه لا مثل أو كفاء له، فهو يعلم ما لم يقع لو وقع كيف كان سيقع، فلو قدر سبحانه موت رضيع، فهو يعلم موعد موته ويعلم لو قدر له البقاء كيف كانت ستصير حياته وهل كان سيشقى أم سيسعد، سيكون غنياً أم فقيراً، أو غير ذلك، سبحانه، لا يحيط بعلمه أحد.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٣﴾ [لقمان]، وجاء على بناء فاعل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾ [يوسف] ^(١).

وهذه من خصائصه سبحانه، فهو وحده العليم بذات الصدور، وحده من يعلم النوايا، بل ربما يضطرب الإنسان في تحديد حال قلبه إن كان مخلصاً أم شاب إخلاصه شوب، ولا يحكم على حال القلوب إلا الرب جلّ في علاه، فإن كان الإنسان لا يملك الجزم لنفسه بصلاح نيته، فحري به ألا يحكم على نية غيره.

قال ابن القيم في نونيته:

وهو العليم أحاط علماً بالذي	في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما	قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو	كان كيف يكون ذا إمكان ^(٢)

(١) شأن الدعاء (ص: ١٢٣).

(٢) شرح القصيدة النونية، لجمع من العلماء (٣/ ٨٦).

فأبشر:

فربك عليم، يعلم جرحك وألمك وضيق صدرك وبلاءك، يعلم أمنياتك التي فقدت، وأحلامك التي أجلت، يعلم ما تركت لأجله وما فعلت ابتغاء مرضاته، يعلم كيف آذاك كثيرون؛ لأنك لزمته أمره وتركت نهيه، يعلم كيف انتقصوك وسخروا منك، وهمزوك ولمزوك، يعلم ما حل بك من بلاء، يعلم ماذا فعل بقلبك فقد الأحبة، أبشر فربك يعلم كل شيء، وهو الملك المهيمن على القلوب، العليم بما في الصدور، لا تضيع عنده الودائع، وهو الجبار الذي يجبر كسر قلوب عباده المؤمنين ويعوضهم خيرًا، وهو الشكور الذي يجازي بعظيم الأجر على كل ما أصابهم من ابتلاءات وهموم...

وأبشر فبرغم علم ربك الواسع بما يجول في عقول العباد من خواطر وأفكار، يسترهم ولا يفضحهم أمام الناس فيسقطوا من أعينهم أو تقل محبتهم لهم، ولا أمام أعدائهم فيشتموا فيهم، ويفرحوا بزللهم ونقصهم.

علم الآدمي قاصر...

فالآدميون «وإن كانوا يوصفون بالعلم فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان»^(١)، وقد نجد الواحد منهم عالمًا بالفقه غير عالم بالنحو، وعالمًا بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور.

(١) ما بين القوسين، من شأن الدعاء (ص ١٢٣).

فمهما علم ابن آدم فهو جاهل، ومهما تعلّم فهو لمزيد من العلم فقير، ومهما زاد علمه في حال فسيتغير في حالٍ آخر، فالعقل والجسم البشري يصيبهما القصور والخلل والضعف، إما بمرض وهرم، أو بسهو ونسيان، والرب القدير وحده هو من تنزه وتقدس عن الآفات كلها، فمهما نبغ عبدٌ في نظر الناس فهو مقارنة بما لا يعلمه - من علم الدنيا أو الدين - يعد جاهلاً، حتى وإن سمّاه الناس أعلم العلماء، سواء في مجاله أو في غيره، فإن نبغ على سبيل المثال في علم الطب فعلمه في الطب قاصر مهما بلغ، وهو يُعدّ جاهلاً في علومٍ أخرى ولا بد، وقد تكون تلك العلوم سهلة وبسيطة، لكنه يجهلها لأنه بشر، فلا يحوي عقل بشري مخلوق العلم كله أبداً، فليُنظر الإنسان إلى حاله، فيخضع لخالقه ويتواضع للخلق، فلا يتعظم، ولا يتكبر؛ لعلمه أن العلم الكامل للخالق العليم وحده.

فائدة:

«لا يصح أن يُقال علامة في صفة الله، وإن صح أن يُقال: رجل علامة، لأنها وإن كانت للمبالغة، فهي في وصف لمن خرج عن القلة إلى الكثرة بالتكلف، فالله تعالى عليم بمعنى أنه يحيط بكل شيء علماً، كما هو، وذلك لا يمكن لغيره ﷻ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١١].»

علم العبد إلى زوال، وعلمه سبحانه باق، فهو الحي الذي لا يموت...

إذا بلغ العبد من العلم مبلغاً، فعلمه إلى زوال لا محالة مهما بلغ، فإما

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى، لليضاوي (ص: ٢٢١).

يفارقه العلم لمرضٍ أو نسيان أو هرم، وإما يفارق هو الدنيا وما فيها بالموت والفناء.

أما علم الرب تبارك وتعالى لم يسبقه عدم ولا يلحقه فناء، لم يزل وما يزال عالمًا بما ظهر وما بطن، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿٦٤﴾ [مريم] فلما أنزل الرب تبارك وتعالى التشريع على نبيه ﷺ كان يعلم أحوال العباد في عصرنا الحالي ويعلم كذلك أحوال العباد في العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة، ولمَّا قدر سبحانه أن يكون نبيه محمد ﷺ خاتم النبيين، وكتابه القرآن العظيم خاتم الكتب والمهيمن عليهم جميعًا، كان يعلم أن هذا الكتاب يُصلح كل زمان ومكان، وهو وحده من يعلم كيف تستقيم حياة عباده وتنضبط أحوالهم، فلا يحق لأي مارق من المارقين الآن ادّعاء أن التشريع لا يناسب تطورات العصر، وهذا أصل متين للرد على أهل البدع وعلى أعداء الدين المنحرفين.

وفي سياق جدال فرعون وعناده سأل موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ [طه].

«يقول تعالى ذكره: قال فرعون لموسى، إذ وصف موسى ربه جلّ جلاله بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرة الإنعام على خلقه والأفضال: فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول، ولم تصدّق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان من دونه، إن كان الأمر على ما تصف من أن الأشياء كلها خلقه، وأنها في نعمه تتقلّب، وفي مننه تتصرف، فأجابه موسى فقال: علم هذه الأمم التي مضت من قبلنا فيما

فعلت من ذلك عند ربي في كتاب؛ يعني في أم الكتاب، لا علم لي بأمرها، وما كان سبب ضلال من ضل منهم فذهب عن دين الله ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ يقول: لا يخطئ ربي في تدبيره وأفعاله، فإن كان عذب تلك القرون في عاجل، وعجل هلاكها، فالصواب ما فعل، وإن كان أخر عقابها إلى القيامة، فالحق ما فعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئ ربي ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ فيترك فعل ما فعله حكمة وصواباً^(١).

وقيل في اسم العليم: «أنه تعالى لا يشغله علم عن علم ولا نهاية لمعلوماته»^(٢).

فسبحانه لا يشغل بعلمه بحالك عن حال غيرك، لا يشغل بعلم أحوال أهل الأرض عن أحوال أهل السماء، لا يشغله أحوال الإنسان عن أحوال الجن والحيوان، فعلمه عظيم لا حد له ولا نهاية، مع ذلك لا تتداخل عنده المعلومات ولا تختلط، ولو تأملت الحجيج يوم عرفة وعددهم وكثرتهم، وكلهم يدعونه ويرجونه ويستغفرونه، لتعجبت من علمه بأحوال وأسرار هذه الألوف بل الملايين من البشر، فما بالك وهو يعلم ظاهر وباطن مليارات البشر وغير البشر من لدن آدم، فإن اهتم الإنسان بعلمين أو ثلاثة علوم في نفس الوقت تشتت انتباهه وقل تركيزه، وعجز عن تمام الاستيعاب، فمخ الإنسان له قدرة وحدود لو ازدادت فيه المعلومات عن قدر معين فقد تلك القدرة واختل، وهذا معلوم، فكم من مرة تختلط عندنا

(١) جامع البيان (١٨/٣١٩-٣٢٠).

(٢) شرح الأسماء الحسنى (ص ٢٢٢).

الأمر وتلتبس بسبب عجز المخ عن استيعاب كم محدد من المعلومات سواء كانت متشابهة أو غير متشابهة.

وقيل: «وهو الذي لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية»^(١).

قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس].

فسبحانه يرى موضع النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فيسمع دبيبها، ويعلم حالها ولغتها، يعلم ما بين المشرقين والمغربين، يعلم السكنات والحركات، سبحانه جل ذكره، وتقديست أسماؤه.

سبحانه العليم، علم الخلق أجمعين:

فالعالم لم يرث علمه كابراً عن كابر بل علمه مستفاد ممن سبقه إليه، ولم يكتسبه بحوله وقوته، لكنه رزق الله له، يهبه لمن يشاء وقتما شاء، ذلك إن قدر لشخص الأخذ بالأسباب وقبولها منه، فهو من وهب الإنسان العقل ابتداءً، وهو الذي ألهم العقل وأرشده وعلمه كيف يفكر، كيف يحصل العلم، وهو الذي قذف في قلبه الهمة للاجتهاد فيه، ثم يسر له فهم تلك السبل واستيعابها والابتكار كل في مجاله، وهو من خلق له المكونات وألهمه فكرة الجمع بينها أو تدويرها واستغلالها ليخترع بها اختراعاته وينجز انجازاته، فالمخترع لم يخترع من العدم بل استخدم الإمكانيات التي خلقها الله تعالى له ابتداءً ليصل لمنتج مفيد، وهذا في أي اختراع مهما كانت أهميته.

(١) المصدر السابق.

فكل من له عقل يعلم قصور علم المخلوقين، وعظم علم الله تبارك وتعالى، يعلم أنه ما تعلم المتعلمون ولا اخترع المخترعون إلا بتعليم الله إياهم، وإنهم لولا علمه سبحانه وكرمه عليهم لغرقوا في الجهل لآذانهم، والملائكة المكرمون أقرؤا بذلك كما ورد في سورة البقرة، إذ الله قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة].

وأحصى كل شيء عدداً....

قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الجن].
وقال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأنعام].

هل تأملت يوماً تلك الصحراء الواسعة؟! تخيلت أن هناك من يعلم عدد ذرات الرمال فيها! بل نقول: هل تصورت أنه يعلم عدد تلك الذرات في كل صحراء موجودة على وجه الأرض، بل يعلم متى تتحرك وكيف تتحرك وكيف تسكن، ويعلم ما تحتها وما فوقها وما يختبئ في ثناياها؟! هل تفكرت في أحوال البحار العميقة بأمواجها المتلاطمة؟! كيف يعيش فيها هذا الكم الهائل من أنواع الكائنات البحرية! فهل تصورت أن هناك من يعلم أعدادهم وحركاتهم وسكناتهم؟! يعلم الاختلاف بين أنواعها وألوانها وصفاتها! هل تصورت أنه يعلم ويقدر أيهم يأكل وأيهم يؤكل؟! أيهم يهاجر

وأيهم يتكاثر وأيهم سيحيا للغد ومن سيموت اليوم! هل تصورت أنه يراهم ويعلم أدق أحوالهم من فوق تلك الظلمات ظلمات الليل وظلمات البحر؟! هل تخيلت أن هناك من يعلم عدد مليارات مليارات الكائنات الدقيقة والحشرات والدواب! إنه يعلم عدد البشر منذ بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة! يعلم عدد الورقات في أشجار العالم أجمع، ويعلم متى تسقط، يعلم متى تنبت البذور ومتى تموت! يعلم أي الأراضي تصلح للزراعة وأيها مقفرة، يعلم هل ستسقط السماء كسفًا أم سيمر السحب دون هطول الأمطار، يعلم كل هذا بلا تحاليل ولا دراسات ولا استنتاجات.

فتأمل وتفكر في عظيم خلق الله؛ لتوقن أن ربك عليم، فلا تظن أنك تواجه أعداءك من نفسٍ وهوى وشياطينٍ إنسي وجنٍ وحدك، بل يعلم حالك ربك الذي خلقك وكتب مقاديرك قبل أن تخلق السماوات والأرض.

وقيل أيضًا: يعلم الآجال والأرزاق والأعمال ومن إلى الجنة مصيره ومن إلى النار.

فهذه عقيدة لا بد أن تكون راسخة في القلب، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ»^(١).

يعلم ربنا الآجال والأرزاق والأعمال -خيرها وشرها-، يعلم المآلات

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

لكل العباد، سواء كانت النيران مصيرهم أم الجنان، يعلم من منهم الشقي ومن السعيد، من الغني ومن الفقير، يعلم من يتلى، ومن يعافى.

واعلم أن اسم الله «العليم» من الأسماء التي ذكرت في القرآن كثيراً، وقد جاء مقترناً بأسماء أخر مثل: اقترانه باسم السميع، واسم الحكيم، الخلاق، القدير، الفتاح، القوي، الشكور، العزيز، الواسع، الخبير وغيرها من أسماء. ولتدبر سوياً بعض الحِكَم التي من أجلها قُرِن اسم العليم بغيره من الأسماء.

اقتران اسم العليم بالسميع:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة).

والأمر بالعلم للتنبيه على أهمية المأمور به، أن الله يسمع جهرنا، ويعلم سرنا، فلنحذر مخالفة أمره في الخلوات فننتهك حرماته، ونغفل عن أنه معنا أينما كنا، وهو مستو على عرشه، فوق سبع سماوات، فلا تغتر بحلمه ورحمته، فهو الغفور الرحيم، وعذابه هو العذاب الأليم، سبحانه ودود لكن عزيز ذو انتقام، عفو غفور لكنه جبار قاهر قهار، فالسعيد من عبد الله بصفاته كلها.

اعمل... ولا تنتظر صكوكاً للغفران:

العبد العاصي الغافل لا يدري متى يغضب عليه ربه، أو متى تأتية العقوبة القاصمة، فلا يغرن أحد حلم الحليم، ولا يأمن مكره إلا الخاسرون، واعلم أن الأخذ بغتة هو ما يسمى بفجأة النعمة فتزل المصيبة فجأة، وكثيراً ما كان يستعيز النبي ﷺ من ذلك.

فألرب تبارك وتعالى يستر، ويغفر، ويمهل، ويحلم، ويعذر مرات

ومرات، لكنه سبحانه إذا أخذ الفاجر العاصي لم يفلته.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»^(١).

فمن كان ذكياً سعيداً سارع في الرجوع إن أمهله ربه وقتاً للرجوع، أما المفتون اللاهي الغافل سيسأل ويتعجب، لماذا عوقبت! عصيت ربي كثيراً وعافاني، لماذا غضب الآن وعاقب، فهذا قد جهل سنن الله ﷻ، وجهل صفاته، وظن أن معافاته له من العقوبة محبة دائمة لا تتغير ولا تتبدل وكأنه فاز بصك الغفران كصك قساوسة النصرى، وهذا خلل وغرور حقيق على صاحبه أن يتداركه ويعالجه، ويوقن أن الله لا يعزب عنه خطأ هذا وذنب هذه ومعصية ذاك، هو يسمعهم ويراهم ويعلم أحوالهم، يعلم فحش قول الفاحش البذيء، وحرمة أموال المرابي، وفساد ذمة المرتشي، يعلم كل شيء، ويعاقب وقتما يشاء، ويعفو إن شاء، فإذا قَدَّرَ عليهم عقوبة قد تكون عن ذنب قد تكرر فعله أو يكون ذنباً في نظره صغيراً وهو عند الله عظيم فتكون تلك هي القشة التي قسمت ظهر البعير، فحيثئذ ليس لها من دونه تبارك وتعالى كاشفة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ إذ استعاذ من كل هذه الأمور، إذ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»^(٢).

اقتران اسم العليم بالحكيم...

من أعلم من الخالق تبارك وتعالى بخلقه؟! فكل مخترع من أهل الدنيا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٣) وغيره.

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٩).

أدرى باختراعه وإمكاناته وما يُزيد أو يقلل من كفاءته، وفي العادة يضم هذا المخترع لاختراعه كتيباً يوضح فيه كيفية تشغيل المُخترع وفوائد حول ما قد يصيبه من أعطال وكيفية علاجها، وقد يظن من يشاهد الاختراع وهو ليس بمتخصص أنه قادر وبسهولة على تغيير كيفية التشغيل أو تعديل استخدام الاختراع، ولكن ما إن يبدأ في التجربة حتى يفاجأ أنه أمام عطل كبير أو خلل عظيم لا قبل له به، كمن يظن أنه يمكنه تشغيل محرك السيارة بزيت الطعام ظناً منه أن زيت الطعام وزيت السيارات نفس اللزوجة والسّمك، وهذا قصور فكر ونظر وعجز في الفهم.

ولله الخالق العظيم المثل الأعلى، هو من خلق الخلق وهو أعلم بما فيه نفعهم وما فيه مضارهم، وهو من أنزل عليهم قرآنًا فيه بيان لكل شيء، فيه الهدى والنور، والسرور في الدنيا والآخرة.

فألرب ﷻ لم يخلق لنا عقولاً للحكم على تشريعه، ولكن لفهم التشريع الذي أنزله بحكمة بالغة، ودقة متناهية، فمن تحكّم على الحجاب الشرعي بعقلها، فتقول: التبرج لا فتنة فيه، وتدّعي أن الحجاب لا يناسب الزمان، وما وصلت إليه البشرية من تطور وانفتاح وتواصل بين العالم بعضه البعض، فهذه قد وقعت في شرك هواها، وعبدت عقلها وصارت الدنيا أكبر همها ومبلغ علمها، فاعتقادها هذا فاسد شرعاً، والعقل والعلم يدلان على بطلانه.

ومن يحلل الربا بحجة أن الاقتصاد سينهار بدونه، وستضيع البلاد ويجوع العباد، فلي نظر بنفسه لإفلاس الدول والمؤسسات، والخراب الذي حل بكثير من دول العالم بسبب أكل أموال الناس بالباطل. فسبحان ملك

الملوك يعلم أحوال عباده وكيف تستقيم حياتهم وتستقر دنياهم، فعزَّ وحكم بشرع لا يضاهيه ولا يقترب منه شرع البشر.

قال ابن القيم رحمه الله: فالشرع المنزل من عند الله مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه، وإلى أن نعلمه بعقولنا، فإذا علم العقل ذلك حصل له كمال لم يكن قبل ذلك، وإذا فقد كان ناقصاً جاهلاً^(١).

وقال في موضع آخر: إن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته وهدى به أنبياءه ورسله وأتباعهم به وامتن عليهم فقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) **[البقرة]** وقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣) **[النساء]**، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) **[آل عمران]**، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) **[الجمعة]**. فهذه النعمة والمنة والتركية إنما هي لمن عرف أن ما جاء به الرسول وأخبر به عن الله وصفاته وأفعاله هو الحق كما أخبر به لا كمن زعم أن ذلك مخالف لصريح العقل وأن العقول مقدمة عليه والله المستعان^(٢).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (٣/ ٧٩٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٧٩-٨٨٠).

اقتران اسم العليم بالرحمة والحلم:

«وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة، كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأول قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ومن الثاني: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٣]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم ومن رحمة إلى علم»^(١).

اقتران اسم العليم بالشكور:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، والشكور: الذي يعطي الأجر الكثير على العمل القليل شرط إخلاص العمل وتنقيته من الشوائب، فهو العليم بالنوايا، لا يخفى عليه إخلاص المخلص، ولا يقبل عملاً دخل عليه الرياء. ولا تحتقر لنفسك عملاً ولو كان قليلاً، فربك العليم يعلمه ويشكره عليه بالخير الكثير مهما كان صغيراً في نظرك ما دام خالصاً من الرياء، سالمًا من البدعة.

فسبحانه عليم بعملك مهما دق وصغر، عليم بنيتك مهما خفيت عليك واختلطت، فإن فهم العبد هذا عن ربه كان هذا الفهم سبباً قوياً يعينه على تحقيق الإخلاص والثبات وشكر الرب تبارك وتعالى، فعلمه أن ربه يسمعه ويراه ويعلم ما في صدره وما يخفيه عن الخلق، سيزجره ويردعه عن فعل المنكرات ويدفعه لفعل الطاعات دفعاً، ويجعله دائم الصبر على البلاء، شاكراً للعطاء، حسن السريرة معتذراً على الخطيئة.

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٠).

□ آثار معرفة العبد لهُذَيْن الاسمين:

الأول: شرف العبد بشرف معلومه عن الله ﷻ:

فكلما ازداد العبد علمًا عن الله ﷻ، كلما ازداد شرفًا ورفعة في الدنيا والآخرة، لا شرف المال والجاه والسلطان مما يتقاتل عليه الناس ليل نهار، وقد يضيعون عليه حياتهم كلها؛ بل ويقتل بعضهم بعضًا للحصول على هذا الشرف أو بعض منه، وهو شرف زائف زائل، فالشرف الحق يكون بشرف المعلوم، وعلم الأسماء والصفات أشرف العلوم، وبه وبسائر علوم الشريعة تُنال الدرجات العلى في الجنة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فضل الله نبيه ﷺ بالعلم وذكره بفضله عليه:

لا يخفى على عاقل نعم الله العظيمة وآلائه الجسيمة التي تتوالى على الخلق أجمعين تترا، إلا أنه سبحانه لَمَّا ذَكَرَ نبيه بنعمائه عليه ذكره بالعلم، فدل على أن العلم أكبر المنن، ومن أعظم النعم، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، والعلم هنا يعني العلم بالشرع والدين وبما يحبه الله ويرضاه، فليس المقصود القراءة والكتابة، بل كان النبي ﷺ أُمِّيًّا، والمسلمون من عصر النبوة إلى الآن يفتخرون بذلك، لأن أميته كانت دليلًا وآية على كونه النبي الحق، وبرهانًا ساطعًا أن القرآن الذي أعجز أهل اللغة والبلاغة هو يقينًا من عند الله لا من عند غيره ممن لا يحسن القراءة والكتابة.

وقد أنهى الله ﷻ هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣)؛ للدلالة على أن أعظم وأفضل النعم من الله، وأشرف ما يحمله العبد، هو العلم عنه تعالى.

بل ومن أدلة كون هذا العلم هو أشرف الفضائل والمناقب أن الله جل ثناؤه أرشد نبينا ﷺ إلى سؤاله المزيد من العلم، ولو علم العليم أن في الدنيا نعمة أفضل من نعمة العلم لأمر رسوله أن يسأله إياها، ولكنه قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤) [طه].

الأثر الثاني: التواضع مع كثرة العلم وسعة الفهم:

ينبغي على المرء أن يعلم أن علمه ما صار إليه، إلا من بعد جهل، فما ولد الحافظ حافظاً، ولا الفقيه فقيهاً، لكنه تدرج وتعلم، ومن الله عليه بالعلم شيئاً فشيئاً، لم يبتاعه من متجر، أو سوق، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، فإن علم ذلك، وتذكر على الدوام قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفْرًا﴾ [النساء: ٩٤]، خفض جناحه وتواضع للمؤمنين ممن هم دونه، وذلل لربه وشكره حق الشكر، وكان على وجل وخوف من أن يذنب ويعصي، فيعاقب ويفقد نعم الله عليه.

وما دفع الإنسان الكبير عن نفسه بأنفع من هذا الدواء، فالكبر داء والتواضع دواء، فبم يتكبر وعلى من! وهو في الحقيقة لا يملك لنفسه، ولا لعلمه حفظاً من دون الله ﷻ، فقد كان يوماً ما أجهل ممن يتكبر عليهم، ومعلوم أنه بفساد خلية في المخ يفقد العبد ذاكرته كلها، وبخلل بسيط في جهازه العصبي، لا يقوى أن يفهم جملة واحدة مستقيمة يفهمها طفل صغير.

فالقُدرة الكاملة لله وحده، وهو وحده مَنْ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومَنْ له صفات العزة والجبروت، وسبحانه ييغض مَنْ يتكبر ويتعاضم على خلقه؛ بل ويقصمه ويعاقبه أشد العقوبات، قال تعالى - في الحديث القدسي -: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعُظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(١).

معاذرة الله ﷻ نبيه موسى عليه السلام:

وذلك عندما أخبر موسى عليه السلام، عن نفسه: أنه أعلم الناس في ما رواه أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»^(٢).

فقد قال ذلك لأنه نبي يوحى إليه، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وقيل: جاء هذا تنبيهًا لموسى عليه السلام وتعليمًا لمن بعده، ولئلا يقتدي به غيره. وحاشاه - عليه السلام - أن يكون قوله هذا خرج مخرج المزكي لنفسه المعجب بها، فهو كليم الله ومن أولي العزم من الرسل.

فحري بكل من رزق علمًا أن يعلم قدر نفسه، وقدر غيره وينزل الناس منازلهم، ويرد العلم لربه الذي وهبه إياه، ويسأله أن يثبته ويزيده من فضله؛ فلا يُنال العلم إلا بالأدب والتواضع، وهو خُلُقٌ مطلوب للمتعلم مهما علا شأنه،

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

فمن في الخلق الآن يعلو شأنه عن كليم الله موسى ﷺ؟! لا أحد، فإن كان الرب تبارك وتعالى قد عاتبه وهو في هذه المكانة لكونه لم يرد العلم إليه، فالأولى أن يرد بقية الخلق العلم كله لله ﷻ، ويتعبدوه بالمذلة والخضوع، ويطلبوا العلم ممن من الله عليهم بالعلم حتى وإن كانوا أقل منهم في المكانة أو المنزلة.

الأثر الثالث: لا تقدم على أي أمر من الأمور إلا بعد سؤال الله ﷻ:

بعدما علمت أن الله هو العليم وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم حالك وما يصلحك وما يفسدك فلا بد لك ألا تقدم على شيء إلا بعد سؤاله، وذلك بما علمك نبيك ﷺ في دعاء الاستخارة، فقد قال جابر بن عبد الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستخارة في الأمور، كما يُعَلِّمُنَا السورة من القرآن»^(١).

من سعادة المسلم أن يستخير ربه إذا هم بأمر وأراده، ولا يقبل على الفعل -حتى وإن كان صغيراً في نظره- إلا بعد استخارة العليم الحكيم؛ لأنه إذا استخاره وفقه لما فيه نفعه -حتى لو كان المستخير عاصياً مقصراً- ومعلوم أن الطائع سيكون أقرب إلى الهداية من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ لكنه -سبحانه- أكرم وأعظم من أن يضل أحداً استخاره حتى وإن كان عاصياً، فمهما ظهرت لك محاسن ومزايا الفعل الذي تقدم عليه استخر؛ لأنه لا يعلم بواطن الأمور إلا ربها وخالقها، فقبل أن تتزوج استخر، وقبل أن تشتري وتبيع استخر، وقبل أن تغير دارك أو عملك أو سيارتك استخر، استخر ولن تندم؛ فالخير كل الخير فيما اختاره الله لك، فسبحانه ﴿يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢).

دعاء الاستخارة:

قال رسول الله ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الْأَمْرَ - ثُمَّ تُسَمِّيه بِعَيْنِهِ - خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»^(١).

فلاحظ كلمات الدعاء! كلها تودد من العبد لربه، واعتراف منه بعلم ربه وقدرته عليه، وضعف نفسه وجهلها بالغيب وبخبايا الأمور.

تنبيه:

ليس من شرط خيرية الأمر المستخار فيه، أن يرى المستخير رؤية، كما هو مشتهر بين الناس، فالاستخارة دعاء وتوسل لله ﷻ أن يوفق عبده للخير، فإن تيسر الأمر فهو الخير، وإن تعسر فتعسره هو الخير، فلا ينتظر العبد رؤى أو علامات، ولكن يجتهد في الدعاء وينكسر بين يدي ربه ويبشّر بالخير أيًا كان مآل الأمر.

«ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»:

مرّن قلبك ألا يتعلق بمخلوق ولا بنعمةٍ أو شيء من متاع الدنيا، لا زوج ولا ابن ولا صديق، لا تتعلق بمتاع زائلٍ، وسل ربك فراغ قلبك مما سواه،

(١) أخرجه البخاري (٧٣٩٠).

فالتعلق المذموم مرض عضال يؤذي القلب ويمرضه، ومما يعينك على عدم التعلق بالأشياء وحسن التوكل على الرب تبارك وتعالى هو هذا الدعاء «ثم رضني به» فإن لم يتيسر أمرك الذي استخرت من أجله، وكان الله ﷻ قد قبل منك دعاءك فسترزق برّد الرضا، وهو نعمة جليّة لا تفوتها، فكم من منعم ساخط قلبه لفقدانه الرضا! وكم من مبتلى طابت نفسه وهنا عيشه لمرضاة ربه!.

فارض بتقدير الله مهما كان هذا التقدير مخالفاً لهواك، ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكثيراً ما لاحظنا ذلك: أن يدعو المرء دعاءً ليحصل شيئاً ما ويلح في الدعاء لحبه إياه، ثم لا يقدره الله تبارك وتعالى له، وبعد سنوات تظهر الحكمة ويعلم أنه لو رُزق ما دعا الله به وألح عليه لكان هلاكه أو ضلاله أو حزنه، ولفقد خيراً كثيراً، فتوكل على ربك، وتيقن من علمه الكامل وحكمته البالغة.



اسم الله

الحفيظ

٢٥

الحَفِيزُ

من الأسماء التي عدّها جماهير العلماء المعتنين بالجمع من أسمائه سبحانه وتعالى.

ورد هذا الاسم في القرآن:

في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

وقوله -جل ذكره-: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [سبأ].

وقوله عن هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود].

□ **معنى الحفيظ لغة:**

(حفظ) حفظت الشيء أحفظه حفظاً، وحافظت على الرجل محافظة وحفاظاً إذا حفظته في مغيبه^(١).

قال الليث رحمه الله: الحفظ: نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة، والحفيظ: الموكل بالشيء يحفظه، يقال: فلان حفيظنا عليكم وحافظنا^(٢).

قال ابن منظور رحمه الله: وحفظت الشيء حفظاً أي: حرصته، وحفظته أيضاً بمعنى استظهرته.

والحفظ: الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة، وهم الحافظون، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار^(٣)].

(١) جمهرة اللغة (١/ ٥٥٢).

(٢) تهذيب اللغة (٤/ ٢٦٥).

(٣) لسان العرب (٧/ ٤٤١).

قال الجوهرى: والحفيظ: المحافظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ (١٠٤)، يُقال: احتفظ بهذا الشيء، أي احفظه، والتحفظ: التيقظ وقلة الغفلة (١).

فمعاني الحفيظ تدور حول:

عدم النسيان، التعاهد، قلة الغفلة، الوكالة بحفظ الشيء والاهتمام به، والحراسة.

□ معنى الحفيظ في حق الله تعالى:

هذا الاسم من الأسماء الحسنى التي لها معان متعددة وكثيرة، منها: أنه «يحفظ على العباد ما عملوه من خير وشر، وعرف ونكر، وطاعة ومعصية، لا يفوته من ذلك مثقال ذرة، وحفظه لهذه الأعمال بمعنى ضبطه لها، وإحصائه إياها، فهو محيط علمًا بجميع أعمالهم؛ ظاهرها وباطنها، وهو قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أن يراها، بل قبل أن يخلق السموات والأرض، وهو وكل بها ملائكة حافظين، كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، قال الله في سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢) [يس]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦) [المجادلة]. وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا

عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر]. فهذا المعنى من حفظه سبحانه يقتضي إحاطة علمه بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، كما يقتضي علمه بمقاديرها في كمالها ونقصها، ومقادير جزائها في الثواب والعقاب، ثم مجازاتهم عليها بفضلته وعدله»^(١).

تبارك ربنا الحفيظ: «يحفظ بعلمه جميع المعلومات، فلا يغيب عنه شيء منها، كما يقال: فلان يحفظ القرآن، أي: هو حاضر في قلبه»^(٢).

وقد علمنا من قصة موسى ﷺ أن فرعون سأله عن القرون الماضية وموقفهم من دعوته للإيمان بالبعث والحساب والنشور، فكان جواب موسى قاطعاً على سؤال فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه]، فعلم الأولين والآخرين وأعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم، وأعمال الصالحين منهم معلوم عند الله، قد أحصاه وعده وأودعه في كتاب، وسيجازيهم عليها يوم الحساب، ولم يحفظ أعمالهم في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى.

وقد وكل ربنا ﷻ ملائكته لحفظ أعمال العباد وأقوالهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿١١﴾ يِعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفطار]، فلديك رقيب عتيد على اليمين، ورقيب عتيد على الشمال، لعد حسناتك وسيئاتك.

(١) شرح القصيدة التوتية، للهراس، وجمع من العلماء (٣/ ١٥٢).

(٢) ما بين القوسين من الأسنى شرح كتاب أسماء الله الحسنى (١/ ٣٠٩).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وإن عليكم لملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم^(١).

وهذا ليس من باب الاستعانة وحاشا لله أن يستعين بأحد من خلقه، فهو الصمد الذي تلجأ إليه كل المخلوقات، لكن لحكمة وكل للملائكة أعمالًا لا لاحتياجه لهم، فلا يترسل المرء في أقواله وأفعاله وعصيانه وينسى هؤلاء الحفظة الكرام البررة الذين يكتبون عليه كل شيء.

ولذلك قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَاطِرُ﴾ [الطارق]،
بيدي الله ﷻ يوم القيامة كل سر فيكون زينًا في وجوه وشينًا في وجوه^(٢).

يظهر الله ﷻ في هذا اليوم كل الخبايا المستترة بداخل خلقه، والتي لا يراها أحد، فتكون مبيضة لوجوه، ومسودة لأخرى.

ولقد أقسم الله ﷻ في صدر سورة الطارق فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق] ثم كان المقسم عليه أن قال: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق]، أي حفظة تُحصى أعمال العباد، فأقسم -وهو غني عن ذلك- تنبيهًا للعباد حتى يفيقوا من غفلتهم ويعلموا أنهم مراقبون بملائكة كرام لا يعصون الله ما أمرهم، يحصون أعمالهم خيرًا كانت أم شرًا.

لا تؤذوا الكرام بأفعالكم..

فالملائكة تتأذى، مما يتأذى منه البشر، قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»^(٣)، فليحرص الإنسان على ألا يؤذيهم،

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٣٤٤).

(٢) تفسير البغوي (٥ / ٢٣٩).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٤).

لا برائحة فمه، ولا براحة ذنوبه، فنحن نتأذى من صفات ذميمة، وقد نكون متلبسين بتلك الصفات؛ لكننا نكرهها، ونتأذى منها، ومن رؤية مَنْ اتصف بها، فكيف بالملائكة الكرام المُبرَّءون من العيوب.

وقيل: إنه يحفظ بقدرته جميع الموجودات والمخلوقات والجمادات مدة بقائها التي قدَّرها لها.

أوجد الله الجمادات -كالسما-، وهذه السماء التي نراها لا قوة لها في رفع، ولا حفظ نفسها هنيئة أو أقل.

قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وفي إمساكه السماء امتنان على الخلق بالسلامة مما يفسد عليهم حياتهم وهي نعمة كبيرة قلَّ من انتبه لها، وفيه أيضًا تخويف للخلق لأنه قد يرسل عليهم من السماء حاصبًا أو كسفًا تهلكهم.

وحفظ السماء مع ضخامتها وارتفاعها ليس فيه مشقة على الله، قال جلَّ ذكره: ﴿وَلَا يَوْدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، «فلا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه»^(١).

ومن حفظه سبحانه للسماء حفظها من الشياطين:

حفظ الله السماء من الشياطين حتى لا تقترب منها وتسمع الوحي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [١٦] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [١٧] إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ [١٨]

(١) ما بين القوسين من تفسير ابن كثير (٢٨٩/١).

[الحجر]، «أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي، وغيره، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾، فإنما لم نحفظها منه، أن تسمع الخبر من أخبار السماء، سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً، لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ [الشعراء]. وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم، ذكره الحسن وابن عباس^(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقد يُطلع الله بعض الرسل على بعض الغيبات؛ قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن].

الله تعالى حفظ السماء من استراق الشياطين السمع، فكيف يعرف

الكاهن بعض الغيبات؟

الشیطان، قد يتلصص على بعض الأخبار في السماء، فيسرق الكلمة التي يسمعها ثم يضع على هذه الكلمة مائة كذبة ويضعها على لسان الكاهن كما جاء في حديث عائشة قالت: سَأَلَ أَنَسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطِفُهَا الْجِنُّ، فَيَقْرَأُ فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلُطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ»^(٢). فيصدق الناس ويظنون أنه يعلم الغيب خاصة إن أخبرهم ببعض

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨).

الحقائق اليسيرة التي استرقها من خبر السماء، ولكن يغلفها بالأكاذيب، وقد يصلون بهذا الظن إلى الكفر لظنهم في ذاك الكاهن أنه يعلم الغيب مع الله ويملك لهم الضر والنفع، فيرغبون في حاجتهم منه ويرهبونه من دون الله ويسألونه رفع الكرب وكشف الضر، ولا أحد يملك ذلك إلا الله سبحانه القائل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنعام].

حفظه سبحانه للأرض:

وهذه نعمة كبيرة، ومنة عظيمة، أنه حفظها فجعلها ثابتة لا تضطرب فثبتها بالجبال الرواسي، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، والرواسي: أي الجبال الراسيات، وتميد أي: تميل. **قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:** وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان قادرًا على سكونها دون الجبال^(١).

وقال تعالى ممتنًا على عباده: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

فالأرض بدون الجبال الراسيات تتمايل ولا تثبت، ووجودها نعمة ومنة من الله تبارك وتعالى علينا، فالحمد لله رب العالمين.

«ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادًا ومستقرًا للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١٠).

عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هُدُوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها^(١).

ومن حفظه للأرض حفظها أن تغوص في الماء:

وهذه من المعجزات العجيبة التي لم يلتفت إليها كثير من الناس، فثلثي الكرة الأرضية ماء، والماء بطبيعته يميل إلى الطغيان، وتربة الأرض تشرب هذا الماء وتغوص فيه، ولكن الحفيظ يحفظ الأرض من تشرب الماء، ويحفظ كذلك الماء من الطغيان فتغرقها بمن عليها، فالحفيظ جل وعز، حفظ علينا الأرض بشيئين: بتثبيتها بالجبال الرواسي؛ لئلا تضطرب، والثاني: حفظها من أن تغوص في الماء.

ومن صور حفظه تعالى للعباد حفظه دينهم:

فلولا أن الحفيظ قد حفظ الدين لضاع العباد ولعادوا إلى طغيانهم يتخبطون، وفي ظلمات الكفر والبغي والضلال والجهل يعمهون، كما كانوا قبل مبعث النبي محمد ﷺ.

ومن حفظه الدين حفظه للقرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]، وقد

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٢).

حفظ الله القرآن في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

فما استطاعت قوى الشر من البشر بما عندهم من البغض لكتاب الله وللإسلام والمسلمين أن يحرفوا شيئاً من القرآن كما حُرِفَت التوراة وحُرِفَ الإنجيل لَمَّا عهد سبحانه للبشر حفظهما؛ إذ قال: ﴿يَمَّا أَسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

أما القرآن، فلم ولن يستطيع أحد تحريفه أبداً؛ لأن الله نفسه من تعهّد بحفظه وقد قيّد سبحانه في كل زمان ومكان ملايين من حفظة القرآن في الصدور وفي السطور، فكلامه محفوظ بحفظه تعالى، محفوظ من التبديل والتحريف والتغيير، محفوظ من الزيادة والنقصان. فشرّف عظيم لكل من يجتهد في حفظه وفهمه وتدبره والعمل بما فيه، ليكون من أسباب حفظ الله لكتابه العزيز في الأرض.

ومن حفظه جل جلاله للدين حفظه للسنة؛

فالذكر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾

متضمن للسنة؛ فالقرآن جاء مجملاً، وجاءت السنة في كثير من المواضع لتبيّن ما أُجْمِلَ من القرآن، فإذا لم تُحفظ السنة لضاع كثير من أحكام الدين وضاع كذلك ما فُصِّلَ من القرآن وضاع القرآن بالتبعية - عياداً بالله -.

ومن صور حفظه ﷺ: حفظه الإنسان وهو في بطن أمه، وبعد ولادته

والى انقضاء أجله؛

ولن أتكلّم عن حفظه له في بطن أمه من الهلاك، ولكن سأتكلم عن

حفظه له بعد أن ولد ضعيفاً لا يملك لنفسه شيئاً، فلا يستطيع أن يُنجي نفسه من الهلاك أو الموت أو الجوع؛ فعلمه سبحانه بالفطرة أن يلتقم ثدي أمه، فيمص اللبن الذي فيه الغذاء الكامل وقد جعله سبحانه متوسطاً لا بارداً ولا ساخناً لحمايته من أي أذى.

ومن حفظه سبحانه للرضيع أن يحميه من كيد الشيطان الذي هو عدو مبين له - حتى وإن كان لا يزال في مهده - فالطفل لا يستطيع حماية نفسه كالكبير؛ فلا يستطيع الاستعاذة بالله منه ولا قراءة المعوذات وغير ذلك، فالحفيظ هو من حفظه من هذا العدو اللدود الذي يريد إضلال الكبير بل الفتك به، فكيف إذا تمكّن من الصغير!

قال الله -تبارك اسمه-: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾

[الأنبياء: ٤٢].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿مَنْ يَكْلُوْكُمْ﴾ أي: من هو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل في حال نومكم، والنهار في حال تصرفكم في أموركم^(١).

من يحفظنا من حوادث الطرق؟! ومن يحفظ السيارات التي تسير بالسرعة التي نعلم، وبالنظم العجيب الذي نرى؟! من يحفظ الطائرات من الوقوع؟! كل هذا من حفظ الله ﷻ لتلك الأشياء إلا أن يقدر الله ﷻ شيئاً لأحدٍ بعينه ويكون بحكمة كاملة.

وقيل: في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، قدّم الليل لأنه زمن المخاوف؛ لأن الظلام يعين أسباب الضرر على الوصول إلى

(١) أضواء البيان (٤/ ١٥٣).

مبتغاهما من إنسان وحيوان وعلل الأجسام^(١).

وهذا معلوم ومشاهد فكثير من الحوادث والشرور تحدث ليلاً ويستغل أصحاب الكبائر ومحبي نشر الفواحش نشرها ليلاً، وكذلك تنتشر الشياطين بكثرة ليلاً، وكذلك الهوام والدواب والكائنات التي ربما تفتك بالإنسان من حيث يدري أو لا يدري.

لذلك يحرص العقلاء على عدم التعرض لتلك الشرور والمخاطر في هذا الوقت، لكنهم برغم حرصهم هذا ضعاف لا حول لهم ولا قوة، فقراء لمن يحفظهم حفظاً حقيقياً، وسبحانه هو الحفيظ الحق، يحفظهم من الشرور ليلاً أو نهاراً في حال اليقظة والنوم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم، وحفظهم، وحراستهم، مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه سبحانه وتعالى، فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه^(٢).

وقال أيضاً: وكم من مريد لإهلاك جسمه من الهوام وغيرها، وقد حفظه منه فهي في أحجارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لأهلكته، فمن ذا الذي كلاًه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره، فلو جاءه البلاء من أي مكان جاء لم يشعر به، ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة وعدّها عليهم من جملة نعمه فقال: ﴿مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ

(١) التحرير والتنوير (١٧ / ٧٤).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٣١٦).

ذِكْرَ رَبِّهِمْ مُعْرَضُونَ ﴿٤٢﴾ [الأنبياء: (١)].

ومن صور حفظه أن وكل للعباد ملائكة تحفظهم:

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، فتحفظ الملائكة العبد من أمامه ومن خلفه، تحميه من أن يسقط مرة، ومن أن يسقط شيء عليه من فوق رأسه مرة، تحميه من انزلاق قدمه ومن أن يصرع مصرع سوء من حادث سيارة ونحوه، تحميه من المهالك والمخاطر، ومن كل الشرور بأمر ربها، فإن أراد ربها غير ذلك تنحت الملائكة حتى ينفذ فيه أقدار الله (٢).

من صور حفظه تبارك وتعالى حفظه لأوليائه:

فحفظه لبني آدم وللموجودات والكائنات من الحفظ العام، وأما حفظه لأوليائه من الحفظ الخاص، ونحن في أشد الحاجة إلى هذا النوع من الحفظ، ومنه:

أولاً: حفظهم من الضلال والإضلال:

وكان رسول الله ﷺ عند خروجه من بيته يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ، أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» (٣).

(١) طريق الهجرتين (ص: ٢١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٠٣/٨)، والجامع لأحكام القرآن (٣٠٠/٩)، وجامع البيان (١٥٤/١٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وأحمد في المسند (٢٦٦١٦)، وصحح إسناده النووي في الأذكار (٣٢)، =

فليحذر المرء أن يضل الطريق أو يكون سبباً في إضلال غيره، وتذكر دومًا قول رسول الله ﷺ: «وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

فإن رأى المؤمن اللبيب الفطن من أتوا علماً وفهماً وذكاءً ومهارة، لكن زلت أقدامهم في شبهة لمسألة ربما كانت بالنسبة له من أوضح المسائل، أو زلت أقدامهم في شهوة هو بمنأى عنها، فليعلم أن الحفيظ هو من حفظه من الضلال والخوض فيما خاضوا فيه من شهوات أو شبهات، فليحمد ربه ويقر له بالفضل الكامل أن حفظ عليه توحيده، وحماه من السقوط في شبهات المضلين، وحفظ له جوارحه وقلبه، ويقر لنفسه بالتقصير والعجز، وليسأله السلامة ويدعو لغيره بالمعافاة.

وقد قيل: «أما إبليس، فانظر كم عبد الله، وكم أطاعه، ثم ضلَّ بأدنى شبهة!! وانظر إلى أكابر الطبيعيين، وحذاق المهندسين والمنجمين كيف زاغوا بأخس شبهة!! حتى تعرف أنك إنما بقيت على الحق بحفظ الحق سبحانه وعنايته»^(٢).

فربما كان العلم سبباً في الصلاح والرفعة والقرب من الرب، وربما كان سبباً في الهلاك والدنو والبعد بسوء السريرة، وفساد القصد، والكبر

= والمجموع (٣٨٨/٤)، وصحح إسناده ابن القيم في زاد المعاد (٣٣٥/٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩٤)، وفي الكلم الطيب (٦٠)، وفي فقه السيرة (٤٤٧)، قال: صحيح على شرط الشيخين.

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ما بين القوسين من شرح الأسماء الحسنى (ص ٢٥٧).

والعجب، وغير ذلك.

فلنلزم الحيلة والحذر، وعلينا الدعاء بالحفظ من الشبهة والشهوة، والدعاء بالثبات على الحق وأن يديم الله علينا حفظه، ولا يكون ذلك قبل أن نقر تمام الإقرار أننا نجهل الكثير، وإن أوتينا من العلم ما أوتينا، فنحن ضعاف وإن أوتينا قوة أهل الأرض أجمعين، فمهما بلغت قوة الإنسان فإن أضعف وأدق الكائنات من الفيروسات وغيرها قد تصرعه إن أراد الله ذلك، فكن من أوليائه ليحفظك، فلا قبل لنا بعذابه ولا عتابه ولا نظرة غضب منه.

انظر إلى خوف نبي الله إبراهيم عليه السلام:

فمع منزلته الجليلة وكونه خليل الرحمن ومن أولى العزم من الرسل، ولكنه كان يخاف من سوء الخاتمة، فكان يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿إبراهيم﴾، إبراهيم إمام الموحدين يخاف من عبادة الأصنام، ويدعو ربه بالحفظ والسلامة!!

وهذا يوسف الصديق عليه السلام:

الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام- (١).

يتبرأ من حوله وطوله، معترفاً بضعفه البشري، وأنه لا قبل له بدفع كيد من كاد له من النسوة، قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٢) ﴿يوسف﴾.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ.

وانظر كذلك إلى نبي الله موسى عليه السلام:

كان يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ (٢٨)﴾ [طه]، وهو من أولي العزم من الرسل، ولكنه يخاف ويدعو الله؛ لأنه يعلم أن التوفيق والخذلان بيده تعالى، وهو وحده القادر على حفظه من أعدائه.

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

عن شهر بن حوشب، قال: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ». فَتَلَا مُعَاذُ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] ^(١).

وغيرها من الأدعية التي كان يدعو بها، والتي تدل على خوفه من الله، وخوفه على دينه، وافتقاره إلى ربه الحفيظ أن يحفظ عليه نعمة الدين والإيمان من الزوال.

«فإن قيل: قد ذكرت أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره، ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه، وكذلك العالم أيضاً، يغفر له ما لا يغفر للجاهل،

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد (٢٦٦٧٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٧٣٧) بنحوه، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/١٠) قال: رجاله رجال الصحيح، وحسنه الحافظ في مقدمة تخريج مشكاة المصابيح (٩٩/١)، وصححه الألباني في الإيمان لابن أبي شيبة (٥٥) قال: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

كما روى الطبراني بإسناد جيد - مرفوعاً إلى النبي ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - إِذَا جَمَعَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، قَالَ لِلْعُلَمَاءِ: إِنِّي كُنْتُ أُعْبَدُ بِفَتْوَاكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْلُطُونَ كَمَا يَخْلُطُ النَّاسُ، وَإِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعَذِّبَكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، هذا معنى الحديث، وقد روي مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء]، أي لولا تثبيتنا لك، لقد كدت تتركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ [الحاقة] أي: لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاده الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقول عليه سبحانه، وكم من راكن إلى أعدائه، ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله، ولم يعبأ به، كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم في قصة يونس، هو من هذا الباب، فإنه لم يسامح بغضبه،

وسجن لأجلها في بطن الحوت، ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضًا حق، ولا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره في إعطائه منها ما حرمه غيره، فحبي بالإنعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص بأن يراعي مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذة لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضًا، فيجتمع في حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم، ويأخذهم، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولا تناقض بين الأمرين.

وأنت إذا كان لك عبدان، أو ولدان، أو زوجتان، أحدهما أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك، وأعز عليك عاملته بهذين الأمرين، واجتمع في حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له، وعزته عليك، فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه، وإتمام نعمتك عليه اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه، من التنبيه وعدم الإهمال، وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك، وطاعته

وخدمته، وكمال عبوديته ونصحه وهبت له وسامحته، وعفوت عنه، بما لا تفعله مع غيره، فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد، وكذلك ضاعف الحد على الحر الذي قد ملكه نفسه، وأتم عليه نعمته، ولم يجعله مملوكاً لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق، الذي لم يحصل له هذه النعمة نصف ذلك.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين..»^(١).

ثانياً: حفظ إيمانهم من النقصان:

فعقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والأدلة على ذلك كثيرة، فإذا كان العبد من أوليائه مستقيماً على الطاعة حفظ الله عليه طاعته وحفظ إيمانه.

فمعلوم أن النفس بداخلها وازع للتقوى والخير والإيمان، ووازع للشر والفجور والعصيان، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾^(٧) فإلهامها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(٨) [الشمس]، فمن حفظه لوليه المؤمن أن يحبيه في فعل الخيرات والطاعات والقربات، ويكرهه في الفجور والعصيان، ويحفظه من الشرور والآثام.

قال بعض السلف: الحفيظ هو الذي صانك في حال المحنة عن

(١) ما بين القوسين من مدارج السالكين (١/ ٣٤١-٣٤٢).

الشكوى، وفي حال النعمة عن البلوى^(١).

فمن حفظ الله لوليه المؤمن حفظه للسانه عن التشكي، ولقلبه عن التسخط حال الابتلاء لئلا ينقص إيمانه، وينقص كذلك أجره على صبره. ومن حفظه لوليه يحفظه في حال النعمة عن الاغترار، ونسيان الشكر، والانشغال بالدنيا عن الآخرة، ويسر له استخدام النعم في الطاعات لا في المعاصي.

ثالثاً: حفظهم من الشياطين:

الجن عالم من العوالم يعيش معنا، منهم المؤمن، ومنهم الكافر، فشياطين الجن كفرة أعداء بني آدم، وعداوتهم معلومة، وقد حذرنا منهم الله تعالى ورسوله ﷺ، وكيف نحتمي أنفسنا من شرهم، ومن ذلك:

قراءة آية الكرسي إذا أوى المرء المسلم إلى فراشه، فلا يزال عليه من الله حافظ فلا يقربه الشيطان، ولا يفزعه وهو نائم، ولا يرى ما يخيفه في أحلامه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُه، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُه، فَقُلْتُ:

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى (ص ٢٥٥).

لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْشُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنْكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَخْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطَبُ مِنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ»^(١).

ومن أسباب الحفظ:

أن يستلقي العبد على جنبه الأيمن إذا أوى إلى فراشه لينام، ثم يضع يده تحت خده الأيمن ويقول كما علّمنا النبي ﷺ: «بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنْبِي

(١) رواه البخاري معلقاً (٢٣١١) وغيره.

وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظُهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(١).

أي إذا قبضت روحي فارحمني، وإذا أبقيتها على قيد الحياة فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.

ومنها قول رسول الله ﷺ للبراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ»، فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. قَالَ: «لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(٢).

فقد أسلمت نفسي لك يا رب لأني لا قدرة لي على حفظها بدونك، وفي الحديث استسلام كامل لله ﷻ.

منها وكذلك: النفث في اليد وقراءة الإخلاص والمعوذتين فيهما، ومسح الجسد عند النوم ثلاث مرات لحديث عائشة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١)، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٢) وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٣)، ثُمَّ يَمَسُّحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

□ آثار معرفة العبد لاسم الله الحفيظ:

قد علمنا أن الحفيظ، يحفظ جميع المخلوقات، إلا أن حفظه لأوليائه نوع خاص بهم، لا ينعم به غيرهم، ومن ثم علينا أن نجتهد لنيل هذا الغرض، والحصول على هذا الشرف، وذلك بحفظ دين الله.

حفظ الدين على وجه العموم بالتخلية والتحلية:

بأن ننأى بأنفسنا عن شهوة تنقص الدين، أو شبهة تفسده، فنفر من المعاصي فرارنا من الأسد، وهذا من باب التخلية.

أما التحلية، فبفعل القربات والطاعات والمستحبات كل بحسب طاقته، فمنا المريض والمسافر، وغير ذلك، وهذه الأعذار قد تحول بين المرء وبين أداء الطاعة على الوجه الأكمل.

قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»^(١).

وعلينا أن نتذكر وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحِذُهُ تَجَاهَكَ»^(٢).
وتحفظ الله بحفظ دينه، فإن حفظت دينه حفظك وحفظ بيتك وأولادك، حفظك من شر الأشرار، وأجارك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٣٣٧) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والبيهقي في الاعتقاد (١٤٧)، وحسن إسناده ابن رجب في نور الاقتباس (٣/ ٩١)، وحسنه ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر (٣٢٧/ ١)، وتخريج مشكاة المصابيح (٥٥/ ٥).

قال بعض السلف: ما من عبد حفظ جوارحه إلا حفظ الله عليه قلبه، وما من عبد حفظ الله عليه قلبه إلا جعله حجة على عباده^(١).

خطوات عملية لحفظ دين الله ﷻ..

أولاً: حفظ الهداية:

من رد هداية ربه فكأنما استحب العمى على الهدى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٧] **[فصلت]**، أي هداهم هداية الإرشاد والبيان بأن عرفهم طريق الحق، ولكنهم أعرضوا عنه واستحبوا الضلال والمعاصي على الهداية التي أتتهم من قبل الله، بارزوا الله القهار بالذنوب والعصيان، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، بأن سلط عليهم عذاباً أهلكهم بذنوبهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة]، «وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكتتهم، الصيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم»^(٢).

ومن نظر إلى أحوال كثير من المسلمين في هذا الزمان، وجد حالهم كحال هؤلاء وغيرهم ممن فرطوا في حفظ دينهم، واستحبوا الشهوة العاجلة، والضلال والعمى على نور الهدى وسبل السلام. فبما كسبت أيديهم سلط عليهم أنواع العذاب، وألوان الشقاء، من غلاء

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى (ص: ٢٥٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٦)، وتفسير السعدي (ص: ١٨٢).

أسعار، وأمراض واكتئاب، وانهيار الاقتصاد، حتى أضحي العالم على حافة الهاوية، فإن لم يتداركنا الله برحمته فسنصل إلى حال لا يُحمد عقباه.

فإن أردنا الفتح والبركات، والنجاة من الهلاك، والحفظ والسعادة في الدارين فلنلزم الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٦].

ثانيًا: حفظ التوحيد:

كان أكثر ما يخاف منه السلف هو سوء الخاتمة، فمن منا يضمن أن يختم له بالإسلام؟! من منا يضمن أن يموت على طاعة وألا يُستبدل في آخر حياته؟! فالليب من حرص على حفظ توحيدهِ لآخر لحظة في عمره.

واعلم أنه قد يذهب الإيمان عند التعرض للفتن، قال رسول الله ﷺ: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَاضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِّثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخَّيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ» (١).

ففتنة المال أو الجاه أو الأولاد أو غير ذلك مما قد يُفتتن به المرء تعرض على القلب، فمن تركها تدخل على قلبه ولم يتصدَّ لها أشربها وصارت نكتة سوداء مطبوعة فيه، أما السعيد الذي أنكرها وأبعدها عن قلبه وصدها فقد

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

حمى قلبه منها، بل وامتلاً قلبه نوراً وبياضاً حتى يصبح كالحجارة الملساء لا يتعلق به معصية ولا تستقر فيه.

فأعظم طريق، وأسهل سبيل؛ للحفاظ على التوحيد ترك المعاصي، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم التعرض للشبهات من الكافرين، والفرار منها، فالنفوس ضعيفة والعلم قليل عند كثير من المسلمين، والإيمان لم يرسخ بعد في القلب، فأنى له أن يدفع شبهة تلقى عليه؟!.

ومن أخطر الأمور أن يكون المرء غارقاً في الشهوات والمعاصي والجهل ثم يعرض نفسه للشبهات ولو بنية الرد عليها، فبأي شيء يرد عليها؟ لا قوة إيمان ولا تقوى ولا علم، فيوشك أن يقع هو نفسه في مستنقع الإلحاد والشرك والتنصر.

ومن أسباب حفظ التوحيد، ألا تجالس أهل البدع والنفق؛

فمجالستهم فساد للقلب، فقد تجلس أمام مبتدع أو منافق يكون عليم اللسان حسن المنطق له القدرة على الإقناع قد أوتيَ جدلاً، فيجادل بالقرآن والسنة.

كمن يسارعون الآن بالطعن في الصحابة رضي الله عنهم، وفي أئمة الحديث كالبخاري وغيرهم، ويقولون هم رجال ونحن رجال، وعلينا أن نجدد خطاب الدين لا نلتزم بقول هؤلاء، هم لا يقصدون شخوصهم لكن يقصدون الطعن في الدين، فيطعنون فيمن نقلوا لنا الشريعة - كتاباً وسنة - فإن استطاعوا التشكيك في السنة انتقلوا إلى التشكيك في القرآن، وهذا هو الهدف الذي من أجله يعملون.

فالمنافق الذي يستتر بالإسلام أخطر على المسلم من أهل الكفر، فالكافر تعلم كفره، أما المبتدع فهو من جلدتنا، ويتكلم بألسنتنا، ويستتر بكلامه

بالآية والحديث، فيمونه على عوام المسلمين.

قال الإمام البرهاري رَحِمَهُ اللهُ: إذا رأيت الرجل جالسًا مع رجل من أهل الأهواء، فحذّره وعرفّه، فإن جلس معه بعدما علم فاتقه، فإنه صاحب هوى ^(١).

ثالثًا: حفظ الإحسان:

فكم يعمل العبد من أعمال ثم يفسدها عليه الشيطان بعمل مشين إثمه كبير، ألا وهو المنّ، ولكي تحفظ إحسانك، عليك بترك المنّ، والمن نوعان:

الأول: المن على من أحسنت إليه:

والمن معناه: التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه ^(٢).

والمنان: اسم من أسماء الله تعالى، فالمن على الحقيقة لا يكون إلا له؛ فهو المتفضل بالعتاء والإحسان، فله الفضل والمنة على سائر عباده.

فمن تصدق على فقير شديد الفقر ثم يذكره حينًا بعد حين بتصدقه وأنه أنقذه من الدين والجوع، وربما لا يمن عليه مباشرة لكن يمن بفعله له أمام الناس فيفضحه ويؤذيه، هذا قد ضيع على نفسه إحسانه له...، وكمن تتزوج ممن هو أقل منها حسبًا أو نسبًا أو مالًا ثم تذكره بذلك حال الغضب وتنسى إحسانه إليها، فلنحذر من المن لأنه يبطل الأعمال؛ فقد قال تعالى: ﴿لَا بُطْلُوءٌ صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد أثنى الله على من ينفق بغير منّ، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٢) [البقرة].

(١) شرح السنة (ص: ١١٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٠٨).

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ: والمن: النقص من الحق والبخس له، ومنه المن المذموم، وهو ذكر المنة للمنعم عليه على سبيل الفخر عليه بذلك، والاعتداد عليه بإحسانه، وأصل المن القطع، لأن المنعم يقطع قطعة من ماله لمن ينعم عليه^(١).

وثمة فرق بين المنّ والعتاب:

فقد تحسن إلى شخص ثم يُقابل إحسانك بالإساءة فتعاتبه على رد الإحسان بالإساءة فهذا ليس منّا ولكنه من باب العتاب الرقيق - ولو تركت هذا لكان أفضل - ولكن المن ألا تزال تُذكره بإحسانك عليه حتى تؤذيه نفسيًا، فعليك أن تحفظ إحسانك بحفظ لسانك عن المن لمن أحسنت إليه.

وللمن أسباب لا بد من معرفتها حتى تستطيع علاجها:

أولاً: البخل: فالبخل غالبًا ما يقع في المن لأنه يعظم في نفسه العطية وإن كانت حقيرة فلا يزال يُعدد النعم والعطايا على الناس؛ لأن نفسه شحيحة، كارهة للعطاء فيظل يمن ويقرّع من أحسن إليه حتى يأخذ ثمن إحسانه بإذلال من أحسن إليه.

ثانيًا: العجب: فالمعجب يحمله العجب على النظر لنفسه بعين العظمة وأنه المنعم على الغير سواء بماله أو بعلمه أو غير ذلك من أنواع الإحسان للغير، فلا يزال يئنّ بعطائه حتى يُحبط عمله ويبطله.

ثالثًا: الجهل: فلو علم ابن آدم أن ما به من نعم من الله وحده، وما أحسن به هو على غيره فهو من عطاء ربه له، ما منّ على الخلق، فكيف يمن بمنة

(١) البحر المحيط (٢/ ٦٥٠).

المنان عليه؟!

وعلينا أن نعلم أن المن صفة اللئام، فالكريم لا يمن بعطائه.

الثاني: المن بالطاعة؛

وهو أشد أنواع المن، قال تعالى: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) [الحجرات].

كيف يمن عبد مخلوق على خالقه! كيف يجرو المتفضل عليه بالمن على صاحب الفضل والجود والكرم؟! لا يفعل ذلك إلا كنود جهول كافر للإحسان. ومن أمثلة المن على الرب العلي بالطاعات؛ كمن يتباهى دوماً أنه ترك الربا لله، وترك الرشوة لله، وهذه تركت زيتتها لله، وتركت عملها المختلط لله، وهكذا...

لكنهم نسوا أن الله ﷻ هو مَنْ مَنْ عليهم بترك المحرمات وفعل القربات.

فمن فضله - سبحانه - على عباده الصالحين؛

حبب إليهم الطاعات، وكره إليهم العصيان، وأعاذهم من شرور أنفسهم، وشر الشيطان وشره؛ فحفظ عليهم قلوبهم وثبتهم على طريق الحق. مَنْ عليهم أن حماهم من صحبة السوء الذين لا يألون جهداً لیسلكوا طريقهم، ويسيروا على دربهم.

فَمَنْ علينا منة بعد منة وفضلاً بعد فضل وكل هذا عطاء من الحفيظ بأن حفظ علينا ما نحن فيه من نعم ولم يسلبها منا، فَلِمَ المن؟! فقد قال الله لنبیه

وَاللَّهِ: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ [٦] [المدثر]. فكن على وجل، واسأل الله القبول وتذكر قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧] [المائدة].

وتذكر قول الله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [١٦٤] [آل عمران]، فكنّا في جهل وضلال نسير في طريق المعاصي فمَنَّ الله علينا بالهدى، وكنا في رقدة الغافلين فأيقظك الله منها، وأخرجنا من الظلمات إلى النور بفضله وإحسانه، فلا تمن على الله بالطاعة ولا تتعالى بها على الناس.

وقد لا يتكلم المعجب بطاعته وما مَنَّ على ربه جهارًا بلسانه، ولكنه بداخله يشعر أنه أعلى ممن هم حوله، وأنه يملك ما لا يملكون - سواء من مال أو سلطان أو علم أو فهم وذكاء أو غير ذلك - وهذا كله بجهله بربه وبأسمائه وصفاته. فلو علم المرء حقيقة نفسه الجهولة الظلومة الجحودة، لانكسر أمام ربه المنان، ولكف عن المن.

المنُّ من كبائر الذنوب:

عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ»^(١).

فلننظر إلى العقوبات المذكورة في الحديث!! المنان لا يكلمه الله ولا

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

ينظر إليه يوم القيامة وله عذاب أليم، فإن لم يكلمنا ربنا بكلام رضا ومغفرة وعفو فمن نرجو أن يعفو ويغفر! ومن لم ينظر له ربه نظرة رضا يوم القيامة فمن سينظر إليه ويرحمه! ومن توعد له الملك بالعذاب الشديد فمن ينقذه! فكفى بها عقوبات زاجرة عن المن، فأياك والامن سواء على ربك بالطاعة أو على العباد بالإحسان إليهم.

فعلينا جميعاً التوبة من هذه الآفة العظيمة وأن نتعبد لله وَعَلَيْكُمْ باسمه الحفيظ ونحفظ الإحسان لئلا نقع في عنت لا قبل لنا به.

وختاماً: احفظ الله يحفظك ويرعاك ويوفقك ويسددك، ف سبحانه هو الحفيظ، وما أشد احتياج المسلمين اليوم لفهم هذا الاسم العظيم وأن يعلموا كيف يستجلبوا حفظ الله لهم، فنسأل الله الحفيظ أن يحفظنا.



اسم الله

الحليم

٢٦

الحليم

الحليم، اسم من أسماء الله الحسنى التي اتفق عليه جميع العلماء، أنه اسم لله تبارك وتعالى^(١).

وقد ورد هذا الاسم في النص بصورة الإطلاق في أكثر من آية في الكتاب العزيز منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥) [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢) [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٧) [التغابن].

ذكر اسم الله «الحليم» في السنة:

كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٢).

□ معنى الحليم لغة:

الحِلْمُ بالكسر الأناة، تقول منه: حَلَمَ الرجل بالضم، وَتَحَلَّمَ: تَكَلَّفَ الحِلْمَ... وَتَحَالَمَ: أَرَى مِنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ وَلَيْسَ بِهِ^(٣).

بعض أهل العلم فرّق بين الحلم والأناة، فالأناة هي التؤدة في حال دون حال، فلا تعد خصلة ملازمة للإنسان، فقد تعرض له في موقف أو أكثر،

(١) راجع -إن شئت- جمع الأسماء الحسنى للعلماء أول الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) الصحاح (ص: ٢٥٩).

لكن تفارقه في مواقف آخر، بعكس الحلم، فالحلم صفة ملازمة لصاحبها، وهذا أصح وأولى ومطابق لتفريق النبي ﷺ بين الصفتين في الحديث (١).

قال المناوي: الحلم: احتمال الأعلى الأذى من الأدنى، أو رفع درجة المؤاخذه عن مستحقها بالجناية في مستعظم، أو هو: رزانة في البدن يقتضيها وفور العقل، أو هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب (٢).

وَحَلَمَ بِهِ وَحَلَمَ عَنْهُ وَتَحَلَّمَ عَنْهُ: رأى له رؤيا، أو رآه في النوم، وفي الحديث: «مَنْ تَحَلَّمَ مَا لَمْ يَحُلْمْ كُفِّ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ» (٣)(٤).

فالحلم يأتي بمعنى الرؤيا، ولكن في الغالب يقال على الحلم: من الشيطان، والرؤيا: من الله؛ كما روي عن النبي ﷺ: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ» (٥).

والمقصود في الحديث أن من ادّعى رؤية حلم لم يره في منامه كُفِّ يوم القيامة بالعقد بين شعيرتين وليس له القدرة على ذلك، لأن هذا يُعد من الكذب على الله تعالى، فمن كذب وادّعى الرؤى حتى ولو كان يقصد بذلك تبشير شخص ما بخير يأتيه أو بث الطمأنينة في نفسه، فالنية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْرَى الْفَرَى

(١) سيأتي قريباً بإذن الله.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٣٨٣)، وأبو داود (٥٢٠٢)، والترمذي (٢٢٨٣)، وابن ماجه

(٣٩١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٠)، وأخرجه البخاري (٧٠٤٢)

بلفظ: «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين».

(٤) اللسان (٥٧٣/٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١).

أَنْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ»^(١).

قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا﴾ [الطور: ٣٢].

«وليس المقصود بالأحلام في الآية الرؤيا، ولكن معناها العقول، فعقولهم تأمرهم بما يقولونه فيك من أقاويل باطلة وأكاذيب، وهم يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور»^(٢).

□ **معنى الحليم في حق الله تعالى:**

«الحليم: هو ذو الصفح، والأناة، الذي لا يستغزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاص، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحلم، إنما الحليم هو الصفوح مع القدرة، والمتأنى الذي لا يعجل بالعقوبة»^(٣).

فستان بين حلم الله وحلم العبد، فحلم الله جل ذكره عن قدرة تامة شاملة، أما حلم العبد فعن عجز وضعف، وإن كانت له بعض القدرة فهي محدودة، ولا يطلق اسم الحليم إلا لمن له القدرة على المعاقبة مع صفحه عن المخطئ، أما من يتجاوز عن الخطأ مع عجزه عن المعاقبة فلا يسمّى حليماً، فالحلم متعلق بالقدرة.

ومن يحلم كحلم الله سبحانه! كم من عبدٍ يعصيه ليل نهار، سرّاً وعلانية، ويمهله تبارك وتعالى ويحلم عليه ولا يؤاخذه بذنبه، فبالرغم من علمه الواسع وقوته العظيمة وقدرته على إنزال العقاب وإلحاق النكال بمن

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٠٣ / ٤).

(٣) ما بين القوسين من شأن الدعاء (ص: ١٣٢).

كفر به وأعرض عن أوامره وعصاه، إلا أنه يحلم عليهم ويمهلهم ولا يؤاخذهم بما كسبوا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ [فاطر]، «ذكر الله تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله، وإنظاره أرباب الجرائم»^(١)، فأكثر الناس مذنبون، مفرطون ومقصرون، حتى من سلم من الكبائر لن يخل عمله وقوله من الصغائر، فمن سلم منها ولم يبق له إلا اللوم، لن يخل قلبه من الأمراض، ولسانه من الآفات، وبدنه من التقصير والعجز والكسل، فإن خلا، فلن يوفي ربّه حقه في الذكر والشكر والحمد على نعمه التي تنزل عليه ترا. فلو آخذنا سبحانه بذنوبنا فلن يبقى على ظهر هذه الدنيا أحد قط.

لا تغتر بالحلم، فقد تكون مستحقاً للعقاب..

فلو أن رجلاً ملك مصنّعاً كبيراً، وسن لعماله قوانينَ لانضباط العمل فيه، فلا يصح التأخير أو الانصراف إلا في مواعيد محددة، ولا يقل الراتب عن كذا، والمطلوب يومياً في العمل كذا وكذا، وتعاقد مع العمال على تلك الشروط وأبرم عقوداً تحوي تلك البنود الواضحة للطرفين، ثم وجد منهم تقصيراً أو تفریطاً أو خيانةً للأمانة بعدما راقبهم أشد مراقبة، ولم يطولهم عقابه أو يصب عليهم غضبه من أفعالهم وقتما علم جنائتهم، بل سكت وصبر ولم يواجههم أو يعنفهم ويعاقبهم، فسيكون سكوته هذا وصبره لحالٍ من حالين، إما لكونه يضمّر لهم عقاباً خفياً ويمهلهم؛ ليزداد فسادهم وتزداد أدلته ضدهم

(١) ما بين القوسين من تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

ثم يُنزل بهم عقوبات قاصمة، وإما يتركهم لما في قلبه من رحمةٍ وحلم، فيمهلهم مرة بعد مرة راجياً أن يستقيموا على الاتفاق الأول بينهم، ويتقوا الله ﷻ فيما ولاهم عليه، وربما زاد لهم في العطاء وهم مصرون على تقصيرهم وهو يرجو بالإحسان إليهم إصلاح أحوالهم، فالأول لا ينطبق عليه صفة الحلم، أما الثاني فقد عفا وأمهل مع كمال قدرته، برحمة ورأفة منه، فيسمى حلیمًا، والله المثل الأعلى، فالرب تبارك وتعالى حلیم، كريم، منان، لو شاء لعجل لخلقه العذاب وأنزل عليهم الرجز والعقاب، لكنه رحيم، يعذر وينذر ويمهل حتى يرجع الصادق ويتوب من له قلب حي، فسبحانه أكرمنا فخلقنا وأعطانا وكفانا وآوانا ورزقنا ابتداءً بغير استحقاق، فقابل أكثر الناس ذلك بكفران النعم، ونكران الإحسان، وعصيان وشقاق للقوي العزيز، فأى عفو وحلم وكرم وإحسان أوسع مما ننع به، وينعم به الخلق أجمعون؟!..

اقتران اسم الحليم بأسماء أخرى في كتاب الله ﷻ:

جاء هذا الاسم في أكثر من موضع في القرآن، بعضها مقروناً بغيره، وهذه أمثلة:

اقتران اسم الحليم بالعليم:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢) [النساء]، سبحانه يعلم ما ظهر وما خفي، لا تفوته شاردة ولا واردة، وسبحانه حلیم، وحلمه عن علم كامل يليق بجلاله وكماله لا عن جهل كجهل البشر، ولا عن علم ناقص كعلمهم، فلكونه حلیمًا يصبر على أفعال العباد وظلمهم لأنفسهم بالمعاصي والذنوب، حتى وإن علم عنهم التفريط أو رأى منهم التقصير،

لعلمه أن منهم - حين تسنح لهم الفرصة للهداية والرشد - من سيسارعون في التوبة ولزوم طريق ربهم المستقيم.

ما تاب التائبون إلا بحلم الله جل وعلا:

أسلم كثير من الصحابة بعد مرور وقتٍ كبيرٍ من مبعث النبي ﷺ، ومنهم من أسلم في المدينة بعد الهجرة -أي بعد ثلاثة عشر سنة تقريباً- فبالرغم من اجتهاد النبي ﷺ في الدعوة في تلك الفترة إلا أنهم لم يسارعوا في الدخول في الإسلام والتوبة إلى الله، فلو عاجلهم ربهم بالعقوبة -التي يستحقونها- فما كان لهم ظالمًا، لكن لعلمه بحال قلوبهم، وبما سبق في الكتاب، وبحلمه عليهم أرشدهم ووفقهم وتاب عليهم فأخرج منهم الأخيار الأطهار، ومن أمثال هؤلاء: أبو هريرة ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التقي النقي الذي صاحب النبي ﷺ حتى سار من أكبر رواة الحديث، فقد روى كثيرًا من الأحاديث ودعا له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان من أكثر الصحابة حفظًا، ونذكر أيضًا: حكيم بن حزام ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان من الرواة، ولم يسلم إلا بعد الهجرة إلى المدينة، وكذلك عدي بن حاتم ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كان نصرانيًا، ولم يسلم طوال فترة مكث النبي ﷺ في مكة وأسلم في المدينة، وكذلك أبو قحافة ^(٤) والد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بالرغم من كون ولده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعد أول من أسلم من الرجال بعد البعثة، وصدق النبي ﷺ، إلا أنه تأخر إسلامه، وخالد بن

(١) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٧/ ٣١١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤) ط. الرسالة.

(٣) انظر: سير الأعلام (٣/ ١٦٣).

(٤) انظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ٤٦١).

الوليد^(١) الذي قال فيه النبي ﷺ: «سيف من سيوف الله»، والذي ما دخل معركة إلا انتصر فيها أو خرج منها بخسائر لا تكاد تُذكر، وكان له من المهابة في قلوب الأعداء، تأخر إسلامه، فلم يسلم إلا بعد هجرة النبي ﷺ، فبسبب علمه سبحانه بأحوال عباده وحلمه عليهم وإمهالهم، كان إسلام هؤلاء الفضلاء وغيرهم، ولولا حلم الحليم لماتوا على الكفر ولخلدوا في نار جهنم، فالحمد لله رب العالمين.

أحسن كما أحسن الله إليك:

ما أجمل أن يتحلى المسلم بالحلم مع العلم؛ لأنه في الغالب سيلاقي أذى كثيراً ممن حوله - إذا لزم طريق الاستقامة -، وسيخالفه كثيرون، وسيعترض على منهجه وما يتبعه من طريق الله المستقيم ربما أقرب الأقربين منه، فلو علم أن هدايته وتوبته محض فضل من الله، وأنه سبحانه القدير على قلبب القلوب وصلاحتها، وعلم أن ربه قد حلم عليه ليتوب ويؤوب إليه، لحلم هو أيضاً على العباد، وألان لهم القول وخفض لهم الجناح، والتمس لهم الأعذار وكانت هدايتهم أحب إليه من الانتصار لنفسه منهم، وإن لم يكن كذلك لانفضت الناس من حوله ولخسر خيراً عظيماً له ولغيره، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِظٌ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

اقتران اسم الله الحليم باسمه الغفور:

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا،

(١) انظر: سير الأعلام (١/٣٦٦).

فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَادْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَادْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»، قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: لَا أَذْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ: «اْعْمَلْ مَا شِئْتَ»^(١).

لولا مغفرته - سبحانه - لهلك الخلق أجمعون، فلا يخلو واحدٌ منا من زلل وذنوب، أو تقصير وتفريط، لا نخلو من الذنوب مطلقاً علمناها أم لم نعلمها، فبحلمه جل وعلا يترك العبد حال معصيته وهو يسمعه ويراه ويقدر عليه، عسى أن يقلع عن ذنوبه، فإن عاد وعلم جنايته غفر له ما قد كان منه. ومن حلمه يرى من يبحث عن سبل الضلال، ويسعى في إضلال الناس، ويرى من يخلو بمحارمه فينتهكها، وقد تكون تلك المعاصي والآثام مستمرة لسنواتٍ طوال، فيصبر عليهم، ولا يعاقبهم على جرمهم حال عصيانهم، فالعبد يذنب، والرب يحلم.

لكن علينا أن نعلم أن معرفة معنى الحليم ليست دعوة للاستهانة بالأمر، ولا رخصة لمعصية الرب تقدس وتعالى، فالموفق من كان على حذر وخوف من سوء الخاتمة، وأن يموت على المعصية؛ لعدم علمه بميعاد أجله، والمسدد من فهم وعقل مراد الله ﷻ منه.

فقد قالت اليهود: إن عزيزاً ابن الله، وقالت النصارى: إن المسيح ابن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٨).

الله، فأبطل الله تعالى دعواهم، قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُوتَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

فإن الله تعالى واحد أحد، ليس له صاحبة ولا ولد، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، تعالى الله وتقدس عن هذا الافتراء علواً كبيراً.

فمغفرته تقتضي الغفران للمذنبين من خلقه حال توبتهم واستغفارهم، فإن غفر الله تعالى للعبد مرة وثانية وثالثة ثم أقام العبد على المعصية دون استغفار ولا رجوع لربه، فربما أخذه ربه وقتها وعاقبه، وسيكون لذلك مستحقاً، ولكن بحلمه سبحانه يعذر العاصي وينذره، فيحلم عليه ثم يغفر له إن تاب واستغفر، فإن لم يكن حليماً لأسقط السماوات والأرض على من ادعوا له الولد وأشركوا معه غيره طالما أقاموا على إفكهم وزورهم.

وعن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ، قال: «لَيْسَ أَحَدٌ، أَوْ: لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»^(١) فأبي حلم كحلم الله ﷻ على من نسب له كل هذا النقص؟!

وقيل في معنى الحليم: «الذي لا يحبس إنعامه وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي، كما يرزق المطيع، ويبقيه، وهو منهمك في

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

معاصيه، كما يبقى البر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره، فضلاً عن أن يدعوه»^(١).

كما ينعم الرب تبارك وتعالى على عبده المؤمن الطائع بالنعم والعطايا، فسبحانه لا يحرم العبد الكافر أو العاصي من نعمه وفضله عليه، وهذه ليست تسوية بينهما كما يظن بعض الجهال، فيتكاسلون بسبب هذا الظن عن شكر الله على تلك النعم - كالسمع والبصر والشم والبلع والمشي والتفكير وغيرها من النعم - معتقدين أن تلك النعم ليست مزية خاصة بل هي للجميع فلا تستوجب الحمد والشكر طالما يتنعم بها البار والفاجر، وهذا من الضلال والجهل البيّن بصفات الله تعالى.

فالعاقل يعلم أن الله ﷻ قد ينعم على الكافر في الدنيا ويعافيه في بدنه ويوسع له في رزقه، ولكنه ليس له في الآخرة من خلاق، رحمته تلحقه في الدنيا، بينما تلحق المؤمن في الدنيا والآخرة، وهذا يُعد من حلمه أيضاً إذ أمهل الكافر طوال حياته وثبّت له النعم كما ثبتها لغيره، فالمؤمن يقدر ربه قدره ويستشعر النعم التي تحيط به ليل نهار، ويعلم أن رزقه الذي ساقه الله إليه إنما هو عن محبة ورحمة ورضا، أما رزق الكافر فهو عن إمهال؛ لأنه حلیم، وحلمه يقتضي الصبر والتؤدة.

اقتران اسمه تعالى الحلیم باسمه الغني:

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ

غَفِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ [البقرة].

ربما يحلم شخصٌ على آخر لمصلحة له عنده، أو لصلة، أو مصاهرة، أو خدمة مرجوة، أو رغبة وتطلع للقرب والمحبة المتبادلة بينهما، وهذا كثير جدًّا، فكم من خادم في عمل حلم على مخدومه لرغبته في المال، وكم من أم صبرت على عقوق أولادها ابتغاء محبتهم وقربهم، فالكل يحلم كي يصل إلى مآربه.

أما حلم الرب فلا يماثل حلم البشر، يحلم سبحانه على عباده مع كامل غناه وقدرته وعلمه، لا يحتاج ولا يضره عصيان أحد، فالكل عبيده، والكل محتاج إليه، مفتقر إلى عطائه وعفوه وغفرانه، يحب العبد الطائع، ويفرح بتوبة التائب، وإن كان لا ينتفع من طاعات العباد إلا أنفسهم، ولا يتضرر من معاصيهم إلا هم، يقوم قائم على مصالح الخلق والمخلوقات كلها، صمد يصمد إليه الخلائق أجمعون، وهو الغني عن العالمين.

□ آثار معرفة العبد لاسم الله الحليم:

الأثر الأول: معرفة أن الله سبحانه وتعالى حليم يحب الحلم:

فالحلم من صفات الله تعالى، ويحب من العبد أن يتصف بمقتضى هذه الصفة، فكن حليمًا على عباد الله يحبك الله، لا تبطش بمن آذاك أو أخطأ في حقك، ولا يصدنك جهل الجاهلين أو يستفزّ غضبك إعراض المعرضين، بل اصبر عليهم مرة ومرات، وإن وجدت أحدهم مصرًّا على جهله، فبيِّن له خطأه برفق وحلم ابتغاء الفوز بحلم الله عليك، واستحضر أنك أيضًا تذنّب، ولكن ذنبك أعظم لكونه في حق الله لا في حق البشر، وتجهل وجهلك أكبر لكونه جهلاً بأوامر الله لا بأمور البشر، فكلما ازدادوا في خطئهم وجهلهم فزد أنت في حلمك، وتذكر كم مرة أخطأت وشاقت

وجهلت وأرخی عليك حلمه، ثم وفقك لطريق التوبة، فكن محسناً تجزى عن الإحسان إحساناً...

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

«أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية؛ توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل-، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق:

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرّها النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، كَأَنَّكَ

تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندي، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده»^(١).

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَكْبَرُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ»^(٢).

وعندما قدم وفد عبد القيس للنبي ﷺ، بادر القوم جميعهم لرؤيته والسلام عليه شوقاً إليه ومحبةً لرؤياه، وبسبب تلك السرعة والعجلة تركوا رحالهم بما عليها من زاد ومتاع، وقدموا عليه ﷺ بما عليهم من آثار التعب والسفر، ولكن الأشج كان أكثرهم حلمًا وأناة، فجمع الرحال وأزال آثار السفر وذهب له ﷺ، ولم يفته ما حصّله أصحابه من رؤيته والسلام عليه، ولكن بعد أن تأنى في فعله ولم يعجل في خطواته، وكان ﷺ يرقب ذلك التصرف الحسن وتلك الصفات الحميدة، فقال نبيُّ الله ﷺ لأشجَّ عبدِ القيسِ

(١) تفسير السعدي (ص ١٤٨-١٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، والطبراني في الأوسط (٧٢٨٢)، والضياء في الأحاديث المختارة (٢٦٩)، وأحمد في المسند (٣٠١٥) باختلاف يسير، وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء (١٦٣/٤)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٩٠): موقوفًا رجاله ثقات، وقد روي مرفوعًا، وصححه في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٥٢).

«إِنَّ فِيكَ لَخَصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ»^(١).

ففرق بينهما، وأخبره أن ربه تبارك وتعالى يحبهم.

فالاندفاع يعقبه الندم، ولكن التأني والتؤدة عند اتخاذ القرارات كلها خير، فكم من رجل فارق زوجه في لحظة غضب، وكم من مشروع هدمت أركانه لانفعال القائمين عليه، وكم أصاب العباد من فساد بسبب التسرع والعجلة.

ولنا في حلم رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛

أوذى ﷺ أشد الأذى، على مدار ثلاث وعشرين سنة، اتهمه قومه بالجنون تارة وبالسحر تارة، وبالكهانة تارة، سخروا منه وألقوا على ظهره سلا الجزور، أوذى في الطائف لما عرض نفسه على أهلها ودعاهم الله ﷻ، ولكنه كان حليماً ﷺ، ما زاده جهلهم وآذاهم إلا حلماً وعفواً وصبراً، فقد أرسل الله ﷻ له ملك الجبال فلو أراد وقتها أن يطبق ملك الجبال عليهم الأخشيين - جيلين عظيمين - لفعل، لكنه قال: «بَلْ أَرِجُو، أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٢).

ومعلوم، أن وقت الرخاء قد يسهل الصبر، ولكن الحلم هنا كان في وقت شدة وحزنٍ وضيق، حتى أنه ﷺ قال لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين سألته فقالت: «هل أتى عليك يومٌ أشدُّ من يومٍ أُحُدٍ؟» قال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ»^(٣)، فما أحلمه، وما

(١) أخرجه مسلم (١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١).

(٣) جزء من حديث، أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

أرحمه، وما أرفاهه! وقد أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعه، فكن حليماً متبعاً لنبيك ﷺ، فالاتباع يكون في كل شيء في فعله، وخلقه، وسمته، وهديه، ورفقه وحلمه، ولينه، الاتباع لا يعني إطلاق اللحية ولعق الأصابع والنوم على الشق الأيمن وحسب، لكن المعنى الأشمل للاتباع هو الاتباع في كل فعل أو ترك أو خلق، ومن فعله ﷺ الصبر والحلم على المخالف والجاهل، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»^(١)، فأحسن أخلاقك يزد اقترباك، والأمر بحسن الخلق أمر عام، فحُسن الخلق يجب أن يُطبق مع الجميع -مع الأم والأب والزوج والولد والأقربين وغيرهم- واعلم أن حسن الخلق لا يعارض الحزم والقوة، فالحزم له موضع، واللين له موضع، فإنزال الأب العقاب على الولد الذي لا يراعي مصالح نفسه إن لزم الأمر يكون في كثير من المواقف واجباً ومن حكمة الأب، وإنزال العقاب بالموظف إن تكرر إهماله وأضر بالعمل واجب أيضاً إن لم ينصلح حاله إلا بالعقاب، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في ذلك، فقد عَنَّفَ معاذاً لما أطل بالناس القراءة في الصلاة قال له: «أَفْتَانُ يَا مُعَاذُ؟ أَفْتَانُ يَا مُعَاذُ؟ أَلَا قَرَأْتَ بِسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَنَحْوَهُمَا»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٣٦٨/٤)، وصحيح ابن حبان (٤٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦٢)، وصحيح الجامع (١٥٣٥)، وأخرجه البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١) بلفظ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا».

(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٧٤)، وأحمد (١٢٢٤٧) باختلاف يسير، وصححه مقبل بن هادي الوادعي في الفتاوى الحديثية (٤٢٠/١)، قال: صحيح

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا آخِذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(١).

وغيرها من المواقف التي تدل على الحزم الذي لا يتعارض مع الحلم والرفق، فالعقاب - بلا تعجل في اتخاذ القرارات - قد يكون في أوقات من الحكمة، كما يكون اللين والرفق أو الحلم والصبر في وقت ما من الحكمة.

كيف يصبح العبد حليماً؟!

قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ» ^(٢)، وقد قيل: «تكلف الطبع يصبح سحجة»، فلو كنت عصبي المزاج سريع الغضب، فتكلف الهدوء والرّوية، تكلف الحلم والصبر، واحمل نفسك على التّأني في اتخاذ القرارات، صبر نفسك على الخلق مهما كان الحق معك، ومهما كان الآخر جهولاً ولك مؤذياً ظلوماً، فكن أنت كاظماً للغیظ محسناً حليماً، وتذكر آيات العفو والصفح التي وردت في كتاب الله العزيز، وكذلك تذكر فضل الحلم والحلماء وما ادخره لهم ربهم تبارك وتعالى من عظم الجزاء، فإن فعلت ذلك وحفزت نفسك، وألزمتها به وأجبرتها على طاعتك فيه، اكتسبت تلك الصفة الجميلة وصارت فيك سحجة ملازمة لك بأمر الله ﷻ وبحوله وقوته.

= على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صفة الصلاة (١٠٦)، قال: إسناده جيد، وأصل القصة في الصحيحين البخاري (٧٠١)، ومسلم (٤٦٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٠) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٠).

الأثر الثاني: الحذر من غضب الحليم:

فالله - جل وعلا - له صفات الجمال من الرحمة والعفو والود واللطف والمغفرة والإحسان والحلم وغيرها، ومع تلك الصفات له صفات الجلال من البطش والقهر والجبروت والانتقام والأخذ الأليم ما شابه ذلك، فلا بد أن يعلم العبد ذلك، فيتعبد لله تعالى بصفات الجمال والجلال سويًا، فمن تعبد بصفةٍ دون أخرى يُخشى عليه أن يتلبس بفكر فرقة من فرقتين إما فرقة المرجئة أو فرق الوعيدية وما لديهم من خلل، فالأولى وكأنهم ما علموا عنه سبحانه إلا أنه غفور رحيم، فيزهدون الناس في الطاعات ويهونون في أعينهم المعاصي ويصغرونها، ويهملون تعليم الناس أحكام دينهم وتوحيد ربهم، ولا يحدثونهم إلا عن المحبة والرجاء، ويعدونهم جنات عرضها السماوات والأرض بما ليس لهم به علم، فينشئون جيلاً متفلتاً، معرضاً عن شرع الله ﷻ، لا يقر معروفاً ولا ينكر منكراً. والثانية كأنهم ما علموا عنه سبحانه إلا كونه شديد العقاب، فيكفرون كل من يعصي الله تعالى، ويعدونهم خلوداً في النار بما ليس لهم به علم أيضاً - وذلك كثر الآن بشدة - أما أهل السنة فوسط بين هؤلاء وأولئك، وما زلت أقدم تلك الفرق إلا بسبب جهلهم بمعاني صفات ربهم تبارك وتعالى.

حلم لا ينافي انتقامه من الظالمين:

خذ العبر من قصص القرآن:

قال تعالى في شأن الكافرين: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنَّا أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت].

وقال سبحانه وتعالى عن فرعون وجنده: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف].

فبعد حلم الله ﷻ وإنذاره وإعذاره، وبعد إرساله الرسل، وإنزاله للآيات البينات، ما زاد ذلك الطغاة من الأمم السالفة كقوم نوح، وعاد، وشمود، وفرعون وجنده إلا جحودًا وإعراضًا واستكبارًا، فكانت العقوبة، وكان البطش والانتقام والقهر.

ولما اختال قارون في زيته، وتعالى على العباد، حُسف به وبداره الأرض مع كل ما كان له من قوة وسلطان، قال تعالى: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْأُمْتِصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصاص].

فلو تأملنا هذه العقوبات لتلك الأمم، والنكال والعذاب الذي حل بهم، لن تراود نفس إنسانًا التمني والطمع في حلم الله دون الاجتهاد في فعل الطاعات والقربات، وترك العصيان، والمنكرات، وما طال به الأمل، ولا استصغر المعاصي وأصر عليها أحد.

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

فكان يعوذ بالله من عقابه؛ لأنه يعلم أن عقابه أليم شديد، ويعوذ من

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

سخطه وعذابه؛ لأنه ﷺ تعبد لربه بأسمائه وصفاته كلها، فعلى الكيس ألا يغتر بما ذكرنا من حلم وإمهال الله جل جلاله له، ولكن يعمل الصالحات ويجد ويجهد ويسأل الله ﷻ ألا يؤاخذَه بتقصيره وجنائته، ويسأله أن يحلم عليه ويستره بستره الجميل.



اسم الله

الفَتْحُ

٢٧

الْفَتْحُ

ورد اسم الله «الفتاح» بصورة الإطلاق في القرآن مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ [سبأ].

وهو من الأسماء التي اتفق عليها جماهير أهل العلم؛ بل إن القرطبي رحمه الله نقل الإجماع على ذلك ^(١).

□ معنى اسم الفتح لغة:

قال ابن فارس رحمه الله: (فتح) الفاء والتاء والحاء أصل صحيح يدل على خلاف الإغلاق، يقال: فتحت الباب وغيره فتحًا، ثم يحمل على هذا سائر ما في هذا البناء، فالفتح والفتاحة: الحكم، والله تعالى الفاتح، أي الحاكم..... والفتح: الماء يخرج من عين أو غيرها، والفتح: النصر والإظفار، واستفتحت: استنصرت ^(٢).

تنبيه:

الفتاح والحاكم ليسا من أسماء الله ﷻ، ولكن من أسمائه الفتح والحكم والحكيم، فبعض أهل العلم -وهم قلة قليلة- عدّوهم من أسمائه تبارك وتعالى، وجماهير العلماء على خلاف ذلك ^(٣).

(١) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، للقرطبي (١/ ٢٢٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٦٩)، باختصار.

(٣) راجع -إن شئت- جمع أسماء الله الحسنى للعلماء الذين اعتنوا بجمعها أول الكتاب.

قال الجوهري: (فتح) فَتَحْتُ الباب فانفتح، وَفَتَحْتُ الأبواب، شَدَدَ للكثرة، فَتَفَتَّحَتْ هي، وَبَابٌ فَتُحٌ، أي واسع مفتوح..... واستفتحت الشيء وافتتحته، والاستفتاح: الاستنصار، والمفتاح: مفتاح الباب وكلّ مستغلق، والجمع مفاتيح ومفاتيح^(١).

وقيل: إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان:

أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل والغلق والمتاع، نحو قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعُهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤].

والثاني: يدرك بالبصيرة كفتح الهم، وهو إزالة الغم، وذلك ضروب: أحدها: في الأمور الدنيوية كغم يفرج، وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، نحو: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أي: وسعنا، وقال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: أقبل عليهم الخيرات، والثاني: فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك: فلان فتح من العلم بابًا مغلقًا..... وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فإنه يحتمل النصرة والظفر والحكم، وما يفتح الله تعالى من المعارف، وعلى ذلك قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ﴾ [السجدة: ٢٨]، ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ [السجدة: ٢٩]، أي: يوم الحكم. وقيل: يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة، وقيل:

(١) الصحاح (ص ٧٩٤) باختصار.

ما كانوا يَسْتَفْتِحُونَ من العذاب ويطلبونه^(١).

□ معنى اسم الفتح في حق الله سبحانه وتعالى:

«الفتح: هو الحاكم بين عباده، يُقال: فتح الحاكم بين الخصمين، إذا فصل بينهما، ومنه قول الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

معناه ربنا احكم بيننا، ويقال للحاكم: الفاتح. وقال امرؤ القيس:
أبعد الفاتح الوهاب عمرو حليف الجود والحسب اللباب؟

و قد يكون معنى الفتح أيضاً الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ليصروا الحق، ويكون الفاتح أيضاً بمعنى الناصر، كقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَسْتَفْزِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. قال أهل التفسير: إن معناه: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر^(٢).

إذا ضاقت عليك الأرض بما رحبت، وانقطعت بك الأسباب، وانغلق صدرك بعد انشراحه، وتكدر صفوك، وظننت أن الدنيا قد أغلقت أبوابها في وجهك، وشق عليك أمر دنيوي أو شرعي، فاسأل الفتح أن يفتح لك المغاليق، ويفتح لك أبواب الرحمة والرزق وطرق الخير.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وفتحته نوعان: فتح بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية.

(١) المفردات للراغب (ص ٤٠٧).

(٢) شأن الدعاء (ص: ١٢٢).

وهو حكمه بين عباده، يشرع الشرائع ويسن لعباده الأحكام والوسائل والطرق التي يهتدون بها إلى جميع منافعهم ومصالحهم، ويحكم بين الرسل وأتباعهم وبين أعدائهم، فيكرم الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، ويهين أعداءهم ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحق وأولئك على الباطل.

والنوع الثاني: فتحه لعباده الرحمة والبركات، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، ويفتح لعبده المؤمن أبواب المعارف وحلاوة الإيمان وسرور اليقين وسهولة الطاعات وتيسير القربات، اللهم افتح علينا بفتوحك على العارفين^(١).

فالأحكام القدريّة: هي كل شيء قدره الله ﷻ في الكون؛ كتقديره الغنى لعبد والفقر لآخر، وتقديره الصحة والمعافاة للبعض، والمرض لآخرين، والأولاد للبعض، ويجعل من يشاء من عباده عقيماً، إلى غير ذلك.

والأحكام الشرعية: هي تشريع الله ﷻ، أي: أمره ونهيه، وللعبد اختيار للطاعة والمعصية، فللعبد مشيئة وإرادة، وإرادة ومشيئة الرب محاطة به، فلا يخرج شيء في الكون عن مشيئته ومقتضى حكمته جل وعلا.

والأحكام الجزائية: وهي التي يترتب عليها الجزاء إما بالثواب وإما بالعقاب. فالله سبحانه وتعالى حكيم، حكم بين عباده فجعل لكل قوم شرعة ومنهاجاً، حتى بعث النبي ﷺ بشريعة الإسلام فنسخت الشرائع السابقة، وبقيت شريعته إلى أن تقوم الساعة، وقد شرع هذه الشرائع لحكمة يعلمها، وأنزل الكتب، فكانت التوراة لقوم موسى، وكان الإنجيل لقوم عيسى،

(١) شرح القصيدة النونية، لجمع من العلماء (١٩٦/٣).

ولمحمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين القرآن الكتاب العزيز الكريم والناسخ لجميع الشرائع التي سبقت، والمهيمن عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَّا سَلَّمَ﴾ [آل عمران: ١٩].

وباسمه الفتاح لم يترك رب العالمين خلقه هملاً، فسنّ لهم الأحكام، وبينّ لهم طرق الهداية والنجاة، وسبيل التودد له والتقرب إليه، ثم يوفى كلّ حسابه يوم القيامة.

وباسمه الفتاح يحكم ربُّنا بالحق بين الرسل وأقوامهم، فيقيم الحجة على المعاندين المتكبرين، يوم يجحدون إتيان الرسل وإنزال الكتب، وتسول لهم أنفسهم الكذب على الملك جل وعلا كما كذبوا على رسله في الحياة الدنيا، وغفلوا أنهم قد آل بهم مآلهم ليوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وباسمه الفتاح، يفتح سبحانه لعبده من رحماته وبركاته ما ينشرح به صدره، ويطمئن قلبه، وتأنس روحه، وتلد عينه، ثم لا يلبث إلا وتنتفتح له المغاليق، فيُفتح له من أبواب المعارف ما لا يخطر على باله، فيفهم عنه، وتسهل عليه الطاعة وتيسر، ويصير أحب الأعمال إليه السجود بين يديه، وأحب الكلام على لسانه ذكره وشكره، وأحب الكتب لقلبه كتابه، فيقرأ ويتدبر ويتفكر، وكلما قرأ كلما ارتقى، وكلما تفكر كلما اقترب، فيذوق حلاوة الإيمان حقيقةً، فلا تسأل بعدها عن سعادته وسروره وهنائه.

ولو نظرنا إلى اسم الفتاح كما فسّره العلماء لغة وشرعاً لوجدنا أنه يدور حول ثلاثة معان:

المعنى الأول: الحَكَم بين العباد:

قيل: كذلك المتحاكمان إلى الحاكم، ينغلق عليهما وجه الحكم فيفتحه الحاكم عليهما، ولذلك سمي الحاكم فتاحاً لأنه يحل ما استغلق من الخصوم، تقول: افتح بيننا، أي احكم، ومنه قول شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي: احكم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩) أي: الحاكمين^(١).

فلو تخاصم رجلان، ولم يعترفا بالخطأ، وظن كل منهما أن الحق معه، فانغلق عليهما وجه الحكم، فتحاكما لقاضٍ، فيسمى القاضي في تلك الحالة فتاحاً؛ لأنه يحكم بينهما، ويفتح ما انغلق على عقولهما والتبس عليهما.

الله ربنا خير الفاتحين:

شرع لنا الدين الذي هو سبب العيش الطيب، والهدوء والأمن والسلام، فهو نورٌ ينير ظلمات تلك الحياة وما يعترئها من فتن وبلايا، وما ضل الضالون، ولا تجبر المتجبرون، وما ضُيعت الحقوق، وتفشى الظلم، وشاع الفساد في الأرض إلا بالإعراض عن دين الله ﷻ، والركون لغيره، إما باستكبار وإنكار وجحود -وذاك كفر-، وإما بفسق وظلم واتباع للهوى، وذاك من الضلال المبين الذي تُوعده صاحبه بالعذاب الأليم.

فأي سماء تظله؟! وأي أرض تقله؟! من اعتقد أن ما نظمته البشر من قوانين وتشريع أفضل من دين الله!!

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٢٢٠-٢٢١).

فالليب السعيد يعلم أن الحق الذي قضى به الشرع، سواء كان له أو عليه فهو الخير لدينه ودنياه، فعلينا بالسمع والطاعة ولنكن ممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور، ٥١]، ولنحذر أن نكون كالمنافقين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [٤٩] أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون ﴿٥٠﴾ [النور].

فإن التزم المرء بالخضوع لربه لأفلق وصلاح وفاز في الدارين، ولو رضي قلبه وسلم تسليمًا لأمر به - حتى وإن كان يظن في نفسه أن الحق معه، وحتى لو كان ذلك الحكم في نظر الخلق شاقًا عليه أو ضارًا له - لرزقه الله ﷻ السهولة والتيسير في تنفيذ أمره، بخلاف حكم البشر، فغالبًا لا ترضى النفس البشرية بحكم من هم مثلها من البشر إن كان الحكم من عند أنفسهم، ولن تتقبل أن تعاقب أو تجازى حتى وإن افتقدت الحق، فضلًا عن أن تجازى وتعاقب إن ظنت أن الحق معها.

وذلك الفتح وتلك السكينة، لا تنزل فقط على المتحاكمين، ولكنها تنزل ويصيب نورها أيضًا الحاكم، أو القاضي، فينير الله ﷻ بصيرته إن رأى منه خيرًا وعدلاً وقسطًا، فيحكم بالحق، فالفتاح هنا يفتح للمتحاكمين بالحكم بينهم وبقبولهم وانشراح صدورهم للحق، ويفتح على القاضي، أو الحاكم بنور البصيرة والهدى، فالخير كله في اتباع الشرع.

المعنى الثاني: الفتح هو الذي يفتح لعباده أبواب النصر والظفر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) [الفتح].

«ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين، إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك الفتح»^(١).

والفتح في الآية المقصود به الفتح الحاصل للمسلمين بصلح الحديبية، وقد روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: «تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ»^(٢).

فوائد مختصرة من صلح الحديبية:

لما قصد النبي صلّى الله عليه وآله والمسلمون معه مكة لأداء العمرة^(٣)، صده المشركون عن دخولها، وأرسلوا له المراسيل، فتارة يهددون، وتارة يتكبرون، إلى أن وفق الله صلّى الله عليه وآله النبي صلّى الله عليه وآله لصلح كان فتحاً منه ونصراً مبيناً، وبالرغم مما كان في بنود هذا الصلح من عنّتٍ من المشركين ومحاولة للتعالي والجور؛ كشرطهم على المسلمين ألا يعتمروا من عامهم هذا، وأن يُرد إلى المشركين من يسلم منهم، وألا يُرد للمسلمين من لحق منهم بالمشركين -إن حدث ذلك- إلا أن النبي صلوات ربي وسلامه عليه وافق عليها ورضي، وكان الاعتراض من بعض الصحابة؛ لحبهم لدينهم ورغبتهم في الجهاد بأموالهم وبذل الأرواح والأنفس

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٠).

(٣) انظر: ما جاء في صلح الحديبية في صحيح البخاري (٢٧٣١).

لأجل نصرته ولتكون كلمة الله هي العليا، ومن ذلك ما أظهره عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تساؤلات تنم عن ضيق أو تعجب مما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين، فلما وجد ثباتاً من النبي صلى الله عليه وسلم وثباتاً من الصديق أبي بكر رضي الله عنه، هدأت نفسه، وانشرح صدره واستغفر ربه لما قال، وفعل من الصالحات ما فعل ليغفر الله عز وجل له تلك المعارضة، وكذلك بقية المسلمين أذعنوا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لما علموا أنه لا مفر من عقد الصلح، فذبح الهدي فذبحوا، وحلق فحلّقوا، ثم كان الفتح العظيم بأن ألان مقلب القلوب قلوب كثير من المشركين، ونشرت الدعوة بحوله وقوته، وبائع كثير من العرب النبي صلى الله عليه وسلم، ودخلوا في دين الله أفواجا، فقويت شوكة المسلمين وزادوا عدداً وعدة، فلما كان التسليم والرضا لحكم الله وحكم نبيه صلى الله عليه وسلم كان الفتح في أقل من عامين، بأن أدخل الله جل ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام مكة منتصرين حكاماً عليها بعد أن هاجروا منها متخفين خائفين، فسبحان مصرف الأحوال ومغيرها هو وحده من فتح مغاليق قلوب المشركين للدخول في الإسلام، وهو وحده من فتح حصون مكة أمام المستضعفين من المسلمين.

قال تعالى: ﴿نَصَرْنَا مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣] [الصف].

يوشع بن نون عليه السلام:

قاتل يوشع عليه السلام أعداء الله قتالاً شديداً؛ حتى إنه قد قيل: إن عدد من قاتلهم ثلاثين ملكاً من ملوك الشام، وأظهره الله عليهم ونصره، إلى أن جاءت معركة حاسمة وكانت يوم الجمعة، ولما اقترب عليه السلام من فتح بيت

المقدس، كادت الشمس أن تغيب، وقد عزم أن ينتصر في تلك المعركة قبل غروب شمس ذلك اليوم؛ لأن القتال لا يحل لهم في يوم السبت طبقاً لشرعية التوراة، وكان ذا يقين وإيمان وإخلاص وصدق، فسأل الله تبارك وتعالى أن يحبس عليه الشمس حتى يفتح له بيت المقدس؛ لعلمه أنها مأمورة وهو مأمور، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيْلِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»^(١)، فلم يعط هذا العطاء العظيم غيره^(٢)، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده؛ لما رآه من دعائه الصادق ويقينه الجازم ومحفته لدين الله ونصرته، فلم يكن لنفسه حظاً ولا رغبة في ملك ولا عز، وما أراد العزة والرفعة إلا لدين ربه جل وعلا.

المعنى الثالث: الفتح يفتح لعباده باب الخيرات والبركات:

قال جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١٦) [الأعراف]، إذا الفتح بمعنى الحاكم، وبمعنى الناصر، وهنا يأتي بمعنى من يفتح أبواب البركات والخيرات على عباده، لكن عليهم أن يؤمنوا به وبموعوده، ويتقوه ويطيعوا أمره، وهذا النوع من الفتح أنواع:

(١) أخرجه أحمد (٨٣١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٠٦٩)، والهيتمي في المجمع (٣٣٥/٩)، وصححه الحافظ في فتح الباري (٢٥٥/٦)، ومقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند (١٢٧/٨)، قال: صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه البيهقي في دلائل النبوة (٤٨١) قال: صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٢).

(٢) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير (ص ٤٨٦، ٤٨٧) بتحقيق: الشيخ مصطفى العدوي،

النوع الأول: فتح باب الرزق:

فهو وحده من بيده مفاتيح الرزق، فقد يغلق الإنسان بنفسه بابًا للرزق المحرم، ثم ييسر الله ﷻ له معرفة طريق الحق، فيعلم أن الباب الذي ولجه غيره لهذا الرزق المحرم، قد يفضي به لبابٍ من أبواب جهنم، فما يكون منه إلا أن يغلق تلك الأبواب كلها ابتغاء مرضات الله، يغلقها صابرًا محتسبًا سائلًا ربه الأجر والمثوبة، فإن فعل ذلك موقفًا من قلبه أن الله هو الرزاق والفتاح، عوضه الله خيرًا مما ترك، وليحذر العبد من فعل الخير على سبيل التجربة، فبئس من يثق في نظره وعقله ولا يثق في كلام ربه وموعوده، وربما يعامل من يفعل ذلك بنقيض قصده، فافعل الخير ابتغاء مرضاته، واترك الشر خوفًا من عقابه واحتسب، واعلم أن ربك كريم منان، واسع العطاء.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ»^(١)، و«شئًا» نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، فمهما ترك العبد الله تعالى كان منه الفتح والجزاء والخير مما هو خير وأفضل مما ترك عبده، وخير مما توقع وتمنى ورجا، سبحانه شكور.

النوع الثاني: فتح القلوب:

وهو وحده من يفتح قلوب العباد للدعاة المخلصين؛ ليغرسوا فيها غرس الخير، فيحصل لهم من النور والانشراح والسرور والإذعان لأوامر الله ﷻ ما

(١) رواه أحمد (٢٠٧٣٩)، والهيثمي في المجموع (٢٩٩/١٠) قال: رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢٧٩/٣)، والبيهقي في الشعب (٥٧٤٨)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢٣٩/٢)، قال: رجاله ثقات، وصححه مقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند (١٥٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٣٤/٢).

لم يحصل لغيرهم ممن أعرضوا، فينالوا الثواب العظيم والأجر الجزيل. فسبحان من بيده قلوب العباد ومفاتيحها، ونرى كثيراً ممن يستمع لدروس العلم ولا يفتح قلبه وعقله إلا لداعٍ بعينه، يجري الله تبارك وتعالى الخير على لسانه، ويفتح لهذا الشخص على يديه، وربما استمع هذا الرجل لكثيرين، ووعظه أكبر الدعاة وطلاب العلم، إلا أن قلبه لم ينشرح إلا لواحدٍ بعينه، فهذا من رزق الفتاح له ولهذا الداعي، وهذا ما يكون إلا بعد يقينٍ جازم من الداعي أنه مهما اجتهد وجد، ومهما ساق أدلة وعرض دعوته ببلاغة وحسن منطق ومقال، لن تنشرح قلوب مستمعيه إلا بحول الله وإرادته وحده، ولو كان انفتاح قلوب الخلق بالاعتماد على ترتيب الأدلة وحسن الكلام وطلاقة اللسان لانفتحت قلوب العالمين جميعاً بلا استثناء لدعوة النبي ﷺ، ولآمن به المشركون أجمعون في حياته، وهذا لم يحدث، فمنهم من استجاب وآمن ومنهم من أعرض وكفر.

صلاح القلوب بيد الله فاسأله من فضله....

من قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو على يقين بمعنى هذا الاسم، لم يحزن من إعراض البعض عن قبول الحق، وسيعلم أن مهمته أولاً الإخلاص لله وحده والصدق، ويستمر على هذا ويجتهد سواء استجاب له الناس ولزموا قوله وأمره، أم أعرضوا وأبوا، ويا لها من منزلة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٢) [فصلت] فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: «وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

الْعَوَجَاء، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا^(١)، فمن فتح لنبه ﷺ الأعين العمياء، والآذان الصماء، والقلوب الغلف؟!

فليسأل العبد ربه فتح مغاليق قلبه ومغاليق قلوب العباد وأقفالها، فالقلوب قد تغلق بأقفال، قال تعالى: ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد]. وما يصدر من صدود وإعراض من بعض العباد ما هو إلا أثر تلك الأقفال، أما من فتحت أقفال قلبه وأضاء بنور من ربه، فسيصير قول قلبه قبل لسانه: سمعنا وأطعنا، بلا تردد ولا ريب.

النوع الثالث: فتح العقول:

يفتح سبحانه بعنايته الفهم لعقول عباده، فيُسّر لها استيعاب وتقدير الأمور الدينية والدنيوية، فمهما أشكلت عليك من مسائل، وواجهت من صعوبات وأثقلت كاهلك دقائق العلم وانغلق عقلك عن فهمها واستيعابها ومن ثم حلها، فالقادر على رزقك هذا الفهم بفتح مغاليق عقلك هو الرب جل ثناؤه، وإن لم يرد سبحانه ذلك، فلن يفيدك جدك واجتهادك مهما بلغ ولن يُجدي ذكاؤك مهما أوتيت من ذكاء ودهاء وفطنة.

فالذكي حقًا هو من يسأل الرب باسمه الفتح أن يفتح له ما استشكل عليه من مسائل ويفهمه ما استصعب من أمور، ولا يتوكل على حوله وقوته. وكم رأينا من مجتهدين لم يؤتوا الكثير من الذكاء أو التعليم لكنهم أوتوا نصيبًا من التضرع والذل والمسكنة بين يدي الله تعالى، فكان الفتح لهم آية

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥-٤٨٣٨).

من آيات الله يعجب لها أولوا النُّهى وأصحاب العقول النيرة.

وعلى العكس كم من ذكي وعبقري، لم يؤت شيئاً من العلم النافع له في آخره، وإن قرأ كتاباً عن الله أو رسوله لم يفهم منه كلمة، ولم يحفظ من كتاب الله آية في حين يحفظ القرآن كله بعض الأطفال بسهولة ويسر.

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وذلك في قضية عُرضت على سليمان وأبيه داود عليهما السلام، فاختلفا في الحكم، وكان الأكثر سداً في هذه الواقعة المعينة هو سليمان عليه السلام إذ فهمه الله تعالى وفتح عقله ليحكم بالحكمة والحق وبما فيه الأصلح والأنفع.

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: «الْعَقْل»^(١)، وَفَكَأُ الْآسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»^(٢).

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى: «أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس الناس في مجلسك، وفي وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على المُدَّعي، واليمين على من أنكر،

(١) العَقْل: العقل والدِّية: هو مقدار المال المحدد من الشرع الذي يدفعه عاقلة القاتل (أي أقاربه) لأهل المقتول، وسميت عقلاً لأنهم كانوا يعقلون الإبل ويربطونها بفناء دار المستحق للعقل، وثم أقوال آخر قريب لذلك. انظر: الحاوي الكبير للماوردي (١٢/٣٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٧) وغيره.

والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً، ومن ادّعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أعطيته بحقه، وإن أعجزه ذلك استحلّت عليه القضية، فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعمى، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يُبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التماسي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجرباً عليه شهادة زور، أو مجلوداً في حدٍّ، أو ظنيناً في ولاءٍ أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايِس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبّها إلى الله وأشبهها بالحق، وإيّاك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة، أو الخصوم - شك أبو عبيد - فإن القضاء في مواطن الحق مما يُوجبُ الله به الأجر، ويُحسنُ به الذكر.

فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزَيّن بما ليس في نفسه شأنه الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله»^(١).

(١) أخرجه ابن تيمية في منهاج السنة (٧١/٦)، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٨٩/١): كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول، وقال ابن كثير في مسند الفاروق (٥٤٧/٢): كتاب معروف مشهور، لا بد للقضاة من معرفته والعمل به.

النوع الرابع: فتح باب الدعاء:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده^(١).

لو كان لك أخ مقرباً منك وكان ذا مكانة ومنزلة في قلبك، ما رأيت منه إلا الخير وما توقعت منه إلا كل نفع، ثم رأيت منه خذلاناً في موقفٍ أو قضية كنت في حاجة ماسّة لمعونته ونصرته لك فيها، كيف سيكون شعورك حينئذ؟! إحساس الخذلان إحساس موجد وعنيف، فما بالك إن كان الخذلان من الله رب العالمين؟! كان الخذلان ممن هو أرحم بك من أمك، مَنْ خلقك ورزقك وأكرمك، وأنعم عليك ابتداءً بغير طلب؟! من تسأل وقتها وترجو! وبمن تستعين إن لم يكن لك ربك معيناً! بمن تستعيز وتستغيث! من يفرج عنك الكربات، ويصرف عنك البليّات، ويخرجك من الضيق للسعة، ومن الحزن للسعادة، ومن الوحشة للانسراح والسكينة! وحده الفتاح القادر على ذلك، فمن فقد ذلك كان شر هالك.

فلو استشعر الإنسان هذه المعاني؛ لتقطع قلبه حسرات لما يحيطه من خذلان، ولرجع عن الذنوب والمعاصي، وسأل ربه التوفيق والسداد، واستعاذ به من الخذلان، فإن رأيت إنساناً يُفتح له أبواب الشر والمعاصي فخاض فيها مع الذين خاضوا، دون مانع ولا صارف لأسبابها من الملك ولا معونة له على مقاومتها وتفاديها، فذاك من الخذلان.

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن

(١) فوائد الفوائد (ص: ٩٠).

الخدلان أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق - وهو بيد الله لا بيد العبد - فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللُّجأ والرغبة والرغبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجأً^(١) دونه^(٢). انتهى.

ومن أدعية رسول الله ﷺ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٣)، كان ﷺ يستغيث بربه، ويسأله أن يصلح له شأنه، وألا يكله لنفسه أبداً، فمن وكل لنفسه ضل وأضل.

ومن مضاتيح الخير:

الدعاء والافتقار والذل لله ﷻ وإقرار المرء بعدم ملكيته شيئاً لنفسه ولا غيره، فلو حقق ذلك، فليعلم أن الله جل ثناؤه أراد به الخير، وليداوم على الدعاء ويجاهد نفسه مهما كان عاصياً مقصراً، قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(٤).

(١) مرتجأً: أي مغلقاً.

(٢) فوائد الفوائد (ص: ٩٠).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٣٣٠)، والترمذي (٣٥٢٤)، والبزار في البحر الزخار (٤٩/١٣)، والطبراني في الأوسط (٤٣/٤)، والهيثمي في المجمع (١٠/١٢٠)، قال: رجاله رجال الصحيح غير عثمان بن موهب وهو ثقة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٧٧)، وفي السلسلة الصحيحة (٥٥٧/٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٠١)، وصحيح الجامع (٣٤٠٧).

□ آثار معرفة العبد لهذا الاسم:

الأثر الأول: كن مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر:

من أعظم النعم أن يجعل الله ﷻ العبد مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، فإذا أراد الله بعبده الخير يُجري على لسانه الخير، فيفتح بكلامه أبوابه على خلقه، فييسر عليهم ما تعسر عليهم من أمور.

فإن كنت ممن يسر الله تعالى لهم ذلك فلا تبخل على الخلق وأحسن إليهم كما أحسن الله إليك، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

فإذا جلست بين الناس فكن خير جالس، فقل كلمة طيبة، وأصلح ذات البين، واقض حاجة المسلم، وذكر بالله، وأرشد للخير والنفع، وعلم أو تعلم لتعلم فيما بعد، أغلق على غيرك أبواب الباطل من آفات اللسان، وأعمال السفهاء، والخوض فيما لا يعنينا ولا يزيد الكلام فيه من ديننا أو نفع في ديانا، إن استعان بك غيرك على شر أو معصية فرد طلبه بلطف، وإنه بحكمة عن فعله، وعلمه حرمة فعله، وذكره بنعم الله عليه فتفوز بالأجر، لا تعكر صفو زوجين، لا تخب امرأة على زوجها حتى وإن رأيت منه تقصيراً في حقها، قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٩٢١٤)، وأحمد في المسند (٩١٥٧)، بنحو مطوّل، وصححه مقل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند (١٢٩٤)، وصحيح ابن حبان (٥٥٦٠)، والبيهقي في الكبرى (١٣/٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠١٤)، وصحيح الجامع (٥٤٣٧)، وتخريج مشكاة المصابيح

ولا تثير غضبه منها وإن رأيت منها تقصيراً في حقه، فانصح برفق ولين وأغلق باب الشرور بينهما، ولا تضع أوقاتك طالما اصطفاك الله جل وعلا وألقى لك قبولاً وخيراً فلا تضع تلك النعمة واسأل الله الزيادة.

الأثر الثاني: احذر أن تحاول فتح ما أغلقه الله ﷻ:

على العبد ألا يحاول فتح ما أغلقه الله على العباد، كالتفكر في كيفية صفات الله تعالى أو معرفة الغيب، فمحاولة فتح مثل تلك الأبواب قد يؤدي بالعبد للخروج من الملة أو يقترب من ذلك، وذلك عن طريق الاستعانة بالسحرة والكهان وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(١).

وبعد سلوك المرء لتلك الطرق لن يحصل شيئاً قط، فسبحانه لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، والغيب الكامل لا يعلمه إلا الله وحده جل وعز، فمهما ضاقت بك الحال، ومهما فقدت من عزيز أو غابت عنك معرفة سبل الخير لا تلجأ لمثل تلك الخرافات، ولمثل هؤلاء الدجاجلة، ولا تبع دنياك بدينك، ولا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٢) إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا^(٣) [الجن].

= (٣١٩٨)، وقال: إسناده صحيح، وصححه في صحيح أبي داود الأم (٢١٧٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) وغيره.

الأثر الثالث: سؤال الله تعالى أن يفتح لك من رحماته:

اعلم رحمك الله أنك فقير لرحمات الله، لا تستغني عنها طرفة عين، وبدونها تصيبك الخيبة، ويلحق بك الخسران، فمن يرحمك بعد الله!! ومن يكرمك إن لم يكرمك الله!!

واعلم أن الفتح في باب صدق العزم نعمة، فكثير من المتمنين الحالمين، وكثير ممن يجول بخواطهم فعل القربات دون عقد عزم منهم لفعلها، ولا بذل وقت ولا جهد للقيام بها، كثير من هؤلاء يقولون ما لا يفعلون، وقد جلبوا على أنفسهم بذلك مقت العزيز الجبار.

نسأل الله أن يفتح لنا باب حُسن النوايا، فندعوه سبحانه بصلاح النية قبل العمل، وأثنائه، وعدم المنّ به بعد انتهائه، ونسأله المغفرة لما شاب العمل من تقصير وزلل، وما قد يخالطه من فسادٍ وعلل.

ونسأله الفتح في باب انشراح الصدر بالطاعات، وجلاء الهم والغم والحزن، وأن يرزقنا طمأنينة القلب وهدوء النفس وسكينة، فينبغي على من فُتح له باب الخير أن ينشرح به صدره، فعلام الغم والهم وقد رزقه الله ما فيه الفلاح والصلاح!!

ونسأله جل في علاه أن يفتح لنا باب الثبات على الأمر؛ فكم من شخص قطع باعاً في طريق الطاعة ثم نکص على عقبيه.

فكل ما ذكرنا من أبواب الخيرات والرحمات هي من فضل الله علينا ولا غنى لنا عنها، فنسأله باسمه الفتح أن يفتح لنا فيها وفي غيرها وأن يرزقنا الخير كله عاجله وآجله، فمن دعاء النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي

أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ» ^(١) وقد قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٢) [فاطر]، فإذا فتح لك ربك فتحًا فأبشر فلا راد لفضله حتى وإن اجتمع عليك ملوك الأرض، فسبحانه عزيز لا يقدر عليه أحد، وهو القادر والقاهر فوق عباده، وسبحانه عليم حكيم يعلم مواطن فضله وعدله.



(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٨٦٩)، وأحمد في مسنده (٢٥١٨٠) باختلاف يسير، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٢) وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

اسم الله

لَمَّا لَكَ وَلِإِلَهِكَ وَلِإِلَهِكَ

٢٨-٢٩-٣٠

هَلِكُكَ وَهَلِكُكَ وَهَلِكُكَ

المَلِكُ: من الأسماء التي اتفق عليها العلماء على كونها من أسمائه سبحانه وتعالى باستثناء سفيان بن عيينة والأصبهاني^(١)، وقد وردت في النص بصورة الإطلاق.

قال تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس].

وقال سبحانه: ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، [المؤمنون: ١١٦].

وقال جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

أما وروده في السنة: فعن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الوتر قال: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» ثلاث مرات يرفع صوته في الثالثة^(٢).

المَلِكُ: من الأسماء التي اعتبرها أكثر أهل العلم المعتنين بالجمع من أسمائه جل وعلا^(٣)، وقد ورد بالإضافة؛ فقد قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة]. وقال كذلك: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكًا مُلْكُكَ﴾

(١) راجع -إن شئت- جمع الأسماء الحسنى لجمع من العلماء الذي اعتنوا بجمعها أول الكتاب.

(٢) أخرجه النسائي (١٧٣١)، وأحمد في المسند (١٥٣٦١)، وعبد الرزاق في المصنف، والسفاريني في كشف اللثام (٣٩/٣)، والنووي في الأذكار (١٢٠)، وابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٦٠/٢) في المقدمة، وصححه الألباني في قيام رمضان (٢٣)، وفي تخريج المشكاة (١٢٢٧).

(٣) المصدر السابق.

[آل عمران: ٢٦]، ولكن جاء هذا الاسم العظيم مطلقاً في السنة، في قوله ﷺ: «لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ» (١).

المليك: ورد في النص مطلقاً في قوله عز ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ (٥٥) [القمر].

وهو من الأسماء التي اتفق عليها جماهير العلماء الذين اعتنوا بجمع الأسماء الحسنی، منهم:

ابن العربي، القرطبي، ابن القيم، ابن الوزير، ابن حجر، ابن عثيمين، وغيرهم (٢).

□ المَلِكُ لغَةً:

الملك: هو الله تعالى وتقدس، مَلِكُ الملوك له الملك، وهو مالك يوم الدين، وهو مَلِكُ الخلق، أي: ربهم ومالكهم، وفي التنزيل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾... وكل من يملك فهو مالك، لأنه بتأويل الفعل مالك الدراهم، ومالك الثوب.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: يملك إقامة يوم الدين، ومنه قوله تعالى: ﴿مَلِكِ أَلْمَلِكِ﴾، قال: وأما ملك الناس، وسيد الناس، ورب الناس، فإنه أراد أفضل هؤلاء، ولم يرد أنه يملك هؤلاء وقد قال تعالى: ﴿مَلِكِ أَلْمَلِكِ﴾ ألا ترى أنه جعل مالكا لكل شيء، فهذا يدل على الفعل.

المُلْكُ: معروف، وهو يذكّر ويؤنث، كالسلطان، ومُلْكُ الله تعالى

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

(٢) راجع - إن شئت - جمع الأسماء الحسنی لجمع من العلماء الذي اعتنوا بجمعها أول الكتاب.

وملكوته: سلطانه وعظمته.

وجمع المَلِك: ملوك، وجمع المُلْك: أملاك، وجمع المَلِك: ملكان، وجمع الهالك: مُلْك ومَلَّاك...^(١).

وسُمي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأن هذا اليوم ليس فيه أحساب، ولا أنساب، ولا أموال؛ بل المالك والمتصرف في هذا اليوم هو رب العزة، وهذا من فضله علينا؛ فهو أرحم بنا من أمهاتنا، وهو الحكم العدل الذي لا يُهضم عنده الإحسان، ولا تضيع عنده الودائع، ولا المعروف، تعالى ربنا الكريم الرحيم.

□ المعنى في حق الله تبارك وتعالى:

اسم الملك يجمع المالك والملِك والملِك^(٢).
عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَغِيْظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبِيْهُ وَأَغِيْظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكًا الْأَمْلاَكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).
لماذا الذي يتسمى بهذا الاسم يكون من أخبث الناس وأوضع وأذل وأصغر حالٍ يوم القيامة؟ لأنه تسمى باسم من أخص أسماء الرب تبارك وتعالى، فلا يملك الملك والملوك ولا يتصرف فيهم إلا الله، فالكبرياء والعظمة، والملِك المطلق لله وحده.

وفي الحديث القدسي الشريف: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي

(١) لسان العرب (٨/ ٣٦٢) مادة (ملك).

(٢) اللسان (٨/ ٢٦٢) مادة (مَلَك).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ... إِلَى قَوْلِهِ وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: جَعَدَنِي عَبْدِي»^(١).

ومعلوم أن هذا يُستشعر بالقلب لا بسماع الإدراك، لكنه صدق وحق، فمن أصدق من الله قِيلاً! وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي، وَأَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ»^(٢).

وهذا الدعاء الجامع المانع، ورد فيه أن الرب تبارك وتعالى، هو رب كل شيء ومليكه.

أيهما أبلغ المالك أم المالك؟

قيل: إن المالك أبلغ؛ لأن القدرة الكاملة التي تشمل جميع الأشياء - والتي لا تكون إلا لله - تتجلى من خلال هذا الاسم، فقد يكون المالك مالكا لملكه لكن لا يملك غيره، كمن يملك سيارة لكن لا يملك جميع السيارات، ومن يملك بيتا لكن لا يملك مدينة وهكذا...

وقيل: إن المالك أبلغ؛ لظهور القدرة التامة على التصرف في الشيء من خلاله، فقد يملك المرء شيئا لكنه لا يستطيع التصرف فيه، أما إن قلنا إنه

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٨/ ١٨٥)، وأبو داود (٥٠٥٨)، وصحيح ابن حبان (٥٥٣٨)، وصحح إسناده النووي في الأذكار (١٢٦)، وحسن إسناده الحافظ في تخريج مشكاة المصابيح (٢/ ٤٧٨)، وقال الوادعي في الصحيح المسند (٧٣٨): صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح موارد الظمان (٢٠٠٢).

مالكه فهو يملكه ويملك التصرف فيه.

أما المليك: فهذا أبلغ منهما بلا نزاع بين العلماء.

ومالك المُلْك: هو الغاية في المبالغة لاشتماله عليهم جميعًا.

والملكوت: كالرغبوت في الرغبة والرحموت في الرحمة، والرهبوت في

الرغبة، وهي بلاغة فوق بلاغة.

يقول الله: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، وذلك

للمبالغة في الملك.

وعن بعض المحققين: الملك الحق، هو الغني مطلقًا في ذاته، وصفاته

عن كل ما سواه، ومحتاج إليه كل ما سواه في ذاته، وفي صفاته، إما بواسطة

أو بغير واسطة^(١).

فالاحتياج إلى معرفة شرع الله يحتاج إلى واسطة، فالدين وصل إلينا عن

طريق نبينا الذي تلقاه بالوحي.

والاحتياج إلى الله أي الوصول إلى الله بغير واسطة، وهو سؤاله ودعاؤه

وعبادته وحده لا شريك له، فليس بين العبد وبين ربه واسطة، والله الحمد والمنة.

الكل فقير إلى مالك الملك...

كيف لهذا الكون الفسيح أن يقوم ويبقى بلا ملك! هذا محال، فالسما

مرفوعة بأمر الملك، والأرض مستقرة بأمر الملك، والجبال تسير بأمره،

والأنهار تجري بأمره، لا شيء يصير في ملكه إلا بأمره، ولا شيء يقوى على

البقاء والقيام فيه إلا بأمره، فهو وحده القيوم والمتصرف في هذا الملك

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنی للبيضاوي (ص: ١٨٦).

العظيم، وهذا معلوم لكل لبيب، فمن يدعي غير ذلك فقد كذب بل وقد رسم لنفسه صورة المجنون في أعين ذوي العقول.

فإن كان الأمر كذلك، ولا تقوى السماوات السبع والأرضون السبع أن يقمن بلا ملك قيوم، فكيف بالعبد الفقير الذليل الذي قد تصرعه بعوضة، وتؤرق نومه نملة!! حتى وإن زاد ماله وتعاضم ملكه!! فلا تغتر بالزوال، ولا تنظر لدنيا فتحت عليك، فأنت لست في غنى عن رب الأرباب وملك الأملاك.

فيك مملكة وسلطان وخصومات، فتأمل!...

قلب المرء كالمملكة، وسلطانه هو العقل، وخصم هذا السلطان هي النفس، وقد ذكرت النفس في القرآن على ثلاث مراتب:
النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.

والحرب بينهم سجال، فانتبه....

والخصومة بين النفس الأمارة بالسوء واللوامة قائمة، فالنفس اللوامة تحث على العفة، والنفس الأمارة بالسوء تحث على الفجور، والوزير في هذه الخصومة هو العقل، ووزير النفس هو الجهل الذي يمدّها بالعجلة، قال تعالى في شأن الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) [الأحزاب]، وقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١) [الإسراء]، فإن كان العقل عقلاً راجحاً رزيناً؛ فاز وربح، وإن كان عقلاً ضعيفاً فيه خفة ضاع وخسر، وليس بينهما وسط، إما عقل يقود النفس للنجاة، وإما عقل يستزلها للهلاك.

أما العجلة فهي التي تنشأ من الجهل فتدفع المرء لعدم الصبر على المشقة الحالية - كالصبر على الطاعة أو الصبر عن المعصية أو الصبر على أقدار الله - ومن ثم يفقد المرء الثمرة المؤجلة.

والحرب بين الفريقين سجال، تارة يغلب الخير الكامن في العبد، وتارة يغلب الشر الكامن فيه، وربما انقلب الغالب مغلوباً في لحظة، وهذا معلوم ومشاهد، فقد يكون الرجل هادئ الطبع حسن السمات والخلق، فينقلب فجأة لعصبي المزاج سيئ الأخلاق، بل وقد يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، والعكس كما أخبرنا النبي ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا، كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

والاستعانة هي ملاذ الإنسان وسط كل الأعداء...

لا جرم أن الإنسان لا يستغني في طول عمره عن الاستعانة بهداية الله ﷻ، ولهذا قال الخليل -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣]، والكليم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^(٣) [طه]، ولا شك أن من عرف الأحوال وخشي الوقوع في مهاوي هذه الأهوال، تخلص من مساكنة الأشرار، وانفرد لمالك النفوس والأرواح^(٢)، وقطع رجاءه عن الخلائق، وسلم من الآفات والعلائق^(٣).

وكل ما قلناه ما هو إلا تذكير لك بالاستعانة بملك الملوك جل وعلا،

(١) أخرجه مسلم (١١٨) وغيره.

(٢) النفس والروح شيء واحد بالنسبة للإنسان، والموت يكون بمفارقة الروح للجسد، وموت النفوس هو بمفارقتها للأجساد. انظر شرح المسألة في مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨٣/٤)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٨٥-٣٩٥) أما لفظ الروح فيطلق على عدة أشياء، انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص ٤١-٤٦).

(٣) شرح الأسماء الحسنى (ص ١٨٧) بتصرف يسير وزيادة.

فأعداؤك في الباطن وفي الظاهر لن تقوى على مقاومتهم إلا بتلك الاستعانة؛ لأن ربك وحده هو ملك تلك النفوس والأرواح، ولن تقوى أيضًا على تخطي العوائق التي تقف بينك وبين السير لربك إلا بالاستعانة، وقد أمرنا الله تعالى بقراءة الفاتحة بما تحويه من أمر بالاستعانة على الأقل سبع عشرة مرة يوميًا -وهي عدد ركعات الصلوات المفروضة-؛ وذلك لشدة احتياجنا للاستعانة بالملك، لأنه لا متصرف فينا وفي أرواحنا وعقولنا إلا الله؛ فالعبد لا يكون عبدًا إلا إذا استعان بربه وتذلل إليه في كل شئونه.

معاهد الملك خمسة....

المعقد: هو موضع العقد من الحبل وجمعه معاهد^(١).

١- المعقد الأول: إبقاء الملك ونزعه؛

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون]، ويدخل في ذلك ملك الدين وملك الدنيا، فالذي يجعل أقوامًا يرتقون في مدارج الكمال بالإيمان وتنشرح صدورهم لفعل الأوامر واجتناب النواهي هو الملك الحق، والذي يصدّهم عن سبيل الهدى لفساد قلوبهم وسوء سريرتهم هو الملك أيضًا، قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

(١) اللسان (٦/ ٣٥٤).

أَلْفَسِقِينَ ﴿٢٦﴾ [البقرة]، قد تكرر في القرآن في أكثر من آية نفي الظلم -دقه وجله- عن الله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف].
أما مُلْك الدنيا، ففي قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، أي: فاوت بين الناس في القوة والعافية، وفي الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة البالغة في ذلك كله^(١).

٢-المعقد الثاني: ملك الإعزاز والإذلال:

ويتمثل في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران] «فصدر الآية سبحانه بتفرد بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول تفرد بالملك، والثاني تفرد بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير وإن كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب

(١) ملتقط من تفسير ابن كثير (٦/٢١٣) بتصرف وزيادة -ط، دار ابن رجب.

ويثنى عليه به كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثنى على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ»^(١) فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شرًّا كما سيأتي بيانه وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلق وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، كما تقدم فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله فإذا وضع في محله لم يكن شرًّا، فعلم أن الشر ليس إليه وأسماءه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر، فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب»^(٢).

قصة وائل بن حجر الحضرمي:

سليل ملوك اليمن، قدم على رسول الله ﷺ، وقد قال لأصحابه قبل وصول وائل: «يَأْتِيَكُم بِقِيَّةُ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ» فلما أتى وائل رحب به النبي ﷺ، وأدناه ثم أعطاه أرضاً نظير ما ترك خلفه من المُلْك والزعامة، وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان ليدله على الأرض، وكان معاوية وقتها من شدة فقره لا يتتعل حذاء! فقال معاوية لوائل: أردفني على الناقة خلفك!! فقال وائل: ليس

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) باب: صلاة النبي ﷺ ودعاؤه بالليل.

(٢) شفاء العليل (ص: ١٧٨-١٧٩).

شَحًّا بالناقة ولكنك لست رديف الملوكة!! فقال معاوية: إذن أعطني نعلك! فقال له وائل: ليس شَحًّا بالنعل، ولكنك لست ممن يتعل أحذية الملوكة! ولكن امش في ظل الناقة!! ثم أخذ الزمن يدور، وآلت الخلافة إلى معاوية، وجاء وائل إلى الشام وقد جاوز الثمانين، ودخل على معاوية، وكان جالساً على كرسي الملك، فنزل وأجلس وائلاً مكانه، ثم ذكره بالذي كان بينهما فيما مضى، وأمر له بمالٍ، فقال وائل: أعطه من هو أحق به مني، ولكنني وددتُ بعد ما رأيت من حلمك لو رجع بنا الزمان لأحملك يومها بين يدي^(١).

٢- المعقد الثالث: ملك تقليب الليل والنهار:

قد لا يلتفت كثير إلى هذا المعقد، والذي يظهر في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧]، والولوج بمعنى الإدخال، وقال سبحانه: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [٦٢] [الفرقان]. وقال: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [٤٤] [النور].

جعل الله النهار للسعي والمعاش والعمل، وجعل الليل للسكون وراحة البدن، وللسهر ليلاً والنوم نهاراً أضرار عقلية ونفسية وجسمانية أثبتتها الأبحاث الطبية الحديثة، وجزموا أن هرمونات هامة في الجسم تعمل نهاراً لا ليلاً، وبسبب هذا الخلل في نظام النوم أصبح مزاجنا عصبيّاً، وضعف تركيزنا،

(١) انظر البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ٣٣٠-٣٣١) ط. هجر.

لكننا لسنا في حاجة لأبحاث أو إثباتات كي نصدق القرآن أو ننقاد لأمر الله ﷻ، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبا]، فبلا شك، هذا هو الأصلح والأنفع للإنسان، أثبتته العلم أم لم يثبتته.

٤- المعقد الرابع: ملك الإحياء والإماتة:

وبالطبع هذا أيضًا لا يكون إلا للرب، فلو اجتمعت قوى الأرض كلها لإحياء ميتٍ، أو خلق ذبابة ما استطاعوا، ولو اجتمعت كذلك لإماتة إنسان لم يقدر الله له الموت ما استطاعوا أبدًا، يقول سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۝﴾ [الروم: ١٩]، ومن ذلك أحوال النباتات، فيحيي سبحانه الأرض بعد موتها، فنعلم من ذلك عظمة الله وقدرته وملكه، فلا داعي للغرور والكبر بالتطور والتكنولوجيا الحديثة، فوالله لا يفر من المرض عبقرى، ولا يختبئ من الموت قوى غني، ولا يدفع الهرم عن نفسه المخترع الذكي.

٥- المعقد الخامس: ملك الرزق:

قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ [آل عمران]، «أي: تعطي من شئت من المال ما لا يعده، ولا يقدر على إحصائه، وتقدر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشیئة والعدل»^(١).

فالله تعالى يرزق عباده جميعًا، القوي منه والضعيف، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ «أي: يعطيه عطاءً واسعًا جدًا متصلًا، من غير تضيق، ولا عسر، كما فعل بأول هذه الأمة على ما كانوا فيه من القلة والضعف، حيث أباد بهم الأكاسرة

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠).

والقياصرة، وأتاهم كنوزهم، وأخدمهم أبناءهم، وأحلهم ديارهم»^(١).

□ الآثار المترتبة على معرفة أسماء الله الملك والمالك والملِك:

الأثر الأول: ترك منازعة الله تعالى في ربوبيته:

خصائص الربوبية: هي إفراد الله تعالى بالخلق والمُلْك والتدبير. فلا خالق ولا مالك ولا متصرف سواه، ولا مدبر لأمرنا وأمور الكون كله إلا الله، وإن وجد العاقل في نفسه شيئاً من حب المنازعة في شيء من ذلك فعليه أن يعلم أن نفسه الأمانة كالصنم تحب الطواف حولها، لكنها بذلك تقوده للهلاك في الدنيا والآخرة، فلينبه ويرغمها على الانقياد لرب الأرض والسموات، والإيمان بأنه وحده الخالق المالك والمدبر لهذا الكون، ففي ذلك النجاة.

إذاً: فكيف نتغلب على صولة النفس؟

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ ^(٦) **﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾** ^(٧) [العلق]، قد يكون طغيان النفس في الإنسان الغني، وقد يكون كذلك في الفقير، ومن آثار ذلك الطغيان الكبر، والعجب، ورؤية النفس، وحب الظهور، واحتقار الآخرين، فيتعالى ويطغى ولا يتحمل كلمة نقد أو عبارة تقويم ونصح، ولا يُعالج هذا الخلل المهلك بمثل الانكسار بين يدي الله ومعرفة قدر النفس ومعرفة أفتاتها، وقدر من خلقها؛ تلك المعرفة التي تبين مدى ضلالة قدرة المخلوق وحقارة ملكه، وعظم قدرة الخالق وكبير سلطانه.

(١) ملتقط من نظم الدرر (٤ / ٣٢١).

الله يتصرف في ملكه بأمره وعلمه الكامل بينما يتصرف ملوك

الدنيا بأمرهم وعلمهم القاصر:

الملك الحق يتصرف في ملكه بعلمه وأمره، فيعلم المعصية وينهى عنها، ويعلم الطاعة ويأمر بها، فصاحب العلم الكامل سبحانه لا يخطئ ولا ينسى، تبارك وتعالى الملك الحق، يأمر في ملكه بتمام علمه، وواسع حكمته.. أما ملوك الدنيا فيأمرون بعلمهم القاصر، فيصيبون ويخطئون. فحين يعلم العبد أن القلب، والعقل، والعلم، والسلطان، والمال، والجمال كل ذلك بيد الملك جل ثناؤه، وأنه لا يملك تحريك إصبع من أصابعه إلا بإرادة الملك، بل ولا يملك التفكير فيما لا يريد الله له التفكير فيه، ويعلم أن قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»^(١)، فإذا ثبت ذلك في النفس، ذهب الخوف -من غير الله- من القلب، وبهذا ياطر قلبه على الحق أطراً؛ فينصلح حاله وتنكسر نفسه وصولتها ويعبدها لربها وحده.

ولعلمنا أن الأمر أمره والملك ملكه ولا إله غيره، لا يتصرف في هذا العالم وغيره من العوالم، وفي هذه القلوب والنواصي والأقدار إلا هو سبحانه، احفظوا ذلك في صدوركم واعلموه علم اليقين، فإن علمتموه توكلتم عليه حق توكله فلم تخافوا في الله لومة لائم، إن علمتموه ستعلمون أن ما ملككم الله إياه في الدنيا هو في الأصل ملك له وحده ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴿٥٣﴾ [النحل: ٥٣]، فلا يزيدكم عطاؤه إلا إقبالاً عليه جل وعلا.

دروس وعبر:

في أحوال السابقين الأولين دروس وعبر كثيرة نقتطف بعضها من موقفين في غزوتين من غزوات النبي ﷺ.

الدرس الأول: من غزوة بدر، وقد انقطعت بالمسلمين السبل؛ فلا عدة ولا عتاد ولا عدد ولا خبرة، يواجهون فيها جيشاً مجهزاً كافراً فاجراً، قد ملأ قلوب جنوده الغل والحقد على الإسلام والمسلمين، يدافعون فيها عن عقيدتهم، ومالهم، وهيبتهم وشرفهم بين العرب، فلما علم المسلمون حالهم وحال أعدائهم، ذلوا لربهم عظيم الذل، ودعوا دعاء الغريق وعلموا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ولا منجى من الهلاك إلا الفرار إليه وحده -العالم بحالهم وضعفهم وقلة حيلتهم-، حتى أن النبي ﷺ رفع يديه بالدعاء؛ حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وهو يقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»^(١) حتى أشفق عليه صاحبه الصديق ﷺ وقال: «كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ»^(٢)، فلما كان هذا حالهم وحال نبيهم ﷺ، وقد تحققت الذلة البشرية، وانكسرت الأنفس تمام الانكسار، وعرفوا جميعاً وأيقنوا بقدرة ملك الملوك، جاء النصر المبين، بل وأنزل الرب تبارك وتعالى ملائكة مقرين تنصرهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ [الأنفال]

أي متتابعين، وما العجب! فالرب جل جلاله على كل شيء قدير.
فإن زاد إيمانك، وعلوت ثم علوت وعلوت، أيدك الله بنصره في كل شيء،
وسخر لك جنودًا من عباده ينصرك بهم، وإن ضعفت أسباب النصر لديك.

أما الدرس الثاني: فكان درسًا قاسيًا جدًّا، وكان الوضع مختلفًا،
فالمسلمون كانت لهم اليد العليا؛ فهم وقتئذ ذوو قوة وعدة وعتاد والنصر
حليفهم، فقد فتحوا مكة، وهزم الله الأحزاب أمامهم وانتصروا على سائر
العرب، ولم يبق إلا الطوائف التي عاندت في حنين، فخالط العجب بعض
القلوب، فقال بعضهم: لن نهزم اليوم من قلة!!، وقد قال تعالى في ذلك:
﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، وما العجب!!
فهم بشر يصيبون ويخطئون -رغم محبة الله المعلومه لهم، ولا يشك في
هذا إلا جاهل معاند- ذلك لأن الله يربي من يحب، فلم يحب سبحانه أن
يخالط هذا المرض قلوبهم، ولا أن تجري كلمة لا ترضيه على ألسنتهم،
فرباهم بالابتلاء، فما كان منهم إلا أن تابوا ورجعوا وجاهدوا في سبيله حق
جهاده فظفروا بالنصر المؤزر منه وحده تبارك وتعالى.

وعلينا أن نتعلم من أخطاء من سبقونا، فلا نفرح بكثرة ما نملك، فيجب
أن تجعل لقلبك حراسًا، ولنفسك سياجًا، حتى إذا هاجمك مرض قلب
وجدت ما تدفع به عن نفسك ذاك العدو.

فمن ترك منازعة الله في ربوبيته بترك العجب والكبر وحب السيطرة
والتملك نصره الله، وسدد خطاه، وأمدّه بمدد من عنده.

الأثر الثاني: التحلي بخلق التواضع؛

الذي يعين الإنسان على التحلي بخلق التواضع أن يعلم أنه لا فضل له على الإطلاق فيما هو فيه من نعم ومزايا، وأن يعلم أيضًا أن ربه يبغض المتكبرين، وأن من تتكبر عليهم لهم قدر عند الرب العظيم، وأن الله يحب المتواضع ويرفعه؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١)، ومن الأسباب التي تعين على التواضع؛ أن يعلم العبد أن التواضع هو أمر الله ﷻ ووصيته لنبيه وخليله ﷺ.

قال جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢١٥)
[الشعراء]، وقال ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٢).

جهاد كبرياء النفس؛

قال بعض أهل العلم: الصراع بين النفس الأمارة بالسوء، وبين اللوامة لا يزال، ويبقى النزاع والدفاع ولا يزول الخصام واللطام بينهما إلا عند المدد والتوفيق الرباني، فإن جاء نسيم العناية والإعانة من مشرق الهداية استولى سلطان الروح على سلطان النفس وقهره وأباد جمعه وفرّق شمله وتخلّص له هذه المملكة، وإن جاءت ظلمات الخذلان من مغرب القهر والكبرياء والعياذ بالله استولى سلطان النفس على سلطان الروح وقهره وأخرجته من المملكة، وامتألت المملكة من رايات الشياطين

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وأعلام الأباطيل^(١).

والخذلان كل الخذلان أن يتكبر الإنسان ويطغى ويغوص في بحر ظلمات الجهل، فلن تجد بذلك إلا تيهًا في الدنيا، ومهلكة في الآخرة، ونذكر هنا -استطرادًا- المهلكات الأربعة التي ذكرها أهل العلم.

المهلكات الأربعة:

أنا، لي، نحن، وعندي هن مهلكات أربع، فانتبه....
أولها: أنا..

وكان مبدأ هلاك الشيطان المطرود من الجنة، المبعوض من رب العالمين، حين قال: «أنا»: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، [ص: ٧٦].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَوْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» قُلْتُ: أَنَا، قَالَ: فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا أَنَا»^(٢).

فتأمل كيف أنكر النبي ﷺ قوله: «أنا أنا»، فلماذا لا تقل اسمك؟! فإن طرقت على أخيك الباب، وسأل: من الطارق؟ فلا ترد بهذه الكلمة ولكن قل اسمك ليعرفك، فتكرار الكلمة يورث الأنا والكبر.

ويظهر هذا الخلق ظهورًا جليًا في من يتعجب من نعم الله على غيره، فيقول: كيف وصل فلان لهذا المنصب (وأنا) أفضل منه، كيف يحبه الناس (وأنا) أذكى منه وأظرف، كيف تزوج من هذه الفتاة الرائعة (وأنا) أحق بها

(١) انظر: لوامع البينات (ص ١٧٩) بتصرف يسير وزيادة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥).

منه، أنا وأنا وأنا، وكأنه صار ربًّا ليس كمثله شيء - عيادًا بالله - .

ثانيها: لي..

فقد أخبرنا الرب جل جلاله بخبر هلاك فرعون وقوله العجيب ومبرره الغريب لما أمر قومه بعبادته، فقال: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، سبحان الله! وهل هذا مبرر يتقبله ذو عقل! أم مبرر لا يقره إلا سفيه؟ وكانوا بالفعل سفهاء كسفيهم الأكبر - فرعون - فاتبعوه على ضلاله، وماتوا جميعًا على الكفر.

فمن يكرر: لي حسب كذا، ونسب كذا، ولي زوجة مركزها كذا، ولي خادم، ولي، ولي... كأنه هو من رزق نفسه، أو كأن الله رزقه ولم يرزق غيره.

ثالثها: نحن..

كمستشاري ملكة سبأ - عبدة الشمس - حين عرضت عليهم أمر رسالة سليمان عليه السلام، وكان الحمق قد أخذ من عقولهم مأخذًا؛ فقالوا: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣]، نحن أقوى، نحن أعظم، نحن ذوو الخبرة، فلم يروا إلا أنفسهم، ومن لا يرى إلا نفسه وعزته وقوته يهلك ولا بد.

رابعها: عندي..

كلمة قارون: إذ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، لما واجهه قومه بالتكبر والتباهي والتبخر، نصحوه، نسب الفضل الذي أفاض الله عليه به لنفسه، فقال: (عندي) فأنا المستحق، لذكائي وبراعتي، (عندي) فقد ورثته كابرًا عن كابر، (عندي) فأتكبر به كيفما بدا لي فهو (عندي) وملكي.

ونتيجة هذا القول أن خسف الله به وبداره الأرض.

وهذا موجز بالمهلكات الأربع، فلنحذر الاغترار، وعلينا أن ننسب الفضل كله لله، فقد خلقنا الله من تراب وإليه نعود.

الأثر الثالث: لا تكون حاجته إلا من الله:

إن تيقن المرء أن الله هو ملك الملك لن تكون حاجته إلا منه وحده، لن يتذلل لأحد، قد يطلب من الخلق ويأخذ بالأسباب ولكن بعزة نفس، وإن بسط له الملك الرزق، وفتح عليه الدنيا، جعلها في يديه لا في قلبه. والله الهادي إلى سواء السبيل.



اسم الله

القاهر والقهار

٣٢ - ٣١

القاهر والقهار

هما اسمان من أسماء الجلال، فجماهير العلماء، الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنی أثبتوا أنهما اسمان من أسماء الله سبحانه وتعالى^(١).

وجاء اسم القاهر في النص بصورة مقيدة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وورد كذلك اسم القهار في النص بصورة مطلقة في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] فجاء القاهر في النص مقيداً، وجاء القهار في النص بصورة الإطلاق.

هذان الاسمان وردا في عدة مواضع في القرآن منها:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].
وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

وأما القهار:

في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].
وقال جل ثناؤه: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].
إلى آخره من الآيات التي ذكر فيها اسم القاهر والقهار.

□ **معنى القاهر والقهار لغتياً:**

القَهَرُ: الغلبة والأخذ من فوق... والقَهَّار للمبالغة.

(١) راجع - إن شئت - جمع الأسماء الحسنی للعلماء الذين اعتنوا بجمعها أول الكتاب.

وقال ابن الأثير: القاهر: هو الغالب لجميع الخلق، وقَهْرُهُ يَقْهَرُهُ قَهْرًا: غلبه، ونقول: أَخَذْتُهُمْ قَهْرًا: أي من غير رضاهم، وأَقْهَرَ الرجل: صار أصحابه مقهورين، وأَقْهَرَ الرجل: وجده مقهورًا ^(١).

وقيل: الْقَهْرُ: الغلبة والتَّذْلِيلُ معًا، ويُستعمل في كل واحدٍ منهما، قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام]، ﴿فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف]، ﴿فَأَمَّا آلِيتِمَ فَلَا نَقْهَرَ﴾ [الضحى] أي: تُذَلِّل، وأَقْهَرَهُ: سلطَ عليه من يَقْهَرُهُ ^(٢).

فالقهر: الأخذ من فوق والغلبة والتذليل والتسليط والأخذ بغير رضا، والقهار صيغة مبالغة. فكل هذه معانٍ تجتمع في معنى القهر في اللغة، وليس في حق الله، فنحن نتكلم عن المعنى اللغوي.

□ **المعنى في حق الله تبارك وتعالى:**

قيل: هو الذي قهر الجبابرة، من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلهم بالموت ^(٣).

وقيل: والذي يقهر ولا يُقْهَر بحال ^(٤).

فالقهر له معانٍ كثيرة، ولكن أكثر شيء يقهر الخلق هو الموت، فمن من الخلق يستطيع أن يدفعه عن نفسه!

لو تأملنا قصص الجبارين والمستكبرين -كقصة ثمود وعاد وفرعون-

(١) لسان العرب (٧/٥٢٤) مادة (قهر)، والصحاح (ص: ٨٨٩).

(٢) المفردات (ص: ٤٥٧).

(٣) انظر: شأن الدعاء (ص ١١٨).

(٤) الأسماء والصفات (ص ١٠٤).

كما جاءت في كتاب الله تعالى، وكيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وذلك لما طغوا وبغوا وتعالوا وظنوا أنه لا قاهر لهم، فربنا جل ذكره يُعذر ويُندر ويُنظر ثم يأخذ الطغاة البغاة أخذًا أليماً، فهو القاهر فوق عباده.

واسم الجلالة «القهار» يدل على التوحيد، وعلى بطلان الشريك، فالقهار لا يكون إلا إلهًا واحدًا، لا كفء له، ولا سمي له، ولا صاحبة، ولا ولد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان^(١)

وقال: فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذ لو كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهارًا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤًا، وكان القهار واحدًا^(٢).

وقال أيضًا: ومما يمنع تسمية الإنسان به: أسماء الرب تبارك وتعالى، فلا يجوز التسمية بالأحد، والصمد، ولا بالخالق، ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالى، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر، والأول والآخر، والباطن وعلام الغيوب^(٣)،^(٤).

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص ٢٤٦).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (٣/ ١٠١٨).

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص ١٠٨).

(٤) يشير إلى منع التسمية بأسماء الله المختصة به - انظر الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٣٨)، أو فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٩٠) وغيرهما.

وتجوز التسمية بأسماء الله التي تطلق عليه وعلى غيره، وقد دلت نصوص القرآن والسنة على ذلك - انظر: أسنى المطالب شرح روض الطالب لتركيا الأنصاري الشافعي (٤/ ٢٤٣)، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ١٠٧-١١٢)، العقيدة التدمرية (ص: ٢١) وما بعدها.

القصص في القرآن ليست للتسلية وإنما هي للعبرة:

تأمل قصة فرعون: لما تجرأ فرعون على خالقه ومولاه وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَعْلَى﴾ ﴿٢٤﴾ [النازعات]، فأراد بذلك أن يُعبد من دون الله فينازعه سبحانه في
ربوبيته، فادّعى ظلمًا وزورًا أنه الرب الأعلى، وأراد بذلك استعباد الخلق، وأن
يوقروه ويعظموه ويعبدوه من دون الله، فأغرقه الله تعالى هو وجنوده، وأذله
غاية الإذلال، فاستغاث فلم يغث حتى قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ف قيل له ﴿ءَأَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [يونس]، ثم نجى بدنه الذي لا قيمة له
ليكون لمن خلفه آية، أهذا الذي كان يقول: أنا ربكم الأعلى، وتعالى وتجبر
وقهر العباد وأذلهم وأراد أن يُنازع الله جلّ في علاه في ربوبيته، فكان هذا حاله
وكذلك حال كل عُتُو مستكبر يريد أن يعلو على خلق الله ظلمًا وطغيانًا.

الله سبحانه وتعالى لا تنفك عنه صفاته:

حتى مع الجبارة والمتكبرين لا تنفك عنه صفاته أبدًا، فهو الرحمن،
الغفور، والحليم فأمهل فرعون وأعذره وأنذره، وأرسل له موسى ومعه أخاه
هارون حتى يردوه عن عناده وكبره فأبى إلا الكفر، فأخذ الله بذنبه، فالحليم
سبحانه لم يأخذه ابتداءً، بل أرسل إليه رسولاً من أولي العزم؛ موسى عليه السلام،
كليم الله ومعه هارون ولم يأخذه بغتة، حتى لا نظن أن صفة القهر تكون ابتداءً
مع العباد، بل هي بعد الرحمة والعفو والمغفرة والحلم والإمهال والإعذار.

وقيل في القاهرة: أنه يقترب من معنى العزيز والجبار، ويدل صريحًا على حمل

مخلوقاته على مراده طوعاً وكرهاً فيما يريد وقوعه هذه خاصة اسم القهار^(١).

وقيل القهر: غلبة الذوات وصرفها إلى حكم القهار ومشيتته فيها، كما أنها خاصة باسم القدير في تقدير المقدورات، أي أنها صفة تُبين أن الله يفعل في ملكه ما يشاء ويقهر من يشاء، ويذل من يشاء ويعز من يشاء فهو القهار: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

قيل معنى القهار:

أنه قهار لأهل السموات بالتسخير، ولأهل الأرض بالتعبد والتذليل، الذي يقصم ظهور الجبابرة، ويذل رقاب الأكاسرة، ويقطع الآمال بالحافرة. ويتمنى المرء أن يولد له، فلا يولد له، وأن لا يشيب فيشيب، ويريد أن يُعز فيذل، وأن يستغني فيفتقر بقهر من الله، وغلبة تصده عن مراده، وتصرفه عن آماله^(٢).

فكل من في السموات مُسخر، يعبد الله سبحانه وتعالى ولا ينفك عن عبادته، فالملائكة تعبد الله عبادة تسخير فلا يستطيعون عصيانه، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم]، وليس لهم شهوة ولا رغبة مسخرون لعبادة ربهم.

قهار لأهل الأرض بالتعبد والتذليل، ليس لأحد القدرة على الخروج عن أمره الكوني، لأنه القاهر فوق عباده، والقادر أن يقطع آمالهم عن الدنيا، فأين يذهبون؟ فلتأمل أحوالهم ومآلهم، وصلوا إلى تراب ووحدت تحت الأرض في ظلمة اللحد، يأكل أجسادهم الدود، فأين القصور والأموال

(١) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٢١٢).

(٢) ملتقط من الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٢١٥)، بتصرف وزيادة.

والنفوذ؟! قهرهم القهار وأذلهم بالموت، فأصبحوا تحت التراب بعدما كانوا في قصور مشيدة يملؤها الاستعلاء والجبروت.

وقد يكون الإنسان كامل القوة ويقهره القهار، بألا يُولد له الولد، بالرغم من سعيه الحثيث، وبذله الغالي والنفيس، وما يملكه من أموال وسلطة وجاه، لكن لا يستطيع الإنجاب، قهره القهار مع توافر سعيه وقوته. والقهار يقهر العبد بالمشيب ليعلم أنه مغادرٌ وتاركٌ هذه الدار، فما من إنسان إلا ويتمنى ألا يشيب، ولو لاحت له فرصة أن يعود لشبابه لسعى فيها وجدّ، ولو بلغ من العمر الستين والسبعين، ولو دلوه على أدوية وعلاجات لإخفاء آثار المشيب لأخذها آملاً أن يعود كما كان وألا تظهر عليه تلك العلامات، لكن القهار يقهر العبد بها، ليعلم أنه أوشك على الرحيل.

ويريد أن يكون عزيزاً، عالياً، صاحب هبةٍ ومكانة، ليستكبر على هذا ويحتقر ذاك، فيُسلط عليه من يُذله بحكمة وليس بظلم، فكم من إنسان أراد لنفسه العزة فأذله الله؟!

والأمثلة في حياتنا كثيرة، فهذا دفع الرشاوى ليكون في منصبٍ مرموق، فعامله الله بنقيض قصده فأصبح أذل الناس، وهذا توسط لولده الذي لا كفاءة له ولا مقدرة ليمتحن مهنة في مجال فيه من الهيبة والاحترام ما فيه، فيعلو ويتعالى ويتكبر ويقهر عباد الله، فيدخل في المجال ليرى من هم أكثر منه خبرة فيه، فيذله الله على أيدي من هم أقل منه منزلة ومكانة، أقل منه في المال والجاه، فسبحان الله يُذل بنفس العمل الذي أراد أن يذل به الخلق.

يريد الغنى فيفتقر بقهر من الله وغلبة تصده عن مراده وتصرفه عن

آماله:

فكم من مريدٍ للغنى ساعياً خلفه محباً للعزة بالأموال!! قد يسعى الأبوان ويخططان لدخول ابنيهما كلية ومجالاً معيناً ليرتقي ويعلو ويكسب الأموال ويستغني عن الخلق، فيصرف الله قلب الولد عن استذكار دروسه فلا ينجح، أو لا يتفوق ويكون مآله إلى فقر، لا جاء له ولا مال، فصار إلى ذلك بقهر من الله، وغلبة تصده عن مراده وتصرفه عن آماله، وهو الذي أراد الاستغناء.

وذلك كله من آيات كمال القهر والغلبة لله، ونقص المقهور والمغلوب، فكل ذلك يُظهر عظمة الله وجلاله وجبروته، فلا يتصور الإنسان نفسه قاهراً لخلق الله، فالقهار هو الله، فمهما علا كعبه وارتفع اسمه، فليعلم أن الله قادر أن يقهره بالمرض، أو بالفقر، أو بفقد الولد، أو بالقهر الأعظم، وهو الموت، فأين نحن من القهار؟ لا شيء، فلا بد أن نتعلم ونتبه لتلك المعاني حتى نعلم من نعبد ومن نسأل، ونعلم على من نتجبر ونتكبر.

يتضمن هذا الاسم أيضاً صفة العزة التي هي الغلبة، ويتضمن شيئاً خطيراً جداً، ألا وهو ما لا يريد الله ﷻ وقوعه لا يقع، فلو الدنيا كلها أرادت أن يقع شيء بعينه والقهار لم يرد، فلن يقع أبداً، وقد يحب الله سبحانه وتعالى من العباد شيئاً، ولا يقدر وقوعه.

بمعنى أن الله تعالى يحب أن يكون العباد طائعين متذللين، فأبى أكثرهم إلا الكفر، لأنه تعالى جعل لهم مشيئة واختياراً يختارون طريق الهدى أو الضلال. فأراد منهم عبودية الاختيار لا الاضطرار، فلم يجبر أحداً على طاعة أو معصية،

ثم يجازيهم يوم القيامة بما عملوا، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئته وعلمه وحكمته، قال جلّ ذكره: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء)، ففي الآية، يخاطب الله تعالى النبي ﷺ، ويسليه في محنته وشدته، فكاد يهلك نفسه ﷺ؛ حتى يهتدي الناس لخوفه عليهم من العذاب، والوقوف بين يدي الله، فعذابه سبحانه شديد لا يحتمله أحد.

فقال سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء) يخبر الله ﷻ نبيه أنه لو شئنا أن نجعل الكون كله يخضع، فتخضع رقابهم وتذل بالعبادة والطاعة فلا يعجزني شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس).

تخصيص قهره بالفوقية:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وذكرنا أن من معاني القهر لغة: الأخذ من فوق، ففي تقييد القهر بالفوقية دلالة غاية في الأهمية، وفيه إشارة إلى جهة لا يمكن دفع ما يأتي منها من العذاب؛ لأن من يأتي عن يميني أو يسرى غالباً تمكن الحيلة فيه، أما ما يأتي من جهة فوق أو تحت لا يمكن أن يكون لك فيه حيلة ولا تعاطيها^(١).

فبين أن القهر إذا جاء من فوق ما استطعت رده، فما دونه من بقية الجهات أولى وأيسر، فإذا علم العبد هذا، انكسر وعلم أن القهار على الحقيقة هو الله رب العالمين.

(١) ملتقط من الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/٢١٦) بتصرف.

ولذلك يروى في الصحيح عن عمرو قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام] قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ، أَوْ أَيْسَرُ»^(١).

فاستعاذ ﷺ بوجه الله ﷻ خشية أن يُبعث العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يردّه.

والمراد من ﴿يَلْسِكُمْ شِيعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] أي يجعلكم متفرقين مختلفي الأهواء كالخلاف والعراك بين المسلمين، ويذيقهم شدة بعضهم البعض، فقال النبي ﷺ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ، أَوْ أَيْسَرُ»: وإن كانت مصيبة ولكن عذاب الله من فوق لا قبل لنا به، فالنبي ﷺ خاف وتعوذ بربه؛ لأنه يعلم أنه القاهر، فلو أنزل علينا عذابًا من فوقنا لبادت البلاد ولهلك العباد.

وجوه القهر:

ومن وجوه قهره سبحانه: أن أصغر كوكب في الفلك أضعاف

جرم الأرض:

فكوكب الأرض مجرد جرم، فالكرة الأرضية بجوارها عدة كواكب، فكثيرٌ من تلك الكواكب، التي تدور في الفلك أضعاف أضعاف الكرة الأرضية في الحجم، فالكرة الأرضية التي عليها أكثر من سبعة مليار يتقاتلون ويتشاحنون، فهذا يريد مُلكًا وهذا يظن الخلد، يظن نفسه ملكًا

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨-٧٣١٣-٧٤٠٦).

جباراً، فما نسبته للمكان الذي هو فيه ونسبته للحى الذي يعيش فيه، ونسبته لبلده؟! وما نسبته للقارة التي فيها بلده؟! لا شيء.. والأرض كلها وما فيها بالنسبة لكثير من الأجرام السماوية لا شيء، فتلك الأفلاك وما فيها يُمسكها الله القوي العزيز بقدرته وقوته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]،

فالأرض بكل ما فيها هي كوكب صغير، وجميع الكواكب التي معها مع حجمها وضخامتها، والشمس وما فيها من مادة الإحراق، والقمر وتأثيره على حركة المد والجزر من الممكن أن يتسبب في فيضان أو جفاف، فكل هذه الكواكب وما فيها من العظمة كما يبدو، يقهرها الله تعالى، فتسير في الفلك على مراده ومقتضى حكمته، فلا تقترب الشمس من الأرض فتحرقها، ولا تبتعد فتتجمد الأرض ومن فيها، ولا يُسلط علينا القمر بحركة الجزر فتجف البحار، ولا يُسلطه علينا بحركة المد، فتغرق البلاد، فالكل ممسوك بالقدر، فهو القهار، قهر الشمس بقوته، وقهر القمر، وقهر الفلك، وقهر العباد وقهر الكون كله.

فإذا علم الإنسان ذلك تأدب مع ربه، وعلم قدر نفسه ولم يتعد حدوده، وعلم أنه عبد، ومن الأهمية بمكان استعمال هذا اللفظ (عبد) وقد ذكره رسول الله ﷺ في الأحاديث القدسية، والنبوية الشريفة، وبالرغم من جواز استعمال الألفاظ الأخرى كإنسان، شخص، مسلم، وغيرها، لكن نريد أن يرسخ هذا المعنى لدينا، ونتقبله بعقولنا، ونشره قلوبنا فنذعن إلى أمر رب العالمين، فنحن عبيده بنو عبيده.

وقيل: إنه يمزج بين العناصر الأربعة بين الماء والهواء والتراب والنار:

وهذه العناصر متنافرة بطباعها التي خلقها الله، فيكون امتزاجها بقهر القهار، فالنار والتراب كيف يجتمعان؟! وكذلك الماء والهواء كيف يجتمعان؟ فلو أتينا بكوب فيه هواء ثم وضعت فيه ماء ماذا يحدث؟ ستدخل الماء وتطرد الهواء، ولو سكبنا الماء بقي الهواء فكيف يجتمعان؟ القهار جعل الهواء في كل مكان فتتنفس الهواء وكذلك الماء موجود في البحر والنهر وغيرهما.

فهذه منظومة تسير بطريقة تحтар العقول في كیفیتها، ونقول لكل ملحد، ومن ينكر وجود الله: أين عقلك وأين أنت من هذه المعاني؟!

وقيل: «إنه قهار للطباع المتضادة عند امتزاجها وقهار للأرواح اللطيفة في الأجسام الكثيفة، وقهار للعقول عن الوصول إلى كنه صمديته، والأبصار عن الإحاطة بأنوار عزته، وقهار للخلق في مشيئته قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]»^(١).

قهار للطباع المتضادة عند امتزاجها:

قهر الطباع المتضادة فقد يكون الإنسان خيراً، وقد يمازج هذا الخير شراً، وقد يكون بداخله إيمان ونفاق، وحنان ورحمة وجبروت، فتجد إنساناً أحياناً لطيفاً وحنوناً، وفجأة تجده أسداً، فتجد في داخله عزة واستكباراً مع تواضع ولين، وخفض جناح للمسلمين، ففيه طباع مختلفة تتصارع داخل هذا الجسد، والله يقهر هذا ويقهر هذا ويجعل الجسد والقلب يحملان

(١) شرح الأسماء الحسنى للبيضاوي (ص ٢١٢) باختصار وتصرف.

الاثنين معاً حتى يجاهد العبد ويتنصر على نفسه، إما إلى خير وإما تنتصر عليه نفسه فإلى شر، فجمع الطباع المختلفة سبحانه وتعالى، فنتبه لهذا الكلام لأنه غاية في الأهمية لزيادة الإيمان.

وقهار للأرواح اللطيفة في الأجسام الكثيفة:

قهر الأرواح اللطيفة في الأجسام الكثيفة فما الروح؟ لا أحد يعلمها قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ [الإسراء]، فلا أحد يعلم ماهية الروح، ولكنها تقبض، يقبضها ملك الموت، وترسل، يرسل الله روح النائم ليستيقظ من نومه، وهي في وسط جسد كثيف أي ثقيل فلك يد وعين، وجوارح تبطش، ولك عقل يفكر ورجل تمشي، فجوارح ثقيلة وجسد كثيف بداخله روح خفيفة لطيفة، فلا أحد يعلم ماهيتها، والله يقهر هذه الروح اللطيفة ويجعلها في الجسد الكثيف، فلا أحد يستطيع أن يطرد الآخر إلا أن يشاء الله، فهل أحد يستطيع أن يرد روحه إذا أخذها ملك الموت؟ فهذا من المحال، فستظل الروح اللطيفة بداخل الجسد الكثيف بالقدرة والقهر، فالذي قهر هذه الروح بوجودها في هذا الجسد هو الله.

وما أحسن قول من قال: «القهار الذي طاحت عند صولته صولة

المخلوقين، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين، قال تعالى ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر]، فأين الجبابة والأكاسرة عند ظهور هذا الخطاب؟! وأين الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون في هذا العتاب؟! وأين أهل الضلال والإلحاد، والتوحيد والإرشاد؟! وأين آدم

وذريته، وأين إبليس وشيعته؟! وكأنهم بادوا أو انقضوا، زهقت النفوس، وتبددت الأرواح وتلفت الأجسام، وتفرقت الأوصال، وبقي الموجود الذي لم يزل ولا يزال»^(١).

□ آثار معرفة العبد لهذين الاسمين:

الأثر الأول: لا بد أن نعلم أن الله تعالى هو القهار على الحقيقة؛ لأن

قهره عن كمال عدله وكمال حكمته:

خلاف المخلوقين فالله هو القهار على الحقيقة، فلا أحد يستطيع أن ينازع الله في هذه الصفة، وإن نازعها في الظاهر فمنازعة مزعومة لا تأثير لها، فليس له من الصفة إلا ما هو مذموم منها، فهي صفة كمال الله جل وعلا منفرد بها على الحقيقة، وإن كان الاسم يكون للعبد لكن ليس كقهر الرب، فهو القهار وحده، ولكن قهره عن حكمة وعن عدل فلا يأخذ أحداً بذنبه، إلا بعد إقامة الحجة عليه، ووصول دعوة الرسل إليه، فإن أبى إلا الإعراض والجبروت والعناد وعدم امتثال أوامر الله، سلط عليه أنواع العذاب.

وقد ذكرنا أن القهر هو الغلبة والتسليط والتذليل، فمن القهر أن يسلط عليه من صنوف العذاب ما لا قبل له بها، انظر كيف خسف بقارون وبداره الأرض، وكيف أرسل الريح الشديدة على ثمود فكانوا أعجاز نخل خاوية، وقلب أسفل ديار المؤتفكة قوم لوط فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وغير ذلك من أنواع العقوبات التي سلطها الله القهار على المجرمين المتكبرين في الأرض بغير الحق.

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى (ص ٢١٧).

قهر جميع المخلوقات بالموت؛

فلو اجتمعت السموات والأرض على أن يمنعه أحد من الموت ما استطاعوا، فلو أتيت بكل قوى السماء وقوى الأرض وجميع الأطباء لشخص يحتضر على فراش الموت فماذا يفعلون له؟ من المحال أن يردوا الموت عنه ساعة، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩) [يونس]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢) [الأنعام].

الأثر الثاني: معرفة اسم القهار من أعظم الأسباب التي تعين على

تحقيق العبودية؛

انظر إلى يوسف (عليه السلام) لما دخل السجن، وأراد أن يهدي صاحبيه الذين كانا معه في السجن إلى توحيد الواحد الأحد، وكانا يعبدان العزيز من دون الله، وكانا لا يعبدان الله فأراد أن يوجههما ويحببهما في رب العالمين، ويجعلهما يوحدان الله ويعبدانه، فماذا قال يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَ ۖ أَرْيَاكِ مُتَفَرِّقَتَيْنِ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢٩) [يوسف]، تكلم معهما ابتداء بخطاب الصلابة؛ حتى يرقق قلبهما، وكذلك إذا تكلم أحد مع أخيه أو زميل له في عمله بلفظ فيه رقة تجد قلبه يلين ويمكن أن يسمع ما يقول، فيوسف قال: ﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَ ۖ أَرْيَاكِ مُتَفَرِّقَتَيْنِ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢٩) فجعل الألوهية مرتبطة بالقهر فهناك ربط، فهل تعبد آلهة شتى لا تضر ولا تنفع، أم تعبد الواحد القهار،

الذي قهر كل شيء؟ نظيره: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٥٩] [النمل]، فمن أقوى الأسباب التي تُعين العبد على توحيد الألوهية وتوحيد العبادة أن يعلم اسم القهار ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

الأثر الثالث: معرفة أن المخلوق قهره ناقص:

فهناك مخلوق يقهر العباد يمكن أن يكون فيه هذه الصفة ولكنها في حق البشر صفة نقص، وهي لله صفة كمال، لماذا صفة كمال؟ لأن القهر خرج عن مقتضى حكمته ومشيئته وكمال عدله، فالقهر مع العدل قلما يجتمعان في البشر، فلا يجتمع القهر مع العدل إلا لله رب العالمين.

فالمخلوق قهره يخرج عن نقص وعن تشفٍّ وعن ظلم في الغالب، فانظر إلى فرعون لما أراد أن يُسخّر العبيد ويُسخّر الناس لعبادته ليخدموه ويعبدوه ويأخذ أموالهم وثرواتهم ثم يُجوعهم فلما أراد كل هذا وأراد لنفسه المُلْك والربوبية وأن الناس تعبدوه من دون الله قال: ﴿سَنُقْنِصُ أَمْوَالَهُمْ﴾ [١٢٧] [الأعراف].

فلما أراد فرعون أن يقهر العباد قهرهم بماذا؟ بالظلم، حتى يعلو عليهم ويكون له الملك والجاه والسلطان، فقهرهم ولكن بظلم وعدوان.

فهذا أكثر حال الملوك ليس فرعون فقط، فمن بعد جيل الصحابة، وكثير من ملوك الأرض، وأمراء الأرض على هذا الحال، فبنوا مجدهم وعزهم وهيبته على قهر العباد، وإنزال شتى أنواع العذاب بالرعية ليكونوا ملوكًا.

فقلما نجد ملكًا أو أميرًا يقهر الناس للخير، أو لإقامة شرع الله، فهذا نوع من القهر قلما نجده ولكن أكثر الملوك يقهرون العباد على ماذا؟ على

المعاصي وعلى البعد عن الدين.

الأثر الرابع: الحذر الشديد من قهر العباد وظلمهم:

احذر أن تقهر أحداً من خلق الله، إياك من هذه الصفة المذمومة في حق البشر، اصرفها عن نفسك فالذي يريد أن يقهر من حوله ويتسلط عليهم سواء أكان ملكاً أو فرداً من عوام الناس هو إنسان ظلوم، فعلى المستوى الفردي تجد الرجل المتسلط الجبار إذا دخل بيته رفع صوته وقهر زوجته وأولاده، ولا يدع أحداً يتكلم أو يقول رأيه، فهذا الإنسان سيُذل في الدنيا قبل الآخرة ولا بد، لأن الجزاء من جنس العمل، وللأسف تجد كثيراً في هذا الزمن أن رجلاً يتزوج امرأة فيقهرها بعد الزواج، إذا لم يكن يتقي الله، كمن يتزوج امرأة ضعيفة، لا تملك مالاً، ولا تعمل، ولا عندها مصدر رزق لسد حاجتها، فتجده يقهرها ويذلها على مدار عمرها كله لكونه ينفق عليها وأنه أخذها فقيرة وأغناها وقد تكون المرأة صالحة، تتقي الله وهو ليس على درجة من الدين فينتهز الفرصة ويقهرها لعلمه أنها عندها من الدين ما يجعلها تعفو عن سوء خلقه، فهذا الرجل إن لم تعف عنه الزوجة فإنه سيُذل ويُقهر في الدنيا، فقد يُذله الله بمرض، أو مدير فوقه يذله أو بأي وجه، وإما أن يعاقب على فعله وقوله وظلمه في الآخرة.

والعكس قد تجد زوجة متكبرة متسلطة:

تريد أن تقهر الرجل لأي ضعف فيه، فقد تكون هي الغنية وهو الفقير فتقهره بمالها وحسبها أو بجمالها فيسلط الله عليها من يذلها، كولد يقذف الله في قلبها حبه فتحب الولد جداً فإذا بالولد يُذلها بكل أنواع الذل؛ ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ ﴿٢٦﴾ فإياك أن تقهر عباد الله، أو تتلبس بهذه الصفة أبداً، وكن هيناً ليناً منكسراً لله رب

العالمين، متواضعاً مع العباد بغير ذل، عزيزاً بغير استكبار.

فالمؤمن «لا يقهر يتيماً، ولا ضعيفاً، فإن هذا محرم، قال الله سبحانه وتعالى العظيم لنبيه محمد ﷺ فيما عدّد عليه من النعم قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٨ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١١ [الضحى] فعدّد عليه ثلاث نعم ومنعه من ثلاث معاصي، فكل نعمة مقابلها معصية تُرفع، فأمره بثلاث مقابل ثلاثة^(١).

فقال في مقابلة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ٦ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩.

فعدّد له النعمة أنه كان يتيماً فأواه، وجعله نبياً، فاليتم لا تقهره ولا تنسى أنك في يوم من الأيام كنت يتيماً، وكان يمكن أن يقهرك أحد ولكن الله دفع عنك هذا، فلا تقهر اليتيم، وخطاب الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ في القرآن خطاب للأمة من باب أولى. فحاشاه ﷺ أن يكون ظالماً قاهراً للعباد.

فقال في مقابلة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠.

قوله: ﴿ضَالًّا﴾: ليس بمعنى الضلال المعروف ولكن بمعنى مُتَحِيرٍّ أي لا يعلم عن هذا الدين، فكان ينظر إلى السماء، ويتعبد في غار حراء لله الواحد الأحد، فلا أحد يظن أن قوله: ﴿ضَالًّا﴾ أن النبي ﷺ كان في المعاصي - حاشاه -.

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/٢١٦)، بتصرف يسير.

قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧).

أي: غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهذا: أي أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كقوله جل ثناؤه: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (٥٢) [طه]، أي: لا يغفل، وقال في حقه: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ (٢) [يوسف]، وقال قوم: ﴿ضَالًّا﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهذا الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، عن الضحاک وشهر بن حوشب وغيرهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال قوم^(١): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: في قوم ضلال، فهداهم الله بك، هذا قول الكلبي والفراء^(٢)، وعن السدي نحوه... وذكر أقوال أخرى قريبة لما تقدم، قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديت بك الخلق إلى... ورجح هذا القول، قال: هذه الأقوال كلها حسان، ثم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، والقول الأخير أعجب إليّ، لأنه يجمع الأقوال المعنوية^(٣). انتهى.

فإذا سألك إنساناً واسترشدك فأرشدته وعلمه، وإذا كان ضالًّا فأعينه.

الأثر الخامس: القهر المحمود:

اعلم أن كل ما تقدّم من القهر من العباد مذموم، ولكن هناك قهر محمود، وهو أن يقهر العبد أعداءه، وأعدى أعدائك الشيطان ونفسك التي بين جنبيك، فلو قهرتهما تكون قد قهرت داعي الشر، فالنفس أمارة بالسوء،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩٣/٣٠).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣).

(٣) تفسير القرطبي (٩٧-٩٩/٢٠) باختصار.

كما وصفها ربنا جل وعلا، فقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

والشيطان عدو مُضل مبين، كيده لا نهاية له، فطرق إغوائه للعباد من تزيين الشهوات والملذات كثيرة، ولا يزال بهم حتى يسقطهم في شركه، قال تعالى في تواعد إبليس للعباد: ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا ضَلَّ عَنْهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَنَعَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

فمن القهر المحمود أن تقهر الشيطان والنفس، فتسوق النفس بسوط الخوف مع حادي الرجاء إلى أن تصل إلى جنته، تارة بالترغيب فيما عند الله من النعيم والخير الكثير، وتارة بالترهيب من عذاب الله، وتارة أخرى تُبين لها حقارة الدنيا، وأنها زائلة، ولا قيمة لها، وأن كل ما في الدنيا حقير - إلا ما كان لله -، وهكذا فتقهر هذه النفس بالترهيب والخوف من النار عند المعصية واتباع الشيطان، وبالترغيب حال الضعف والفتور والتكاسل عن فعل القربات، فتشحذ همته وتعلو بذكر الجنات، والوقوف بين يدي الله، وأن مآلها إلى الجنة وفيها الراحة، وفيها النعيم، وأن عذاب الدنيا أوشك أن ينقضي، فتنشط للعبادة.

فهذا هو القهر المحمود الذي ينبغي لكل عاقل أن يجتهد لتحقيقه مع نفسه، لا مع خلق الله، فلا تقهر العباد ثم تأتي أمام نفسك فتقهرك، ولا تقهر العباد ثم تأتي أمام الزوجة والأولاد وتكون أضعف ما يكون، فلا تقهر أحداً من عباد الله ولكن عليك الإرشاد والتوجيه والنصيحة والعقوبة إذا اقتضى

الأمر لمن أنت مسؤول عنهم، بغير قهر ولا إذلال، ولا جبروت، فإياك أن تقهر أحداً من عباد الله صغيراً كان أو كبيراً، حقيراً أو ذا شأن أيّاً كان، وإذا وقع منك شيء من هذا فاستغفر وتب وعُد وارجع إلى الله سبحانه وتعالى عسى أن يعفو ويغفر ما كان من زلل وخطأ.

فهذا شيء قليل من كثير عن اسمي القهار والقاهر، أسأل الله أن ينفعنا بهذين الاسمين وبجميع أسمائه، وكما قلت مراراً: لو اجتمعت قوى الأرض وأتوا بجهاذة البلغاء وفحول الشعراء ما استطاعوا أن يوفوا شرح اسم واحد من أسماء الله كما ينبغي له، فكيف بمخلوقة ضعيفة مثلي، ولكن هو جهدٌ مقل أسأل الله أن يقبله.



اسم الله

الفلاحة

٣٣

الْفُقُورُ

القدوس: من أسماء الله تعالى، جاء في النص مطلقاً في القرآن:
في قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
 السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].
 ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة].

عده جميع العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنی من أسماء الله تعالى، فليس نزاع بين أهل العلم في هذا الاسم ^(١).

وقد جاء الاسم في السنة أيضاً:

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «
 سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» ^(٢).

وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحْ
 اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾» و﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْرُوتُ﴾» ^(١) و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
 أَحَدٌ﴾» ^(١) فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ
 الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ ^(٣).

(١) راجع أول الكتاب - باب التمهيد.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧).

(٣) رواه أبو داود (١٤٣٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١٤٣٦)، وابن حبان (٢٤٥٠)،
 والنووي في الأذكار (١٢٠)، وقال: إسناده صحيح، وقال الوادعي: رجاله رجال
 الصحيح، الصحيح المسند (٩١٢)، وصححه الألباني في قيام رمضان (٣٣).

□ القدوس لغته:

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: «قدس: القاف، والدال، والسين، أصلٌ صحيح، وأظنه من الكلام الشرعي الإسلامي، وهو يدل على الطُّهر.

ومن ذلك الأرض المقدسة: هي المطهرة، وتسمّى الجنة حظيرة القدس، أي الطُّهر، جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُوحُ الْقُدُس، وكل ذلك معناه واحد»^(١).

وأصل اللفظة: من المباعدة، من قولهم: سبحت الأرض إذا تباعدت فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٣٣] [الأنبياء، ويس]^(٢).

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللهُ: القدوس بالضم وبضميتين: الطهر، اسم ومصدر، وجبل عظيم بنجد، والبيت المقدس، وجبريل كروح القدس... والقدوس من أسماء الله تعالى، ويفتح أي: الطاهر أو المبارك. والتقديس: التطهير، ومنه الأرض المقدسة وبيت المقدس^(٣).

□ معنى القدوس في حق الله جلّ جلاله وتقدست أسماؤه:

الله سبحانه وتعالى هو المنزه عن كل وصف يدركه عقل، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فلا يجوز أن نُكَيّف بعقولنا صفات الله تعالى، فكيفية صفاته لا يعلمها إلا هو، فهو الموصوف بصفات الكمال، والمنعوت بنعوت الجمال، المنزه عن كل نقص، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١١] [الشورى] فلا تترك لخيالك العنان للتخيلات.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٦٣ / ٥) مادة (قدس).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٤ / ٣٣٧)، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣ / ١٥٣ - ١٤٥)، واللسان (٢ / ٤٧٠).

(٣) القاموس المحيط (ص: ٥٠٨).

وقيل معناه: «الروح الممدوحة بالفضائل والمحاسن، فالتقديس مُضمن في صريح التسبيح، والتسبيح مضمن في صريح التقديس؛ لأن نفي المذام إثبات للمدائح، كقولنا: لا شريك له ولا شبيه له، إثبات أنه واحد أحد، وكقولنا: لا يعجزه شيء، إثبات أنه قادر قوي، وكقولنا: إنه لا يظلم أحداً، إثبات أنه عدل في حكمه، وإثبات المدائح له نفي للمذام»^(١).

فالتقديس تطهير، والتسبيح تنزيه، وبينهما اشتراك وملازمة، فكلاهما فيه إبعاد عن أسماء الله ﷻ وصفاته كل نقص وعيب، وإثبات له كل كمال وجمال. وقول إن نفي المذام إثبات للمدائح ليس على الإطلاق، فلو قلنا إن فلاناً ليس بمتسخ الثياب لا يعني ذلك أن ثيابه جميلة، مع أن النفي الأول - نفي المذام - فيه نوع من المدح لكنه ليس مدحاً تاماً.

قال ابن كثير رحمه الله: القدوس: أي الطاهر، وقيل: أي المبارك^(٢).

وقيل: القدوس: من تقدّست عن الحاجات ذاته، وتنزهت عن الآفات صفاته^(٣).

فذااته العلية لا تحتاج لأحد أبداً، فهو الصمد، الغني عن خلقه قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢)﴾ [الإخلاص].

فكل ما في الكون يصمد ويلجأ ويتوجه إليه؛ ويطلب مقصوده منه؛ فهو الخالق، قبل الخلق، وهو القوي، العليّ، العزيز، وقد كان الله ولم يكن شيء غيره.

وقيل: القدوس: من قدس نفوس الأبرار من المعاصي، وأخذ

(١) نقله البيهقي عن الحلبي في الأسماء والصفات (ص: ٧٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤١٩).

(٣) لوامع البينات (ص ١٨٢) بتصرف.

الأشرار بالنواصي^(١).

ومن معاني القدوس أنه هو من طهر نفوس أحبابه من المؤمنين الأخيار عن المعاصي بأن حجب حبها عنهم، فمن يرى من نفسه حباً للطاعة بغضاً للمعصية فليحمد ربه القدوس أن طهر روحه عن حب ما لا يحب، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فَضلاً من الله ونعمةً واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) [الحجرات].

سبحانه «هو المنزه عن كل وصف يدركه حس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير، ولست أقول منزّه عن العيوب والنقائص، فإن ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب، فليس من الأدب أن يقول القائل: ملك البلد ليس بحائك ولا حجام، فإن نفي الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود، وفي ذلك الإيهام نقص، بل أقول القدوس هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذي يظنه أكثر الخلق كمالاً في حقه»^(٢).

علينا التفكير في مخلوقات الله تعالى والتي تدلنا على عظمته وقدرته وملكوته، لا التفكير في ذاته، فإن كانت عقولنا لا تدرك كل مخلوقات الخالق فكيف ستدرك الخالق؟!

□ آثار معرفة العبد لاسم الله القدوس:

جدير بالعبد أن يقتدي بالملائكة في تقديسها لله تبارك وتعالى.

(١) المصدر السابق.

(٢) المقصد الأسنى (ص ٤٦).

معلوم أن الملائكة تُسَبِّح بحمد الله وتُقَدِّس له وتطهر نفسها وتزكّيها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهم من؟ هم عباده المكرمون الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم] المخلوقون من نور، مَنْ لا شهوة لهم ولا رغبة ولا إرادة في الشر، فهم الخير المحض، فإن كان هذا فعل من هذه صفاتهم فكيف بنا نحن؟! ونحن المتلبسون بالمعاصي، الغرقى في الذنوب؟! فالنجيب العاقل مَنْ يتهيب لقاء الله، والوقوف بين يديه للحساب، والسؤال عن الفتيل والقطمير، وعن الكبير والصغير من الأعمال والأقوال، فيسارع في تطهير نفسه من الأخلاق الذميمة، ويتحلى بالأخلاق الجميلة والصفات الحميدة ابتغاء رضا ربه.

والنتطهير والتقدیس أنواع:

أولاً: تقدیس النفس من الشرك الأكبر:

فنبراً إلى الله تعالى أن يُنسب إليه الشريك أو الصاحبة أو الولد، ونعتقد أن الله واحد أحد صمد، واحد في صفاته، وواحد في ذاته، وواحد في أسمائه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ [الإخلاص]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ (٩٤)﴾

٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ (٩٤)

وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم].

«لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك: أي عظيماً. ويقال ﴿إِذَا﴾ (٨٩) بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدّها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى، وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) أي: يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية عن علي، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) قال: إن الشرك فرعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فقالوا: يا رسول الله فمن

قالها في صحته؟ قال: «تِلْكَ أَوْجَبَ وَأَوْجَبَ». ثم قال «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِيءَ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوَضِعْنَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوَضِعْتَ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِنَّ» هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي يتشققن فرقا من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾، أي غضبا له ﷺ، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، قال ابن عباس: هدمًا، وقال سعيد بن جبير: هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر عن عون عن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله ﷻ؟ فيقول: نعم، ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿١٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿١١﴾.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هوزة، حدثنا عوف عن غالب بن عجرد، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم: اتخذ الرحمن ولدًا، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر.

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعيد بن جبير

عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ» أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ».

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (١٢) أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) لقد أحصاهم وعداهم عداً ﴿أَيُّ قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُمْ وَأَنَاشَهُمْ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، وَكُلَّهُمْ آتَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (١٤) أي لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً (١).

ثانياً: تقديس العقل عما نسبته أهل الضلال لله تعالى؛

أثبت الله تبارك وتعالى لنفسه صفاتاً ونفى أخرى في كتابه العزيز أو على لسان نبيه ﷺ، فمن صفاته سبحانه: العلم، الحياة، السمع، البصر، الرحمة، الود، اللطف، القيومية، القدرة، الوجه، العلو، الاستواء، النزول للسماء الدنيا، المجيء، الإتيان، الغضب، الرضا، الفرح، البطش، وغير ذلك الكثير، ثبت ذلك على اعتقاد السلف الصالح.

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٧١-٢٧٣) ط. دار ابن رجب.

فإن اعتقدت ذلك وأنكرت ما يعتقده البعض من تحريف الصفة عن معناها المتقرر، أو نفيها وتعطيلها، أو تفويض المعنى بأن يقولوا لا معنى لتلك الصفات، أو إثبات بعض الصفات ونفي بعضها، أو تكييف الصفة بأن يتخيل الإنسان لها كيفية معينة، فإن نفيت كل هذه الترهات، تكون قد نزهت وقدست عقلك في هذه الجزئية، وسلم من مخالفة السلف في هذا الباب.

عقول البشر عاجزة قاصرة...

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ^(١).

فإن كان هذا فعله بالسموات وما حوت، والأرضين وما طوت، فكيف ببقية أفعاله وصفاته!! كيف نكيف صفاته تبارك وتعالى، ونحن لا نستطيع استيعاب ما قرأناه في الحديث! فالعقل لم ير مثل ذلك من قبل؛ فلا طاقة له أن يتخيل مثله، ولا ما يقارب وصفه، فكيفية صفات الرب من علم الغيب الذي استأثر به لنفسه.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١ - ٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦).

من الأهمية بمكان أن يثبت في عقولنا أن الله على كل شيء قدير..

تخيلت يوماً كيف تقف السماوات بلا عمد؟ كيف تثبت الجبال وتستقر؟ كيف تهطل الأمطار؟ كيف تطير تلك الطيور وهن قابضات أجنحتهن؟ بل كيف تتنفس أنت؟ كيف تعمل تلك الأجهزة الدقيقة في جسدك؟ كيف تسير هذه الدماء في أوردتك بدقة بالغة لا يقدر على فعلها بشر؟ بل كيف تعمل الأجهزة الإلكترونية المصنوعة بيد البشر؟ كيف يسمعني من في أقصى القارة في الهواتف وبيني وبينه آلاف الكيلومترات! كيف تحوي هذه الأجهزة الإلكترونية ألوف مؤتلفة ومختلفة من المعلومات؟! ملايين الأسئلة لن تجد لها إجابة إلا أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

ثالثاً: تقديس القلب لله جلّ ثناؤه:

تقديس القلب لله يكون بطهارته من الشهوات والشبهات، لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يعترض بشبهة تتناقض مع وحي الله، ولا يتحاكم إلى غير الله، فهذا يعد قلباً مقدساً قد زكّي، ولكن ما هي التزكية؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، صار القلب

يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب، وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفرغاً من تخليطاته، حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه.

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وإن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [١٤] وذكر اسم ربه فصلى [١٥] [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٩] وقد خاب من دسها [١٠] [الشمس]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْرِبُكَ لَعَلَّهُ يَرْزُقْ﴾ [عبس]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [١٨] وأهديك إلى ربك فتخشى [١٩] [النازعات]، فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٦] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصلت]، وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله.

وهذا أصل ما تركوه به القلوب.

والتزكية: جعل الشيء زكياً، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، كما يقال: عدلته إذا جعلته عدلاً في نفسه، أو في اعتقاد الناس، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، أي: تخبروا بزكاتها، وهذا غير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٩] [الشمس]؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [٣٢] [النجم]، وكان اسم زينب (برة)، فقيل: تزكى نفسها، فسمها رسول الله ﷺ (زينب).

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، أي: يجعله زاكياً، ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم. والعدل هو: الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساد؛ ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه، بل ظلمها، فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحتها عدل لها وفسادها ظلم لها. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، قال بعض السلف: إن للحسنة نوراً في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وتبسل أي: ترتبن وتحبس وتؤسر؛ كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو بإخراج المزاج، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل، فالأمثل، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف، والعدل المحض في كل شيء متعذر علمًا وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس. والظلم ثلاثة أنواع، والظلم كله من أمراض القلوب، والعدل صحتها وصلاحتها. قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحداً. أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك، كمرض الشرك والذنوب. وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. لذلك ذكر الله حياة القلوب، ونورها، وموتها، وظلمتها في

غير موضع كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠) ﴿يس﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٤]، ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس]، ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وفي الحديث الصحيح: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١)، وفي الصحيح أيضًا: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»^(٢). وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأَنْعَام: ٣٩]، وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

(١) أخرجه مسلم (٧٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة، والأعمال التابعة لها، يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال. والثاني: مثل الجهل البسيط، وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) ﴿الأعراف﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ ﴿يوسف: ٢٤﴾، «وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه، فصرف الله به ما كان همّ به، وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيراً، ولم يفعل سيئة»^(١).

لماذا جمع بين الطهارة وبين الزكاة في قوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؟ لأن بينهما تلازم؛ فلا يمكن أن يكون النماء والصلاح وزيادة الخير مع وجود نجاسات الفواحش، فلا بد أن يطهر القلب أولاً حتى يزكو ويعلو، فالفواحش والمعاصي تحول بين القلب وزكاته زكاة تامة.

اتباع خطوات الشيطان مهلكة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١) [النور].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٩٦-١٠٢).

عادة الشيطان أن يقدم مقدمات للإنسان ليووقعه في شرك المعصية - بل والكفر - فيوسع له متسعاً للذنب فإذا ولج فيه استحوذ عليه الشيطان، ووسع المتسع أكثر فأكثر حتى ينغمس في الذنب انغماساً؛ لذلك أمر الله تبارك وتعالى عباده بعدم اتباع خطوات الشيطان، فقد أمرنا تعالى بغض البصر؛ ومعلوم أن النظر يريد الزنا، فإن لم يغض العبد بصره قد يفضي ذلك إلى وقوعه في الزنا، وقس على هذا جميع الذنوب والمعاصي، حتى أنه قد يلبس على البعض بوجهة دعوية، ومن الأمثلة على ذلك: أن يزين للمرأة أن تدعو الرجل - من غير المحارم - للالتزام بأمر الله، فترسل رسالة دعوية، فيرد عليها بالدعاء، فتتوالى الرسائل بينهما حتى يوقعهم في شباكه فحينئذ يستحوذ عليهم فإذا أمرهم أطاعوه وعصوا ربهم، لو أخبروا بفعلهم قبل ذلك لأنكروه إنكاراً شديداً واستبعدوه تماماً عن أنفسهم، لكن هذا حال من اتبع خطوات الشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء.

ولأنه القدوس فبقدرته وعظيم فضله يُقدّس هذه النفوس الراغبة فيما عنده، والمصدقة بوعدده، المقابلة على شرعه، ويدفع عنها الرذائل ويطهرها من المعاييب، ولو وقعت يتداركها برحمته، فتتوب إليه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الآية عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكية اجتناب لكل ذلك، ولكي يُبين لنا أنه لا حول لنا ولا قوة إلا به، وأنه لولا فضل الله علينا ما زكى أحد أبداً، فإذا كان الإنسان في علو، ورفعة، وطاعة، فإنه يشعر وهو في هذا الفضل باسم القدوس، فالقدوس هو الذي قدّسه، وطهره، وتاب عليه، ومنعه من أن يقع في المعاطب والمهالك.

أصل ما تزكو به الأرواح والقلوب:

إن أصل ما يُقدّس به الروح والقلب هو التوحيد، ومعنى تقديس القلب أو العقل أي جعله زاكياً في ذاته واعتقاده، فلا يجول في عقله، ولا يسكن في قلبه ما ينافي التوحيد أو كماله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، عقيب قوله: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُورٍ كَذِبٍ﴾ [المائدة: ٤١] مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرفه، كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني. قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله»^(١).

فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢١٤٩).

القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح^(١).

فالإنسان الذي اعتاد سماع الكذب، وسماع الباطل تجده ضعيف العقل كالذي يجلس أمام الفضائيات يشاهد البرامج ولست أقول يشاهد الأفلام والمسلسلات التي هي قمة الكذب والباطل، بل يشاهد البرامج الكلامية التي امتلأت أيضًا بالكذب، يقولون: درسنا كذا وفعلنا كذا، وهو لم يفعل ولم يدرس، وتراه يُعطي وعودًا ويخلف هذه الوعود، وتجد جُل كلامه علمانيًا، فليس فيه ذكر الله، ولا اعتماد على حول الله وقوته، ولكن يقول سأفعل، وأُخطط، دون أن يقول: إن شاء الله، هذا النوع من البرامج وحده يفسد القلب، رغم أنه لم يشاهد فيلمًا ولا مسلسلًا؛ لأن هذا البرنامج فيه من الكذب، والتأويل الفاسد، وعدم ذكر الله، والاعتماد على النفس دون الله تعالى، والوعود الكاذبة ما يكفي لفساد قلوب الصالحين، فكيف بعوام المسلمين؟!

كثرة سماع الكذب يكسب الإنسان قدرة على تحريف الحق:

إذا اعتاد الإنسان سماع الكذب أكسبه ذلك تحريفًا للحق، فإن الله ﷻ لم يقل يسمعون الكذب، ولكن قال: ﴿سَمِعُوا لِلْكَذِبِ﴾ أي: كثيرو السماع للكذب، تراه يسمع الكذب في برنامج، أو فيلم، أو مسلسل، أو في جلسة لا تليق مع الأهل، يكذبون ويقصّون حكايات كلها كذب وهو يستمع، ولذا فإن قلبه الذي يريد أن يتقدس لن يتقدس طالما أنه يستمع

(١) إغاثة اللهفان (١/١١٨).

لهذا الكذب، فانتبه يا من تربي أطفالك على سماع الكذب، ويا من تتركهم أمام التلفاز بحجة أنهم أطفال غير مكلفين، انتبه فإن سماع الكذب واعتياد سماع الباطل يكسب الإنسان تحريفًا للحق، فإذا تكلم في مسألة دينية يُجادل بالباطل ليمحق الحق؛ لأن كثرة سماع الكذب يكسبه قدرة على بطر الحق وليّ الكلم وتحريفه عن مواضعه.

كثرة سماع الكذب تجعل الإنسان يحب الباطل ويرضاه:

هذه هي المرحلة الثانية: يصبح الإنسان بكثرة سماعه للكذب يحب الباطل ويرضاه، ولو أتاها الحق يرده ولا يقبله، فهذا حال كثير من المسلمين، تأمل إذا سرت اليوم في الشوارع لا تجد وسائل المواصلات إلا وقد امتلأت بالأغاني، وإذا طلبت خفض صوت الأغاني يقولون متهمين: وهل هي حرام؟! هؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾، فهؤلاء لا يقبلون الحق، ولا يستسيغونه، ولا يريدونه، بل يقبلون الباطل، ويحبونه، وينافحون عنه، ويجادلون، وهذا كله راجع لخطورة سماع الكذب. هؤلاء أشرب الباطل في قلوبهم، وإذا أشرب الإنسان شيئاً ودخل قلبه أحبه، ولو أن أحداً سمعهم القرآن يعترضون ويقولون متهمين: وهل نحن في عزاء؟! يريدون فقط سماع الأغاني الساقطة، الفاسدة، المليئة بالضلال؛ لأن قلوبهم اعتادت سماع الباطل، قال تعالى: ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ فلما كان سمعاً للكذب، كانت النتيجة أن الله لم يطهر قلبه؛ لأن قلبه أشرب الكذب، والباطل، وأحبه، واكتسبه، فتارة يحرف الكلام عن مواضعه، كالذين يحرفون صفات الله

تعالى، ومن يتبعون أهواءهم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ولو طهرت قلوبهم ما أعرضوا عن الحق وما تعوّضوا بالباطل عن كلام الله؛ لأن الشخص المنحرف الذي انحرفت إرادته لا يطهر قلبه، ولا يستجيب لكلام الله أبداً، بل تعوّض بسماع الشيطان عن سماع القرآن، فيسمع كلمات الشيطان، ويعرض عن كلمات الرحمن، يعرض عن القرآن، لا يستطيع أن يسمعه، وإذا سمعه يغلقه سريعاً، وإذا شاهد برنامجاً دينياً لا يستطيع أن يكمله، ويغيّره إلى المسلسل، وكل ذلك لأنه ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿سَمِعُوا لَكَاذِبٍ﴾ فكثرة سماع الباطل يجعل القلب مغلقاً عن الحق.

هناك ثلاث حالات تمنعك عن قراءة القرآن، وبغير هذه الحالات فاعلم أن القلب به علة وينبغي أن يُعالج:

- ١- إما أن يكون مريضاً فلا يستطيع قراءة القرآن.
 - ٢- وإما أن يكون لديه واجبات فيقوم بتأديتها، مثل: العمل، أو المذاكرة، أو المرأة تشغل بواجبات البيت، أو الزوج والأولاد، فلا بد أن يقوم كل إنسان بما عليه من واجبات.
 - ٣- وإما أن يكون مُنشغلاً بمباح بقدر الضرورة، كوقت تناول الطعام، والنوم، والترويح عن النفس، ونحوه.
- فهذه هي الثلاثة أحوال التي يكون فيها العبد منشغلاً عن قراءة كلام الله، فإذا لم يكن منشغلاً بواحدة منها، فاعلم أنه قلب لم يقدس بعد، فالمصحف أمامه وهو لا يستطيع أن يقرأ فيه، يجلس أمام التلفاز يشاهد الباطل، أو يجلس جلسة فيها غيبة ونميمة، أو في الأسواق بغير سبب فقط لقتل الوقت.

إن القلب الذي لا يشبع من كلام الله، ولا يُشفي به، ولا يسعد بالأنس بالله، قلب فيه مرض، ويحتاج أن يزجر نفسه عن المعاصي، ويعزم على تركها بلا تردد، والتوسل إلى الله باسمه القدوس أن يقدّس ذاك القلب، ويمحو عنه الذنوب والآثام، ويطهره، وينقيه؛ حتى يصلح أن يكون لله.

هداية القلوب موقوفة على إرادة الله تعالى؛

«دلت الآية^(١) على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله، وأنه سبحانه لما لم يُرد أن يُطهر قلوب القائلين بالباطل المحرّفين للحق لم يحصل لها الطهارة. ولا يصحّ أن تفسّر الإرادة ها هنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً؛ فأراد الطهارة لهم، ولم يُرد وقوعها منهم؛ لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكرهه إليه من فوات الطهارة منهم. وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر ودلت الآية على أن من لم يُطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه»^(٢).

لا يسكن جنة الرحمن إلا طيب طاهر لأنه القدوس؛

«ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يُقال لهم: ﴿طَبِّئْهُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٧٣) [الزمر]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَبِّئِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣٢) [النحل].

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١١٩).

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا، ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا، فإن كانت نجاسته عينية كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيَهْذَبُونَ وَيَنْقَوْنَ من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب^(١).

رابعاً: تقديس الإرادة:

تقديس الإرادة: أن ينزّهاها من أن تدور حول الحظوظ البشرية فقط التي ترجع إلى لذة الشهوة والغضب ومتعة الطعام والمنكح والملبس والمنظر فهذه شهوات، فالغضب يجعله يقع في الظلم والخوض في أعراض الناس لكي ينتصر لنفسه، فيقع في شهوة محرمة، وكذلك شهوة المطعم، يريد أن يحضر أحسن أنواع الطعام فينفق المال الكثير لتحصل هذه اللذة، فإذا قال أحد: إذن لا نأكل؟! نقول له: لا، بل كُلْ ولكن لا تضع عمرك ووقتك من أجل الطعام، ويكون مُتَعَتِكَ المطعم والمنكح، وتجد آخر يبحث عن

(١) المصدر السابق.

المرأة الجميلة وإن لم تكن جميلة يتركها، ويمكن أن يقع في المعاصي، فهذه رغبته وإرادته، فلا بد أن تُقدّس هذه الإرادات، فلا يمكن أن تكون إراداتك فقط في الشهوات والملذات.

اسع لتقدّيس إرادتك قبل القدوم على ربك؛

حري بالعاقل ألا يضع أوقاته في سفاسف الأمور، مثل المرأة التي تريد أن تتزوج رجلاً وسيماً ولا تقبل أن تتزوج من رجل غير وسيم، وإذا تزوجت الوسيم تظل تغار عليه، فإذا نظر لغيرها تحزن، ولو تزوج أخرى تطلب الطلاق، فهذه هي إرادتها وليس عندها غير هذه الإرادة، فحياتها كلها تدور حول ماذا تأكل، وماذا تلبس، وإلى أين يذهب زوجها، إلى غير ذلك، فلا بد أن تُقدّس هذه الإرادات، فلا يصح أن تدور حياتنا حول الزوج فقط، أو الأولاد فقط، أو الطعام أو الملبس، فلا بد من تقدّيس الإرادة، فلا إفراط ولا تفريط، فنأكل بغير إسراف، ونلبس بما يكفي بغير تبذير، ونحب الأزواج بغير مبالغة في المحبة.

فهذه كلها أسباب، فإذا لبست أغلى الثياب والله لم يرد لك السعادة لن تكون سعيداً، وكلنا نسمع عن أغنياء ملكوا المال بجانب الذكاء والجمال، ثم يتحرون، ومنهم من يعيشون في قصور مشيدة بها أفخم المفروشات والتجهيزات الحديثة، لا ينقصهم شيء، كل أسباب السعادة قد ملكوها، ثم نراهم تعساء، لا يرغبون في شيء من متاع الدنيا.

وقد تنتهي حياتهم بالانتحار، وهم يملكون كل أسباب السعادة.

اللبيب السعيد إرادته في الدنيا رضا ربه؛

فلا بد أن تكون إرادتي في الدنيا ربي، فأنا أريد جنة عرضها السموات

والأرض، فأنا أتطهر وأتقدس للقدوس حتى أصلح أن أسكن داره وجواره، فلا يبقى لي حظ إلا في الأنس بالله، ولا شوق إلا للقاء الله، ولا فرح إلا بالقرب منه، فهذا هو الذي قدس إرادته الله، فالسعادة أن يستشعر أنه قريب من الله، وأن الله راضٍ عنه، قد وفقه للطاعة، ودفع عنه حب المعصية، وهذا هو النعيم المقيم، وهذه همة أولي العزائم والبصائر.

وقد قيل:

ألم تر يوماً مرٍ إلا كأنه	بإهلاكه للهالكين عناكا
ألا أيها الفاني وقد حان حينه	أطمع أن تبقى فلست هناك
ستمضي ويبقى ما تراه كما ترى	فينساك ما خلفته هو ذاكا
تموت كما مات الذين نسيتهم	وتُنسى ويُهوى الحي بعد هواكا
كأنك قد أقصيت بعد تقرب	إليك وإن باك عليك بكاكاً ^(١)



(١) انظر: الكبائر للإمام الذهبي (ص: ٢١٨).

اسم الله

الحكيم

٣٤

الحكيم

اسم عظيم تكرر في القرآن كثيرًا وما أشد احتياج العباد لمعرفة تفسيره، وقد اتفق جمهور العلماء على كونه اسمًا لله تعالى.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن في عدة مواضع منها:

قوله جل ذكره: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

□ **معنى الحكيم لغة:**

الحكيم: العالم، وصاحب الحكمة، والحكيم: المتقن للأمور، وقد حَكَمَ بضم الكاف، أي صار حكيماً.

قال النمر بن تولب:

وأبغض بغِيضِكَ بُغْضًا رُويْدًا إذا أنت حاولت أن تَحْكُمَا

قال الأصمعي: أي إذا حاولت أن تكون حكيماً^(١).

قال أبو بكر الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: الحكيم: معناه في كلام العرب: المُحَكِّم لخلق

الأشياء، فَصُرِفَ عن المُحَكِّم إلى الحكيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾ [البقرة]^(٢) فمعناه: ولهم عذاب مؤلم، فصرف عن مؤلم إلى أليم^(٣).

وقال في موضع آخر رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال آخرون: الحكيم معناه في كلام العرب:

(١) انظر: الصحاح للجوهري (ص: ٢٥٢).

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (ص ٣٧٠).

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس (١ / ٨٠).

الذي يردُّ نفسه ويمنعها من هواها، أخذ من قولهم: قد أحكمت الرجل، إذا رددتُ عن رأيه، قال أبو بكر: حكاها لنا أبو العباس عن ابن الأعرابي (١).

وقال الليث رَحِمَهُ اللهُ: يقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب (٢).

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: الحاء، والكاف، والميم أصل واحد: وهو المنع، وأول ذلك الحُكْمُ، وهو المنع من الظلم، وُسِّمَتْ حَكْمَةُ الدابة، لأنها تمنعها، يقال: حَكَمْتُ الدابةَ وأَحَكَمْتُهَا، ويقال: حَكَمْتُ السفينةَ وأَحَكَمْتُهَا، إذا أخذت على يديه... والحكمةُ هذا قياسُها، لأنها تمنع من الجهل، ونقول: حَكَمْتُ فلاناً تحكيماً. منعته عما يريد (٣).

□ **معنى الحكيم في حق الله تعالى:**

وينبغي أن يوصف بالحكمة من كان له أفعال سديدة

وصنع متقن:

فلا يصدر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم، ومهما أتقن الإنسان العمل والفعل والقول فلن يبلغ غاية الإتقان والكمال أبداً، فصفاته بها قصور ونقص لا محال مهما أوتي من حكمة، فالحكمة الكاملة لله، لكونه مقدساً عن فعل ما لا ينبغي، وقول ما لا ينبغي، فالفعل والقول المتقن السديد غاية الإتقان له وحده، فكم من طبيبٍ ماهر ذي خبرة وحكمة كان سفيهاً في تعاملاته مع جيرانه وأقربائه، وكم من رجل أعمال بارع ذي فطنة

(١) المصدر السابق (١١٠/١).

(٢) تهذيب اللغة (٧٠/٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٩١/٢).

وذكاء افتقدهما في وقت الحاجة إليهما حتى تعجب هو نفسه من سفهه ورعونة نفسه وقتذاك، فالحكمة لا تكتمل إلا للحكيم سبحانه. ولا يوصف بالحكمة المطلقة إلا من فعل الشيء المناسب في الوقت المناسب في المحل المناسب وذلك على الدوام.

على سبيل المثال: رجل قام يدعو الناس بالترهيب وذكر عذاب القبر والنار في وقت التهئة لعروسين ليس من الحكمة؛ لأنه كلام مناسب لكن في وقت غير مناسب، وربما العكس يتحدث بكلام غير مناسب كالكلام في المباحات عموماً في وقت يشاق فيه الحضور للسماع عن الله ورسوله، وقد يكون الكلام مناسباً والوقت مناسباً لكن المحل غير مناسب يعني المتكلم إليهم لا يناسبهم كلام بعينه، وهكذا...

وقيل الحكمة: هي التنزيه عن فعل أو قول ما لا ينبغي، فكل من فعل فعلاً لا ينبغي، أو قال قولاً لا ينبغي فليس حكيماً، فالحكيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء، صُرف عن مفعل إلى فاعل، كقولهم: أليم بمعنى: مؤلم، وسميع بمعنى: مسمع؛ كقوله جل وعز: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس]، وقال في موضع آخر: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ﴾ [هود: ١]، فدل على أن المراد بالحكيم هنا الذي أحكمت آياته، صُرف عن مفعل إلى فاعل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها^(١).

(١) شأن الدعاء (ص ١٤٤).

فالحكيم هو خالق المخلوقات كلها بإحكام وهذا جلي لكل متأمل في هذا الكون، وحكمته تظهر في جميع المخلوقات حتى ما نراه قبيح المنظر منها، فهي تتضح في حسن التقدير والإتقان التدبير.

وقال أيضًا: إذ ليس كل الخليفة موصوفًا بوثاقة البنية، وشدة الأسر^(١) كالبقعة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معازم الخليفة، وكذلك هذا في قوله جل وعز: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه، وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] انتهى.

فالبقرة والنملة وما أشبههما مخلوق ضعيف، والشعبان شكله قبيح فكيف نقول الحكيم على خلقه لهم؟ ذلك لأنه أعطى هذه المخلوقات رغم صغر حجمها وقباحتها منظرها القدرة والهيئة والوصف والروح، فهدى كلاً منها للسير بطريقة خاصة به، وبعيش حياة خاصة بها، تختلف عن حياة سائر الكائنات، فهو تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه]، فأتقن التدبير وأحسن التقدير، إذ أعطى النملة القدرة على أنها تفكر وتأتي

(١) الأسر: شدة الخلق...، وقيل: القوة والحبس - اللسان (١/ ١٤٨).

(٢) شأن الدعاء (ص ١٤٥).

برزقها وتضعه في مكان معين، فعالم النمل عجيب جداً إذا قرأت عنه وجدت ما يبهر العقول، كيف أنه يدبّر طعامه على مدار العام كله، وكذلك الذبابة عندها قرن الاستشعار، فإذا اقتربت منها تشعر بك من بعيد فتطير إلى مكان آخر وهذا من عجائب مخلوقاته.

إلا أن التدبير فيها، والدلالة بها على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال، فالذي خلق السموات بهذا الحجم، وكذلك الأرض والجبال والبحار والأشجار فحسن تقديره لهم وحسن تدبيره لا يقل عن خلق الذبابة، لذلك ضرب مثلاً في القرآن عن خلقه للذبابة، وعن خلقه للسموات والأرض حتى يُبين أنه الخالق سبحانه وتعالى، وله الحكمة في خلق الذبابة وفي خلق الجبال والبحار وله الحكمة في خلق النملة، وله الحكمة في خلق الفيل وغيرها من المخلوقات، فكلها دلالة على قدرته وحكمته.

فهداية جميع خلقه كل لما خلق له، تدل على حكمته، وأنه المحكم المتقن لجميع الأشياء.

حكمة الله سبحانه وتعالى في خلقه وفي شرعه وأمره:

أولاً: الحكمة في خلقه:

«فإنه خلق الخلق بالحق ومشتماً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً، ولا

نقصًا، ولا فطورًا.

فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأتى لهم القدرة على شيء من ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يُعلم من عظمته وكمال صفاته، وتتبع حكمه في الخلق والأمر.

وقد تحدّى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصًا، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته^(١).

الله سبحانه وتعالى في القرآن يندب العباد إلى النظر إلى هذه الأشياء فقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۚ﴾ [المُلْك: ٤].

فالناظر إلى السماء لا يجد فيها اختلافًا، ولا تنافرًا، ولا مخالفة، ولا نقصًا، ولا عيبًا، ولا خللاً، ولهذا قال: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبًا، أو نقصًا أو خللاً، أو فطورًا؟ وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ﴾ مرتين ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ والمعنى: إنك لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك ﴿خَاسِئًا﴾ عن أن يرى عيبًا أو خللاً

(١) القصيدة النونية بشرح السعدي (١٧٣/٣).

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرّر ولا يرى نقصاً^(١).

ثانياً: الحكمة في شرعه وأمره:

فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأى حكمة أجل من هذا؟ وأي فضل وكرم أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحمده، وشُكْرُه والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية، والنعيم الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة، وحُقَّ الجزاء، وُخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية^(٢).

فقد قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

لهذه الحكمة خلق الله الثقلين، وهي عبادته جل وعلا بما أمر على لسان رسوله، إذ لا يتم صلاح ولا تنال سعادة في الدارين إلا بها^(٣).

لذلك فإن الله سبحانه نادى النبي ﷺ بالرسالة والنبوة ولكن في أعظم المقامات ناداه بالعبودية؛ ففي مقام الإسراء والمعراج قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٤/ ٨٢، ٨٣)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٢٠٠).

(٢) القصيدة النونية لجمع من العلماء - شرح السعدي (٣/ ١٧٣).

(٣) ملتقط من محاسن التأويل (٦/ ٣٤٩) بتصرف.

[الإسراء: ١]، فقال: أسرى بعبد، ولم يقل: برسوله ولا بنيه ولا صفيه ولا خليفه، ومن أعظم ما أوتي النبي ﷺ من المعجزات بعد القرآن الكريم رحلة الإسراء والمعراج، وفي هذا المقام العالي ناداه الله سبحانه وتعالى بالعبد لأنه شرف، فالعبودية شرف ولو فهم الناس هذا ما تنصلوا منها، ولا تركوها، ولا حاولوا أن يجدوا مخرجاً من عبادة الله الواحد الأحد، ولكن ما هم فيه بسبب قصر الفهم والضلال وانغلاق القلوب والعقول.

وأي فضل وكرم أعظم من هذا:

فمن المحال أن تجد في الدنيا كلها أعظم من الوقوف بين يدي الله متضرعاً باكياً خاشعاً معترفاً بذنبك وتقصيرك في حقه، فينظر إليك الملك الأحد نظرة رحمة ومغفرة ويقبل منك العمل رغم ما فيه من تقصير وآفات وعيوب، فيسأل العبد ربه أن يقبل صلاته وغير ذلك من الأعمال القليلة، لأن الله تعالى أعظم من هذا بكثير، ويستحق الكثير، ولكن ما عبدناه حق عبادته وما شكرناه حق شكره، ولو قمنا بالعبودية من أول ما ولدنا حتى مماتنا ما قدرنا الله حق قدره، ولكن للأسف كثير من الناس بعدت عن هذا التفكير بسبب الغفلة، وأصبحت الأبدان تعيش بلا قلوب، فأصبحت الحياة لا معنى لها ولا طعم ولا سعادة ولا راحة.

قسم العلماء الحكمة إلى نوعين:

١ - حكمة غائية، أي التي لها غاية.

٢ - حكمة صورية، أي: هيئة الشيء.

أولاً: الحكمة الغائية: قد لا يظهر لك الغاية من كل شيء تراه أو تعلمه

أو تسمعه، ولكن لا بد أن تعلم أنه خُلق لحكمة، فأَي شخص له سلطة سواء رئيس أو صاحب مصنع أو شركة أو مدير وتحت يده عمالة فهل من الحكمة أن يُخبر الرعية أو من هو دونه من العاملين عنده بكل ما يفكر فيه؟

الجواب: لا، ليس من الحكمة، لأنه لا بد أن يكون له أسرار يحجبها عنهم، وهو لكونه حكيماً لا يقول كل شيء للعمال، ومن يعمل تحت يديه، لماذا؟ لأنه لو أخبرهم بكل ما يريد أن يفعله لانكشفت أسرار هو لا يريد أن يعلمها أحد لحكمة، وهذا حال البشر مع بعضهم البعض، فتجد صاحب المصنع أو الشركة يوزع العمل على العمال ويأمر كل عامل أن يقوم بعمله المحدد له، ثم يُعطي هذا أجازة وهذا لا، ويعاقب هذا وغيره لا، ويعطي هذا مكافأة فيظن أنه راضٍ عنه، ثم في وقت آخر يعاقبه، كل ذلك يفعله لحكمة، فهو وصل إلى مرحلة من النجاح والمكانة -مع ما له من وفرة عقل، وقوة حزم- جعلته يملك كل هذا، والله المثل الأعلى فلكونه حكيماً لم يُطلع البشر على كل خبايا الأمور ومن ثمَّ تجد أشياء في الكون تراها تعلم الحكمة من وجودها، ولكن يوجد أشياء أخرى عقلك لا يصل للحكمة من وجودها، ولكن قد تظهر الحكمة لغيرك، وهناك أشياء أخرى لا أحد يعلم الحكمة من وجودها إلا الله.

ثانياً: الحكمة الصورية:

هناك أشياء لا تظهر حكمتها للجميع مثل أن الله ﷻ خلق الشمس ولكن نحن لا نعلم لماذا خلقها بهذا الشكل وعلى هذه الصورة، وما الحكمة من ذلك، وكذلك القمر جعل له هيئة معينة فما الحكمة من ذلك؟ لا نعلم، فهناك أشياء لم يُظهر الله تعالى حكمتها لنا، فأظهر لنا البعض وخفى البعض حتى تستسلم

العقول وتخضع النفوس لخالقها، ويظل العبد عبداً لا يتعدى حدوده.

□ آثار معرفة المؤمن لهذا الاسم:

أولاً: الرضا بالقضاء والاستسلام عند نزول البلاء وعدم السخط بأي

وجه من الوجوه:

وذلك للعلم التام أن الله سبحانه وتعالى هو الحكيم، فكل ما قدره الله تعالى خير، فقد قال رسول الله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١)، فسبحانه كل ما قدره خير وإن رآه البشر من أعظم أنواع الشرور، ولكنه خير قد لا يكون في ذاته ولكن في غيره، أي أن الخير ليس في ذات الشيء فقد يكون الشيء شراً وسيئاً، ولكن الخير يأتي من خلفه، كشخص مريض مرضاً شديداً وكتب له الطبيب دواء مؤلماً فهذا الدواء في ذاته ألم وتعب، ولكن يأتي الخير من استعماله، لأنه بسببه سيكون الشفاء بإذن الله تعالى، فالشيء قد تراه في ظاهره شراً ولكن باطنه فيه رحمة ونفع، فلا بد من الرضا به والاستسلام له لأنك تعلم أن الذي قدره هو الله الحكيم، فهو حكيم في أقواله وأفعاله وهو الرحيم والخير، وهو سبحانه وتعالى الودود اللطيف، فليس حكيمًا فقط ولكن الحكمة معها رحمة وود ولفظ وكرم وغير ذلك من صفات جليلة عظيمة، فإذا نظرت إلى كل اسم من أسماء الله وعلمت معناه ستجد فيه الحكمة، فرحمته بحكمة، وبطشه بحكمة، ونزول العذاب على العصاة والجنة بحكمة، فسبحانه حكيم.

يعطي لحكمة، ويمنع لحكمة....

ولذلك كان أصحاب العقول الصحيحة والقلوب السليمة كما وصفهم

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

رسول الله ﷺ: «وإن كان أحدكم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء»^(١)، وكان النبي ﷺ يجلس يحدث أصحابه عن الأقوام السابقة وما حدث لهم من ابتلاءات كي يصبرهم ويسليهم، وهذا من الحكمة أنك إذا جلست مع أحد عنده مصيبة أن تحكي له عن شخص مبتلى بابتلاء أكبر منه حتى تهون عليه مصيبته، فينزل على قلبه الرضا، وهذا لا يعني أننا نتجاهل آلام وأحزان المبتلى، فالنبي ﷺ كان يعلم أن الصحابة أودوا أذى شديداً من قريش، فأراد أن يصبرهم ويعلمهم أن هذه سنة رب العالمين، وهي ماضية لا تتبدل ولا تتغير، فالنجيب الفطن لابد أن يفرح بالابتلاء فرحه بالنعمة لماذا؟ لأن النعمة عبء عليك فإن لم تشكرها فأت على خطر؛ لأنك ستسأل عنها بين يدي الله، فأت رزقت بنعمة البصر ترى الأشياء وتذهب في كل مكان بغير مشقة ولا مساعدة من أحد، وهناك الأعمى الذي فقد هذه النعمة، وأنت صحيح وغيرك مريض، وهناك من هو في المستشفى في قسم السرطان، وهناك من هو الآن في قسم الحروق حرق جسده بالكامل وأنت تعيش في رغد من العيش مقارنة بهؤلاء، وغيرك عنده من المصائب ما يعجز العقل عن تصورهما، فهناك من يموت على الحدود مثل أهلنا في سوريا، وهناك من عندهم مجاعات كما في أفريقيا وغيرها، فالمصائب كثيرة.

فالله سبحانه وتعالى أعطاك لحكمة وحرم غيرك لحكمة، فأت تأكل وتشرب ولا تحتاج إلى أحد، فهذه نعمة كبيرة فلا تكن من الغافلين.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والبيهقي في الشعب (٩٧٧٢) باختلاف يسير، والطبري في مسند ابن عباس (٤٢١)، وحسنه الوادعي في الصحيح (٤١٤)، وقال الألباني في الصحيحة (١٤٤): صحيح على شرط مسلم.

والرخاء يحتاج إلى شكر كبير قد لا يقدر الإنسان على القيام به، ولكن الابتلاء إن صبرت واحتسبت وفهمت معنى الحكيم ستؤجر عليه، وقد تُرفع به درجات، ولكن لا أحد يعلم هل سترُفع بالنعمة درجات أم لا، فقد يكون العبد عنده مال فكيف سيرُفع به درجات وهو لم يتصدق منه، فالنعمة كي تُرفع بها درجات لا بد أن تستعملها في طاعة الله على مراد الله، وهذا أمر ليس باليسير على كل الناس، ولو استعملت نعمة في مرضاته قد لا تستطيع أن تستعمل الأخرى، فلو أنفقت المال في سبيل الله فلن تستطيع أن تبذل جسدك لله حتى تُركي عن هذا الجسد، ولو وقفت تصلي بين يدي الله ﷻ وتبذل الجهد البدني فقد لا تستطيع أن تنفق مالك؛ لأن النفس شحيحة وهكذا، أما الابتلاء أنت مرفوع به درجات لو كنت محسنًا تقيًا، صابرًا محتسبًا راضيًا، لعلمك أن الذي ابتلاك هو رب العالمين الحكيم فهو يعلم ما يصلحك وما يفسدك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وإذا تأملت حكمته سبحانه، فيما ابتلى به عباده وصفوته، بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات، وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان، فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعته المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى

ما وصل إليه فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته^(١). انتهى.

ابتلي بأن أُخرج من الجنة وذلك ابتلاء من ربه شديد، فانظر إلى حزن المؤمن الصادق المحب لربه عندما يشعر أن الله أبعد، فهذا من أشد الآلام التي تصيب النفس، والتي لا تعادلها الآلام عند أهل الفهم، فالعبد قد يكون في قرب من الله ﷻ، ثم يُبعد أو يُطرد فهي مصيبة من أعظم المصائب، ولكن الله كان بنيه آدم ﷺ رحيماً.

ولولا ذلك البلاء لما وصل إلى تلك المنزلة من الاصطفاء والاجتباء وأنه نبي الله وأن كل البشرية من ذريته الذين منهم الأنبياء والصالحون.

وقال أيضاً: وتأمل حال أينا الثاني نوح وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً أن يصبر كصبره وأثنى عليه بالشكر فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾ [الإسراء]، وصفه بكمال الصبر والشكر^(٢).

فذاق العذاب النفسي الذي لا يعلمه إلا رب العالمين، وفي النهاية ما آمن معه إلا قليل، ولم ينتهِ الأمر عند ذلك ولكن ابتلي ابتلاء آخر أن ابنه وهو أحب الناس إليه كان كافراً ولم يتبعه، وهذا من أعظم البلاء الذي يُبتلى به المؤمن. أن يكون ابنه عاصياً، أما من استحوذ على قلوبهم حب الدنيا، فهم في غفلة لا يبالون بأمر الآخرة، فضلال أولادهم لا يؤثر فيهم ولا يحرك لهم ساكناً، خلاف من ملئ قلبه بالإيمان وحقق التوحيد، فإن هذا البلاء ينزل عليه

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٠٢).

(٢) المصدر السابق.

كالصاعقة، وقد تقرر أن أحب الناس إلى الإنسان هم أولاده، فمصيبة نبي الله نوح عليه السلام كانت عظيمة، نبي الله ومن أولي العزم من الرسل وابنه كافر. ولما صبر صبراً جميلاً، أقر الله عينه، وخرج من المحنة سالماً، وظفر باصطفاء الملك الحق له.

تأمل عظم المحنة، ولكن هؤلاء الأخيار كانوا يفقهون، فكانوا عند المحنة والابتلاء ثابتين كالجبال الراسيات، لا يهزها ريح، ولا تنسفها عاصفة.

«ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم و خليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصرة دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله و خليله محمداً أن يتبع ملته، وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، و جازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضاء منهما وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فذاه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن يبارك في ذريتهما حتى ملأوا الأرض»^(١).

«فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية ولهذا قال إبراهيم:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٠٠] [الصفات]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] ^(١)، فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله، وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملأوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

ولابد أن نقف ونسأل أنفسنا لماذا نريد إنجاب الولد؟

فالأخت التي تذهب إلى الأطباء حتى تحمل وتقوم بإجراء العديد من العمليات الجراحية فلأي شيء تريد إنجاب الولد؟ فتجد الكثيرات تريد الولد إرضاء لشهوة الأمومة والأب يريد الولد حتى لا ينقطع النسل، وهذا مباح، ولكن من الحسبان الخاسر أن يكون هذا هو الهم فحسب، وما فكر أحدهما في دعاء إبراهيم عليه السلام وكيف كان همه أن تكون الذرية صالحة، فالعقل يجعل له نية في إنجاب الولد بأن يكون صالحاً يقيم شرع الله ﷻ وينصر دينه وينافح عن سنة النبي محمد ﷺ ويدعو إلى الله، وأن تكون النية في إنجاب البنت أن تكون بنتاً صالحة فتكون زوجة وأماً صالحة وداعية إلى الله تعالى، فالسعيد من حفظ هذه النوايا وسعى في تحقيقها.

«فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله،

واحتماله ما لم يحتمله نبيُّ قبله، وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبائه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل

والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله فلم يُؤذَ نبيٌّ ما أُوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يُعْطَ نبيٌّ ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاءات عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات.

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كلُّ له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظُّه من الدنيا حظٌّ مَنْ خُلِقَ لها وخلقت له، وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغدًا، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب، يُمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في وادٍ، وهم في وادٍ، همُّه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه، فله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياء ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء»^(١).

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

ينبغي للداعي أن يصبر على المدعوين:

ويقول: لعلّي أنا المقصر في دعوتهم أو لعلّي أنا لم أكن على درجة عالية من الإيمان، أو لعل هناك شيئاً بيني وبين الله لم أصلحه، لذلك لم يجر الله الخير على يدي، ولم يجعل ثمرة ولا أثراً في العمل، فإن لم يجد نفسه مفراطاً أو مقصراً فليُسَلِّ نفسه بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف] ويجتهد في العبادة كذا كان يفعل نبينا ﷺ فكان يجد صنوف العذاب والابتلاء في الصباح ولكنه لم يتوقف عن دعوة قومه، ثم بالليل يقوم ويصلي حتى ترم قدماه فلماذا؟ حتى يقوم يدعو الناس بقلب قوي، قلب زكاه بالقيام والصيام وسائر الأعمال، فلم يؤذِ نبي كما أؤذي النبي محمد ﷺ.

لذلك إذا وجدت أحداً له شأن:

اعلم أنه رأى من صنوف العذاب والابتلاء ما لا يتحملة إلا الذين أعطاهم الله قدرة التحمل، فأَيُّ أحد رُزق منزلة إذا بحثت في سيرته تجد ما ذكرنا، فإذا أتيت بسير العلماء أصحاب المصنفات وقرأت عنهم لوجدت كم عذبوا وكم تعبوا، وأن لكل عالم منهم محنة شديدة جعلته وصل إلى ما هو فيه، فلن تجد ذا منصب ومكانة في الدين بغير ابتلاء، فهذه سنة الله تعالى فإذا أراد لإنسان أن يرتقي في مدارج الكمال، ويعلو فليعلم أنه لا بد من المحن التي هي بمثابة العقبة الكثود يصعد بها فيصل إلى الدرجات العلى.

فالرضا بما قُدِّرَ عليه لاسيما إذا جاء القضاء على غير مراد النفس لا

يكون إلا لمؤمن:

ولا يكون إلا ممن ثبت في قلبه معنى اسم الحكيم، وآثاره ومقتضاه،

كأمرأة عاشت مع زوجها مدة طويلة من الزمن وفجأة طلقها وتزوج غيرها، كيف تصل هذه المرأة إلى منزلة الرضا؟ فهو قد أخذ عمرها وشبابها وقد ضحت وبذلت الكثير كي تسعده، ثم طلقها وتركها وأولادها وتزوج، فهذا ابتلاء شديد يحزن له القلب وتدمع له العين، فإذا تفكرت في اسم الله الحكيم رضيت بقضائه؛ لأن من ورائه خيراً كثيراً لا يدرك إلا بتجرع مرارة الصبر عليه، سواء فقد زوج، أو ولد أو مرض، والرضا به سبحانه وتعالى سيكون سبباً في نجاتك، ولكن الكثير لا يعلمون فقه المعاملة مع القضاء، فهم يريدون الثمرة العاجلة، ولا ينظرون إلى ثواب الآخرة.

الأثر الثاني: اليقين الذي لا يخالطه شك أن الله خلق كل

شيء لحكمة؛

فسبحانه امتنع عنه أن يخلق شيئاً غير حكمة، وإن لم تظهر لنا، فقد خلق إبليس، وهو شر محض لا يأتي منه الخير في ذاته، ولكن لو نظرنا إلى الحكم التي من أجلها خلق الشيطان لتعجب كل ذي لب ولقال: كيف يأتي من الشيطان الخير؟! نعم هو في ذاته شر؛ لأن عداوته للعباد معلومة ولا يفعل إلا الشر ولا يوسوس إلا بالشر ولا يستفزك إلا للشر ولكن انظر إلى بعض الحكم من خلقه:

حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت؛

لذلك قال النبي ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١)، فهو سبحانه لم يخلق الشر للشر، ولكنه خلق شراً ليأتي من ورائه الخير سواء علمته أو لم تعلمه، فانظر إلى العبوديات التي استخرجت من قلوب المؤمنين بسبب وجود إبليس فمنها:

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

استخراج عبودية الجهاد:

التي هي من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها وذهبت، مثل الملائكة لا تجاهد لأنهم معصومون، لكن بوجود الشيطان في حياة البشر استخرج من القلب عبودية يُحبها الله ﷻ وهي عبودية الجهاد، فأنت تجاهد نفسك من الوقوع في المعاصي لأجل الله تعالى، فتوالي فيه سبحانه، وتعادي فيه، وتحب فيه وتبغض فيه، وتبذل النفس في محاربة عدوه، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيوسوس لك الشيطان وأنت جالس في مكان تريد أن تأمر فيه بالمعروف أو تنهى عن المنكر فيقول لك: لا تفعل فقد يتضايقوا منك، فتأتي عبودية الجهاد فتدفع وساوس الشيطان وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فهذا الجهاد تؤجر عليه، فإذا كان لك عدو تكرهه جداً ووجدت شخصاً يحارب هذا العدو من أجلك، فكيف يكون حبك لهذا الشخص؟! والله المثل الأعلى، فأنت تحارب عدو الله، وتجاهده حتى لا يمنعك من طاعة الله.

ومن أمثلة ذلك: تريد أن تقوم لتصلي الفجر، فيأتي الشيطان ويشببك، فيقول لك: اليوم شديد البرودة ارقد، وأنت تجاهد نفسك، وتحارب شيطانك لإقامة شعائر الدين، وتذكر نفسك أن ترك صلاة الفجر -أو غيرها من الصلوات- كبيرة من الكبائر، وكيف تسمع المؤذن يقول: «حي على الفلاح» وتتركه وتنام فكل هذا الجهاد محبوب إلى الله جل جلاله، ويقربك منه.

ومنها استخراج عبودية التوبة:

بأن ترجع إلى الغفور الرحيم، وتستغفره وتتوب إليه، فإنه سبحانه يحب

التوايين ويفرح بتوبتهم، والتوبة تكون من ماذا؟ تكون من ذنب فعل، وأنت كيف تقع في الذنب؟ يوسوس لك الشيطان بفعله، فالشيطان أوقعك في الذنب في لحظة غفلة، فالقلب يغفل لأننا بشر، والإيمان عندنا ينقص ويزيد، فقد يستقيم العبد على الأمر والنهي ولكن في لحظة ضعف يقع في المعصية، ثم يستغفر ويتوب ويندم ويبكي بين يدي ربه العلي الأعلى، ويسعى لفعل القربات ليكفر عن ذنبه، وهذه التوبة من أحب الأعمال إلى الله تبارك وتعالى فتكون بذلك من أحبائه وخاصة خلقه برجوعك إليه وتحقيق عبودية التوبة، فهذه العبودية ما كانت تُستخرج من القلوب إلا بنزع الشيطان ووسوسته فخلق لحكمة أم لا؟

ومنها استخراج عبودية مراغمة العدو:

ومراغمته في الله وإغاظته وذله ورجوعه منكسراً حسيراً خائب الأمل، عبودية يحبها الله رب العالمين، لذلك النبي ﷺ أخبرنا أنه إذا سها العبد في الصلاة ولم يدر هل صلى أربع ركعات أم ثلاثة يبنى على الأقل ثلاثة ثم يكمل صلاته ثم يسجد للسهو، فأخبر أن هذا فيه ارغام للشيطان، فإن كنت صليت ثلاثة فقط تكون بذلك أكملت صلاتك بالركعة الرابعة، وأما إذا كنت صليت أربع ركعات تكون بالركعة الزائدة أرغمت الشيطان^(١)، فقد وسوس لك في الصلاة حتى يُضيّعها منك، فأنت أرغمت بهذه الركعة، وأيضاً سجدت

(١) انظر: سنن الترمذي (٣٩٨)، وابن ماجه (١٢٠٩)، وتهذيب الآثار للطبري (٢٢)، وشرح السنة للبغوي (٢/٣٢٢)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/١٣٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥٦).

سجدتين للسهو، وهو يحزن عندما يسجد ابن آدم ويقول: «يَا وَيْلِي أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَيُّتُ فَلَئِي النَّارُ»^(١)، فأحزنت هذا العدو، وأرغمته وأرجعته خائبًا خاسرًا وهذا يحبه الله ﷻ، فكيف كانت تُستخرج هذه العبودية من دون الشيطان؟ فهذه الوسوس في ظاهرها شر ولكن في باطنها الخير والرحمة إن جاهدته.

ومنها أن يُتعبد لله بالاستعاذة من عدوه:

فلاستعاذة عبودية من العبوديات، وهي قول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فإذا استعذت بالله عند تلاوة القرآن أو عندما يوسوس لك الشيطان وأنت في الصلاة، فهذه الاستعاذة عبادة، لماذا هي عبادة؟ لأن معناها: طلب الاعتصام بالله، واللجأ إليه فكأنك تقول: يا رب أجرنى واعصمني من هذا العدو، وهذا من علامات صحة التوحيد، فالمؤمن يعلم يقينًا أن لا أحد في العالم يمكن أن يعينه ويجيره من هذا العدو إلا الله الملك الحق، الواحد الأحد الذي لا شريك له، فلاستعاذة عبودية تُظهر أنه «لا إله إلا الله»، إلى غير ذلك من الحكم التي من أجلها خلق الله تعالى الشيطان.

الأثر الثالث: معرفة حكمة الله في شرعه:

فلماذا شرع الله ﷻ التشريع على هذا الوجه؟ ولماذا شرع لنا هذا الدين على هذا الوجه؟ وهو ما يطلق عليه محاسن الشريعة، وهذا أمر غاية في الأهمية لأن اليوم ستجد كثيرًا من الغلط واللغط والمحاربة سواء كنت

(١) أخرجه مسلم (٨١).

تدرس في الجامعة أو تشاهد الفضائيات أو تتكلم مع عائلتك، وتجد الكثير يتكلم فيما لا يعلم، وكلما زاد السفه ونقص الإيمان كلما وجدت شطحات وطمات من العباد، فكثير من المسلمين فضلاً عن غير المسلمين لا يعلمون محاسن الشريعة، فلو قلت لأي مسلم كلمني عن محاسن شريعتك وعن عظمة هذا الدين لن يتكلم دقيقة أو دقيقتين ثم يتوقف لقلة بضاعته من العلم، وتجد آخر لا يعلم ماذا يقول، فهو يعلم أن الشريعة فيها محاسن ولكنه لا يعلمها، وهذا النوع مقبول، فهو لا يستطيع أن يتكلم ولكنه يعلم في الجملة أن هذا الدين هو الحق والنور، ولكن هناك الأسوأ من هذا، وهو من في صدره حرج مما شرّعه الله ﷻ وهذه مصيبة، ومن أسباب حرج الصدر أمران:

١- قلة العلم.

٢- السماع لأهل الباطل.

وهاتان آفتان خطيرتان أن تكون قليل العلم وأن تستمع لأهل الباطل فيضرب قلبك بأقوالهم الفاسدة وعقولهم القاصرة.

ولكن المسلم الحق:

هو الذي لا يكون همه إلا أن يرضي رب العالمين وأن يعبد كما يحب ويرضى، ولكن لا بد له أن يفهم ما هي محاسن الشريعة وكيف أن الحكيم وضع هذا الشرع بحكمة بالغة وغاية محمودة لا يصل إليها عبد مهما أوتي من قوة عقل وحسن تدبير، فحكمة الله في شرعه مستقرة في النفوس، فليس هناك إنسان عنده حكمة إلا ويعلم أن الحكمة الإلهية في هذا الدين عظيمة،

ومحاسن الشريعة واضحة جلية، وهذا لا يتعارض مع الإقرار بأن بعض المسائل تحتاج إلى بيان للناس، ويحتاج المرء إلى التأمل والتفكير ليفهمها.

«وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم، والملة الحنيفة، والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسننها، ولا تقترح عقول العقلاء- ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم - فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسننها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً، وآية، وشاهدًا على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها وممن ارتضاهم لها، فلهذا امتن على عباده، بأن هداهم لها قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) [آل عمران]، وقال معرفاً لعباده، ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيداناً في الدين بأنه لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارج عن الحكمة بوجه؛ بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة

بالتمام؛ إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها؛ بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار، وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً، وهم قابلوها وأتى في الكمال بـ«اللام» المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بـ«على» المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء أتممت في مقابلة أكملت، وعليكم في مقابلة لكم، ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكد ذلك، وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣) وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً» (١).

هل الناس في حاجة إلى الشريعة؟

فهل من الممكن أن تستقيم الحياة بغير إقامة شرع الله؟
اعلم أن «الحاجة إلى الشريعة أشد من الحاجة إلى التنفس - فضلاً عن الطعام والشراب - لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

بالعبور على هذا الجسر»^(١).

ذكر بعض محاسن الشريعة، وبيان حكمة الله في كل ما شرعه:

الشرائع كلها في أصولها - وإن تباينت - متفقة، مركز حُسنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة، بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وكيف يُجوزُ ذو العقل أن تردّ شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به.

فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها، التي تعبد بها

الخالق تبارك وتعالى عباده:

من تضمّنها للتعظيم له بأنواع الجوارح؛ من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين، والرأس وحواسه، وسائر أجزاء البدن، كلّ يأخذ حظّه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار.

مع أخذ الحواس الباطنة بحفظها منها، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها، فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير، وشهادة الحق، والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبّر المربوب، ثم التذلّل له في هذا المقام، والتضرع والتقرب إليه بكلامه، ثم انحناء الظهر ذلاً له وخشوعاً واستكانة، ثم استوائه قائماً ليستعدّ لخضوع أكمل له من الخضوع الأول، وهو السجود من قيام، فيضع أشرف شيء فيه - وهو

(١) ما بين القوسين من مفتاح دار السعادة (٢/٢).

وجهه - على التراب خشوعاً لربه واستكانة، وخضوعاً لعظمته، وذلاً لعزته، وقد انكسر له قلبه، وذلل له جسمه، وخشعت له جوارحه.

ثم استوى قاعداً يتضرع له ويتذلل بين يديه، ويسأله من فضله، ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنيًا على ربه، مسلمًا على نبيه وعباده، ثم يصلي على رسوله ثم يسأل ربه من خير وبره وفضله.

فأي شيء بعد هذه العبادة من الحسن؟ وأي كمال وراء هذا الكمال؟ وأي عبودية أشرف من هذه العبودية؟

فمن جاوز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل - وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها من السخرية، والسب والبطر^(١)، وكشف العورة، والبول على الساقين، والضحك والصفير، وأنواع المجون وأمثال ذلك - فليعز عقله، وليسأل الله أن يهبه عقلاً سواه!

وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنت

والخلة^(٢):

من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم، ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم، وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهارة، وإيثار أهل الإيثار، والإنصاف بصفة الكرم والجود والفضل.

(١) البطر: الطغيان في النعمة، وقيل: شدة المرح، وقيل: بطر الحق: أي يتكبر فلا يقبله -

انظر اللسان (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٢) الخلة: الحاجة والفقر.

والخروج من سمات أهل الشُّحِّ والبخل والدناءة، فأمر لا يستريبُ عاقلٌ في حُسْنِهِ ومصلحته، وأن الأمر به أحكمُ الحاكمين، وليس يجوزُ في العقل ولا في الفطرة ألبتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضدِّ ذلك أبدًا.

وأما الصوم، فناهيك به من عبادة تكف النفس من شهواتها

وتُخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين:

فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها، التحقت بعالم البهائم، فإذا كفت شهواتها لله، ضيقت مجاري الشيطان^(١)، وصارت قريبة من الله بترك عاداتها، وشهواتها محبة له، وإيثارًا لمرضاته، وتقربًا إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه، وأعظمها لصوقًا بنفسه - من الطعام والشراب والجماع - من أجل ربه، فهو عبادة، ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله.

فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه، وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى وبهذا فسر النبي ﷺ هذه الإضافة في الحديث، فقال: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»^(٢)، حتى إن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضى الله.

وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة وتقمع النفس، وتحبي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها، وترغب فيما عند الله وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم،

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ» صحيح البخاري (7171).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فتعطف قلوبهم عليهم ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكرًا.
وبالجملة، فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتنب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.
وإنه إنما شرعه إحسانًا إلى عباده، ورحمة بهم، ولطفًا بهم، لا بخلاً عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم، ورحمته بهم.

وأما الحجُّ فشان آخر لا يدركُهُ إلا الحنفاء الذين ضربوا في

المحبة بسهم:

وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة، وهو خاصة هذا الدين الحنيف، حتى قيل في قوله تعالى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ [الحج: ٣١] أي حجاجًا، وجعل الله بيته الحرام قيامًا للناس، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه، فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض، هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس.

فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قيامًا ما دام هذا البيت محجوجًا، فالحج هو خاصة الحنيفية، ومعونة الصلاة، وسر قول العبد: لا إله إلا الله، فإنه مؤسس على التوحيد المحض، والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته.

ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة، فشعارهم: لبيك اللهم لبيك، إجابة

محبّ لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها كان أحبّ إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبيك... لبيك، حتى ينقطع نفسه...

وأما الجهاد، فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها:

وهو المحك والدليل المفرق بين المحبّ والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه، متقرباً إليه ببذل أعز ما بحضرته، يودّ لو أن له بكلّ شعرة نفساً يبذلها في حبه ومرضاته، ويودّ أن لو قتل فيه ثم أحيى ثم قتل ثم أحيى ثم قتل^(١).

وهذا مثل ما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَحْدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُغْزَوُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أُغْزَوُ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أُغْزَوُ فَأُقْتَلَ»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، يحدث عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، غَيْرُ الشَّهِيدِ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ»^(٣).

(١) ما بين القوسين من مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٠-٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٢٦)، ومسلم (١٠٣-١٨٧٦)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (١٠٩-١٨٧٧).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: هذا من صرائح الأدلة في عظيم فضل الشهادة، والله المحمود المشكور^(١).

«يودُّ أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبدته ورسوله، ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صب لو يكون له أعز من نفسه شيء فذاك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها، وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وإذا كان من المعلوم المستقرُّ عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضات المحبوب، فالمحسوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له - وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة - أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم، وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبائحهم، وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأبي حسن يزيد على حسن العبادة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء، وأكمل الأمم عقلاً وتوحيداً ومحبة لله^(٢).

«لو تأملت في كل شعيرة من شعائر الإسلام لوجدت الحكمة ظاهرة في الأمر بها، أو النهي عنها، انظر ما أمر الله به من الضحايا والهدايا، والأيمان والندور، والمطاعم والمشارب والملابس والمناكب، وفرق في هذه الأنواع

(١) شرح مسلم (٧/ ٣١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

بين المباح والمحظور، والنافع والضار، والقيح والحسن، فمن المحال أن يكون المباح من ذلك مساوياً للمحظور في نفس الأمر، ولا فرق بينهما إلا مجرد التحكم بالمشيئة! سبحانك هذا بهتان عظيم»^(١).

وكذلك تحريم الظلم والكذب والزور والفواحش، كالزنا واللواط

وكشف العورة بين المملأ ونحو ذلك:

كيف يسوغ عقل عاقل أنه لا فرق قط في نفس الأمر بين ذلك وبين العدل والإحسان والعفة والصيانة وستر العورة، وإنما الشارع يحكم بإيجاب هذا وتحريم هذا؟!

وهل ركب الله في فطرة عاقل قط أن الإحسان والإساءة، والصدق والكذب، والفجور والعفة، والعدل والظلم، وقتل النفوس.... سواء في نفس الأمر، لا فرق بينهما وإنما الفرق بينهما الأمر المجرد؟! وأي جحد للضروريات أعظم من هذا؟! وهل هذا إلا بمنزلة من يقول: إنه لا فرق بين الرجيع والبول، والدم والقيء، وبين الخبز والماء واللحم والفاكهة، والكل سواء في نفس الأمر، وإنما الفرق بالعوائد؟! فأأي فرق بين مدعي هذا الباطل وبين مدعي ذلك الباطل؟ وهل هذا إلا بهت للعقل والحس، والضرورة والشرع والحكمة»^(٢)!

ليتنا نفهم عن الله، وندرك محاسن شرعنا الذي ارتضاه الله لنا، فلا نجد في أنفسنا حرجاً من أمره ونهيه، تبارك ربنا العليم الحكيم.

(١) ملتقط من المصدر السابق بزيادة وتصرف.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٢٦/٢) باختصار وتصرف.

اسم الله

الوفاة

٣٥

الواو

اسم من أسماء الله جل ثناؤه، جاء في القرآن بصورة الإطلاق، أي: ليس مشتقاً من الإضافة، ولا مشتقاً من الفعل.

وهو من الأسماء الذي عده جميع العلماء أنه مشتق من الأسماء الحسنی، إلا الوليد بن مسلم، في رواية مشهورة في الأسماء الحسنی، وكذلك الإمام الأصبهاني^(١).

ورد اسم الودود في القرآن في موضعين:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ [١٣] وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ [١٤] [البروج].

□ **معنى الودود في اللغة:**

الواو والدال: كلمة تدل على محبة، ودِدْتُهُ، ووَدِدْتُ أَنْ ذاك كان، إذا تمنيته، أَوَدُّ فيهما جميعاً، وفي المحبة الوُدُّ، وفي التمني الودادة، وهو وَدِيدٌ فلان، أي: يُحِبُّهُ^(٢).

قال الخليل: الودُّ: مصدر ودِدْتُ، وهو يودُّ من الأمانة، ومن المودة، ودَّ يودُّ مودَّةً، ومنهم من يجعله على فعل يفعل.

الوداد، والوداد مصدر، مثل: المودة، وهذا ودُّك ووديدك، كما نقول:

(١) راجع -إن شئت- باب التمهيد، الجزء الأول من الكتاب.

(٢) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٧٥).

حُبُّكَ وَحُبُّكَ ^(١).

قال ابن سيده: وَدَّ الشيءُ وَدًّا وَوَدًّا وَوَدَادَةً وَوَدَادًا وَمَوَدَّةً وَمَوَدَّةً: أحبه، قال:

إِنْ بَنِي لِلْأَمِّ زَهْدَهُ مَا لِي فِي صُدُورِهِمْ مِنْ مَوَدَّةٍ
أراد من مَوَدَّةٍ، قال سيويو: جاء المصدرُ في مَوَدَّةٍ على مَفْعَلَةٍ.... قال
الجوهرِيُّ: تَقُولُ وَدِدْتُ لَوْ تَفَعَّلَ ذَلِكَ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّكَ تَفَعَّلَ ذَلِكَ، أَوْدُودًا
وَوَدًّا وَوَدَادَةً وَوَدَادًا أَي تَمَنَيْتَ انْتَهَى ^(٢).

وكلمة الود تدور حول المحبة أو التمني:

قال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ
بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُمْ
الْحَقُّ فَأَعَقُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ [البقرة].

وَدَّ: تمنى، فقد تمنى بعض أهل الكتاب أن يردوا المسلمين عن النبي ﷺ
بعد أن رتبوا المكائد، وسعوا في ذلك، وهذا من حسدهم للنبي ﷺ، لما
اختصه الله ﷻ بالرسالة والنبوة.

وقال ﷻ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم].

وَدُّوا: تمنوا لو أنه ﷺ يميل عن الحق والطريق المستقيم، هذا أمل
ومطلب وتمنٍّ.

(١) العين لأبي عبد الرحمن الخليل (٨ / ١٠٠).

(٢) انظر: لسان العرب (٣ / ٤٥٤).

□ معنى اسم الودود في حق الله جل جلاله وتقدست أسماؤه:

«أما الودود: ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يُحب أنبياءه ورسله، وأوليائه، وعباده المؤمنين.

الثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحق أن يُحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه، وبصره، وجميع محبوباته»^(١).

وقد يكون معناه: «أن يُوددهم إلى خلقه، كقوله جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٢) [مريم: ٦١].

«هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم وداً؛ أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وداً، تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل»^(٣).

إذن معنى الودود يدور حول ثلاث معانٍ:

الأول: أنه سبحانه يحب عباده الصالحين من الأنبياء المرسلين والصديقين، ومن سلك نهجهم واتبعهم بإحسان.

الثاني: أنه سبحانه يستحق أن يُحبه عباده كل الحب، لما له من صفات الكمال والجلال، ونعوت الجمال، فقد فطرت القلوب على حب من أحسن إليها.

(١) ما بين القوسين من جلاء الأفهام (ص: ٤٤٧).

(٢) انظر: شأن الدعاء (ص: ١٤٥) باختصار.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٠١).

الثالث: تودد العباد لبعضهم البعض بقدرة الودود، فعمل أحدهم الصالح وإخلاصه وحبه لله جعل في قلوب الآخرين محبة له وودًا، فالله سبحانه يغرس في قلوب عباده المؤمنين محبة هذا الإنسان، على النقيض من أهل الدنيا فإنهم يبذلون الجهد والأموال، ويفعلون الأفاعيل ويكرمون الخلق كي يستميلون قلوبهم فيحبونه ويمتدحونه، وذلك اعتمادًا منهم على حولهم وطولهم، ثم لا يجدون إلا العداوة والبغضاء بينهم، وإن كان في ظاهرهم أنهم متحابون، كذبوا ورب الكعبة، فمن فقه حب الخالق لا يمكن أن يحب أو يُحب من الخلق إلا محبة إذلال وإهانة جزاء لعلمه.

أما مَنْ يغرس الله حبه في القلوب فإن القلوب تحبه، بغير سبب، فلا مصالح ولا أطماع تحملهم على محبته، ولكن الله سبحانه هو مَنْ وضع محبة هذا الإنسان في القلوب، وهذا من الألفة والتقارب والود الذي نراه بين المخلصين من المؤمنين.

يقول ابن القيم في نونيته:

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ	أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ	وَجَارَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ
هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مُعَا	وَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ
لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ	لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ ^(١)

«ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد،

(١) شرح القصيدة النونية، لجمع من العلماء (١٦٧/٣).

ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه ^(١)، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب وتهون عليهم المصائب وتلذذ لهم مشقة الطاعة، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه، فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله على محبة صار بها من أصفياه المخلصين ^(٢).

فأي عمل يُقدمه المرء لله من غير حب فإنه لن يشعر به، ولا يأتي بثمرة، فمن يُصلي بغير حب فإنه منذ لحظة دخوله في الصلاة ينتظر لحظة الخروج منها، وكذا من يصُوم بغير حب فإنه ينتظر مرور ساعات النهار بفارغ صبر حتى يؤذن للمغرب، ولذلك فإن الناظر لحال الكثير من المسلمين يجد أنهم لم يسعدوا بدينهم، هم يقومون ببعض الأعمال التي أمروا بها للنجاة من النار، ولكن روح الأعمال تأتي بالمحبة، كيف؟

إذا عُرف من هو الودود، فإن الحب يأتي، وحين يأتي الحب نجد روح العمل فيسعد القائم بالطاعة، وتسهل عليه الاستقامة.

(١) انظر تفصيل المسألة - إن شئت - في مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٤٤١-٤٤٣).

(٢) شرح القصيدة النونية، للسعدي، وجمع من العلماء (٣/ ١٦٩).

ومن ود الودود أن المؤمن إذا أحبه جازاه بحب آخر:

فإذا ذهب إلى مجلس علم - لأنه يُحب ربه ويريد أن يتقرب إليه - وجلس مُتنبِّهاً لتحصيل أكبر قدر من الاستفادة، فإن الله يُجازيه بحب جديد فهو الشكور.

والمقصود بهذه المحبة ليست المعاوضة وإن كان سبحانه يُحب الشكر، ويحب عباده الشاكرين، خلاف أهل الدنيا فإن مبدأ المعاوضة هو السائد بينهم، فعندما يُقدم أحدهم لغيره هدية أو يُسدي له معروفًا فإنه ينتظر المقابل. أما الرب تبارك وتعالى فإنه غنيٌّ عن عباده وعن عبادتنا وإن كان يُحبها، وغني عن أعمالنا وإن كان يُحب الشكر، فليس كمثله شيء سبحانه وهو السميع البصير، فالمرء ينتظر العوض من غيره لأنه بشر فإذا ما تعددت الخدمات التي يُقدمها لغيره دون أن يجد من هذا الغير تقديرًا مقابل خدماته له فإنه يُدير له ظهره، ولا يرغب في مجرد الحديث معه، في حين أن الرب الكريم الودود يتودد ويُيسر ويُنعم ويُعطي عطاء لا يعادله عطاء، والعبد لا يشكر، وبالرغم من ذلك يمده بعطائه، تبارك ربنا الودود.

اقتران اسم الودود بالغفور وبالرحيم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ [البروج]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٠﴾ [هود].

«سبحانه الموصوف بشدة البطش ومع ذلك هو الغفور الودود المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضًا أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ

يدل على الأمرين على كونه وادًا لأوليائه ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر بالزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود] وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان^(١).

فالرحيم إذا أخطأ الإنسان وأذنب يغفر الإساءة ويتوب على التائب، وهذه جزئية مهمة، فقد كان من الممكن الاكتفاء بها حيث أن الله تاب على الإنسان وكفى بها نعمة أن قبل توبة العبد التائب، ولكن أن يُسيء الشخص ثم يتوب الرب عليه ويغفر له ويرحمه ويعفو عنه ويتجاوز عن سيئاته ويبدلها حسنات، ثم بعد كل هذا يُحب هذا الشخص!!

أي عظمة هذه، وأي جمال هذا، لا يمكن أن يتصور هذا الوصف إلا مع الله جلّ ثناؤه.

وقد يقول قائل:

وأنا أفعل هذا، فقد يُسيء أحدهم إلي وأنا أسامحه وأغفر له، ومع الوقت أصبحت أحبه فما الفارق؟

يمكن أن يحدث هذا عند الإساءة مرة أو اثنتين أو ثلاثة وهذا هو أقصى شيء يمكن أن يتحمّله شخص من آخر، فالأمر لا يمكن أن يحدث على الدوام، أما معصية الله، فقد تصل إلى سنوات وسنوات؛ بل يمكن أن

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص ١٢٤).

تستغرق جُل عمر الإنسان، ثم بعد ذلك يتوب فيتوب الله عليه، وليس هذا فقط بل إنه يتودد إليه ويحبه ويُيسر له الأعمال.

سبحانه يتودد إلى الخلق بالنعم الكثيرة وبألطافه الجميلة، فأنعم عليهم بالنعم ولطف بهم في مواطن كثيرة، وهذه النعم منها الجلي ومنها الخفي ولا يوجد مخلوق يستطيع أن يُحصي نعم الله.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) [النحل].

ومن كان لا يستطيع أن يحصر هذه النعم فكيف له أن يشكرها!! فليس في وسع العباد أن يشكروها لكثرتها، نبذل قصارى جهدنا في حدود قدراتنا البشرية، مع اليقين الجازم أننا مهما عملنا من أعمال فإنها لا تليق بجلال الله تعالى.

تعلق القلب بالرب يكون على قدر العلم، وسلامة النفس من الآفات؛

فالقلوب السليمة، والعقول المستقيمة، والنفوس السوية السالمة من الآفات كلما كانت على علم بالله كلما ازداد تعلقها به، ونحن نحتاج إلى قلب معبد لله، لا جسد معبد له؛ لأن القلب المعبد لربه سيستخدم الجسد في العبادة ولا بد، أما الجسد الذي يعبد من غير قلب فإنه سيكون عُرضة للاحتكاس والرجوع في أي وقت وهذا هو الحاصل للبعض، فالآفة عندهم هي ضعف العلم عن الله وخاصة الأسماء والصفات.

فمعرفة أسماء الله وصفاته عظيمة وجليلة وجميلة، هذه المعرفة تجعل الإنسان يستحي وتضمحل كل محابه الدنيوية التي كان يعمل لها أعمالاً، ويبذل الجهد، والوقت، والمال في السعي لتحصيلها، فيستحيي من الله، مع

شعور يغمر القلب أننا نتقلب بين التقصير والتفريط في حق الملك الجليل العظيم الذي تفضل علينا بكل ما نحن فيه، وكلما ازدادت المعرفة كلما ازداد الود في القلب لله جلّ جلاله، وهذا من شكر النعم.

ومن نِعَم الله العظيمة التي يتودد بها سبحانه لعباده والتي لا يلتفت إليها الكثير من المسلمين، ولم يشكروه عليها هي نعمة الإيجاد.

سبحانه أوجدنا وأحيانا وأبقانا وأمدنا بكل ما تستقيم به حياتنا. كل نعمة نحن فيها هي بفضل إحسانه جلّ جلاله، فلك الحمد يا ربنا على ما تفضلت وأعطيت ويسرت ووفقت بغير طلب منا واستحقاق لنا.

ومن تودّده لعباده شرّع لنا الشريعة على أكمل وجه:

فشريعة محمد ﷺ كاملة، فلا نقص فيها ولا خلل، ولا مشقة ولا تعب.

قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةُ أَيْكُمْ إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

فلم يأمرنا الملك بأي أمر فيه حرج أو مشقة أو تعب، ولذلك فعندما يشكي شخص ويقول: أريد أن أفعل ما أمر الله به، ولكني لا أستطيع فماذا أفعل؟

الجواب: الواجب عليه أن يُراجع نفسه، ويعود إلى كتاب الله حيث بين لنا أن شرعه ليس فيه حرج، ولا مشقة ولا مانع من أداء الطاعة، أما مَنْ لا يستطيع القيام بالطاعة فعليه بالاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله سبحانه؛

لأن الطاعة كلها مُيسَّرة، ومن سُبُل التيسير الإذن بالصلاة للمريض وهو جالس، ومن لا يقدر على الصيام فعليه أن يفطر، مَنْ لا يملك المال فليس عليه حج، ولا زكاة، فأَيُّ عمل يمكن أن يُسبب المشقة للعبد فإن الله يرفع عنه الحرج فيه، مَنْ كان مريضاً أو صاحب عُذر يرفع عنه الحرج أما الصحيح فإنه لا يُعاني مطلقاً من أي تعب في أداء الواجب.

كلمة: (لا أستطيع) هي من كيد الشيطان للإنسان، لماذا؟

لأن هناك الكثير جداً قد حفظوا حدود الله، ولم يقربوها، ولم يتعدوها بالعصيان، فقاموا بأداء الواجبات، وزادوا عليها المستحبات، ولم يجدوا مشقة تمنعهم من الطاعة.

فالشرع ليس صعباً ولكن النفوس حين مالت إلى الدنيا صَعَبَ عليها أداء الطاعة، وكلما انغمس المرء في الشهوات وكلما مُلئت القلوب بالدنيا كلما وجدت المشقة في الطاعة والعكس صحيح، أما إذا أفرغ الإنسان قلبه من الدنيا واقترب من الملك الرحمن الرحيم الودود فإن الطاعة ستسهل عليه.

ومن تودده سبحانه وتعالى لعباده:

أنه دفع عنهم المكارة: فهناك أمور كثيرة جداً يكرها الإنسان ويأبأها فدفعها عنه الرب الودود ودفع عنه الشرور.

يسمع أحدنا هذه المعاني فيقول في نفسه: إنني مبتلى وحياتي مليئة بالأحزان والأوجاع، فكيف أدفع المكارة والشرور عني؟!

انتبهوا: البلاء سنة كونية ماضية لا تتغير، ولا تتبدل، ولكننا إذا نظرنا إلى ما ابتلي به العبد وقارنا بينه وبين ما دُفع عنه من شرور، لرأينا أن ما دُفع عنه

من مكاره كثير، وأنه لم يُتلى إلا بالقليل وإن تعددت عليه الابتلاءات فهي قليلة بالنسبة لما حماه الله منه وحجزه عنه.

أفيقوا: لأن هذا الاسم من الأسماء العظيمة الجميلة، فمن يكون الإنسان بالنسبة لهذا الكون حتى أنه يُخطئ في حق الملك ويتجرأ على معصيته وهو الملك الحق، ملك الملوك وبالرغم من كونه لا يُمثل مجرد ذرة في الكون إلا أن الودود يتودد له فيبتليه وذاك للتمحيص ومحو الذنوب ودفعه إلى الرجوع عن ما هو فيه، ثم يكافئ عبده بمحض كرمه.

أي حب في القلب يكون من تودد الله إليه:

فيُعطيه النعم، ومن نظر بعين البصيرة فإنه يرى هذه النعم ويرى أنها من ود الودود فيحمده عليها ويسأل نفسه ماذا فعل حتى يُعطيه ربه كل هذه النعم؟! **الجواب:** لأنه الودود، فإنه يتودد إلى العباد ويُحسن إليهم أعظم الإحسان فيتعذر إحصاء أجناس إحسانه فضلاً عن معرفة أنواع الإحسان^(١).

وكل نعمة من نعم الله تطالب صاحبها وتقول له اجعل حب الودود في قلبك، لا يصح أن يكون القلب فارغاً من حب الودود، ولكنه لا يسمعها، فالودود وحده هو المستحق للود، حين تفرح بنعمة قد امتنَّ عليك الله بها أيًا كانت هذه النعمة فانظر إليها بعين المُتأمل وستدرك أنها جاءتك بود الودود، والنتيجة الواجبة هي أن يُملأ القلب بوده فلا يكون فيه مكان لغيره لأنه هو المستحق وحده كمال الحب.

(١) ملتقط من فتح الرحيم الملك (ص ٦٦) وما بعدها، بتصرف وزيادة.

فائدة مهمة:

على الوالدين أن يغرسوا في نفوس الأولاد حب الودود لأن كثيراً من الأولاد الآن ينظرون إلى الطاعة على أنها مشقة فترى منهم من يعرض عن فعل الطاعات الواجبات، لا أقول المستحبات، حتى في بعض بيوت الملتزمين، والسبب أن الوالدين جعلوا الأبناء ينظرون إلى العبادة على أنها تكليف، والنفس بطبيعتها ترفض التكليف، وتلك هي طبيعة البشر، ولم يُربوا بداخلهم حب الله ﷻ، فكلمة: (افعل ولا تفعل) كلمة صعبة على النفس، فمن الحكمة أن يسبقها حب المُكَلَّف، حب الأمر سبحانه وتعالى، ومعرفة مَنْ هو الودود، عليهم أن يُبَصِّروهم بقدر حب الله لهم، فإذا كان الأب والأم يُحبون أولادهم حباً جماً لا يوصف، فإن حب الله أعظم وأعظم، وبهذا ينشأ جيل يحب الله أكثر من حبه لآبائهم وأمهاتهم والدنيا بأسرها، فيكتمل لهم الإيمان.

ومن تودد الله للعباد عدم تركه أحدهم إذا شرد عن الطريق:

قد يشرد المرء عن ربه، «ويتجراً على المحرمات، ويقصر في أداء الواجبات، والله يستره، ويحلم عليه، ويمده بالنعم، ثم يقيض له من الأسباب والتذكيرات والمواعظ والإرشادات ما يجلبه إليه، فيتوب وينيب فيغفر له تلك الجرائم، ويمحو عنه ما أسلفه من الذنوب العظام، ويعيد عليه وده ووجهه ولعل هذا سر اقتران الودود بالغفور»^(١).

وقد وصل - بعد هذا الود من ربه - إلى حال أفضل مما كان عليه وهذا كله بود الودود، وكم من إنسان يأس من التوبة وبعُدَ وشرد ولكن الله لم

(١) المصدر السابق بتصرف يسير.

يتركه لأنه الودود التواب، ولكن الود يسبق التوبة؛ لأن أصل الرجوع إلى الطريق كان بود الودود ثم جاءت التوبة بعد ذلك.

ومن كمال مودة الله تعالى للتائبين والمتقين أن يرحمهم، ويوفقهم لعمل الصالحات:

لأنه أرحم بخلقه من رحمتهم بأنفسهم، ومن رحمة بعضهم البعض، فهو أرحم بعبده من أمه وأبيه، وجميع خلقه.

ومن ذلك أن يجعل لهم سداداً ورشاداً في الأقوال والأعمال والأفعال، فيرشدهم ويُلهمهم ويوفقهم لما يحب ويرضى.

وكلما أحب التقي ربه واقترب منه بالطاعة وابتعد عن المعصية، فإن الله سبحانه يجعل الود في قلبه، فيتودد إليه بأن يوفقه لكل خير، وإن كان في حيرة من أمره جعل له فرقاناً، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] فإن كان في تعب أنزل على قلبه سكينه رغم عدم زوال المصيبة، إلا أن القلب ساكن، وربما صرفها عنه، كل هذا من كمال مودته لأوليائه وأصفيائه المتقين.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا

أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

كلما تقربنا إلى الله بالنوافل والمستحبات، فإنه يُنعم علينا بالحب والود، لأن حب الله يُنال بالنوافل، والدوام على فعلها، وبزيادة النوافل يزداد حب الله للعباد وتزداد مودته لهم.

فإذا أراد المرء أن يصلح الله له حاله، ويدفع عنه ما يسوؤه، ويجلب إليه ما ينفعه ويسره، فعليه تحقيق كمال الحب والرغبة فيما عنده، والخوف والخشية منه، وأن يلقي بنفسه على عتبة العبودية منكسراً ضعيفاً سائلاً الجبار أن يجبر كسره، ويعطيه سؤله، ويصرف عنه ما يضره في نفسه وأهله وولده، ويعينه على تخطي الصعوبات والعقبات.

□ آثار معرفة المؤمن لاسم الله الودود:

الأثر الأول: السعي إلى محبة الله ﷻ بل وملء القلب بهذه المحبة:

وحب الله شجرة يزرعها الرب تبارك وتعالى في قلوب العباد الموحدين شجرة معرفة، شجرة توحيد، شجرة تثمر كل شيء يُقرب إلى الله، فالمحبة أصل كل شيء يُقرب إلى الله.

ولكن كيف أصل إلى حب الله؟

كيف يكون الحب حقيقياً وليس ادعاء؟ كيف نصل إلى حقيقة المحبة؟ الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها:

ذكر ابن القيم هذه الأسباب العشر مجملة ونذكرها هاهنا بشيء

من التفصيل^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٣) مختصراً.

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به:

قراءة القرآن بتدبر رأس الأمر فهو كلام الله ولا يمكن أن تقترب إلى أحد بشيء أفضل من كلامه، والله المثل الأعلى، فما من وسيلة للتقرب إلى الله أفضل من كلامه؛ قراءة القرآن بتدبر وفهم لمعانيه، والوقوف عند الحدود، وفهم الأحكام، والنظر في الأوامر والنواهي، ونداءات الله تعالى للمؤمنين في القرآن، وأين نحن من تلك النداءات الربانية الموجهة للذين آمنوا. أما من يقرأون كتاب الله لمجرد القراءة وكثرة الختمات دون أن يخرج منه شيء فلن تحصيل لهم تلك النتيجة المرجوة من قراءة كتاب الله، وإن أثابه الله على التلاوة.

وللوصول إلى الفهم والتدبر يمكن أن يبدأ الشخص بكتاب من كتب التفسير، فيقرأ ويرى معنى الآيات، وعليه أن يجهد نفسه حتى يصل للفهم الصحيح، ومن المحزن بل ومن الابتلاءات التي ابتلي بها الكثير من المسلمين اليوم عدم الرغبة في القراءة، يكتفون بالسماع أو الرسائل التي تصل إليهم عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي، فهل هذا دين؟! هل يُتصور أن يرسخ الإيمان في القلوب ونصل إلى الجنة ولم نفعل شيئاً سوى سماع مقطع صوتي لمدة ثلاث أو أربع دقائق، أو درس كل أسبوع أو رسالة تأتي على الهاتف؟ هل بهذه الوسائل يمكن صلاح دين المرء؟ لو أن أحداً اعتقد ذلك لقلنا بفساد تصوره؛ لأن الدين كله بذل وعطاء.

فالنجيب السعيد من لازم كتاب الله، ولو صدقت محبته لكان القرآن هو رفيقه، فإن لم تكن محبته صادقة، فإن ملازمته لكتاب الله ستجلب له

تلك المحبة، ومَن كان حبه ضعيفاً فإن الملازمة تُقويه، ومَن شُغل بشيء فلن ينسأه ولن يُفارقه، فليكن شُغلنا الشاغل هو القرآن، ولنبدأ من الآن إن لم يكن هذا هو الحال قبل ذلك، تودد إلى ربك بحمل كتابه والانشغال به، وهنا يتودد إليك الودود بشيء أعلى وهو أن يجعلك تفتحه، وتقرأ فيه، فإن لم تفهم مما قرأت شيئاً، داوم على القراءة، لعلمك أنه سبحانه الودود، تودد إليه بالقراءة، ولو بغير فهم، فيتودد إليك الودود بالإنعام عليك بالفهم، بتسخير الأسباب التي تعينك على الفهم والعمل معاً.

اعلم أن من صفات الله وأسمائه سبحانه أنه العزيز، والعزيز لا يمكن التعامل معه باستغناء، كما هو حال طائفة من المسلمين يتعاملون مع ربهم بشيء من الاستغناء، وهذا يعني عدم الإلحاح في الطلب، أو عدم التوجه بكلية إلى الله في قضاء حاجته، ينبغي أن نتعامل مع الله جل جلاله بمقتضى صفاته وأفعاله.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى

درجة المحبوبة بعد المحبة:

كل طاعة لها نافلة، فلا نغفل عنها، ولا نتكاسل عن القيام بها، وقد سبق بيان فضل النوافل، وأنها من أسباب حب الله ﷻ للعبد.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال،

فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر:

السبب الثالث للوصول إلى المحبوبة، ذكر العبد لله على كل أحيانه، فمن الناس من يعلم قدره ومنهم من لا يعلم، وكلا الفريقين تاركان القيام به، أو أن هذه العبادة ضعيفة فلا يلتفت إليها إلا قليل.

يقول أحدنا إنه يذكر الله ولكن كم من الوقت يفعل ذلك؟ وكيف يكون حال قلبه وهو يفعله؟ يغفل عن أذكار اليوم والليلة، والذكر المطلق، أو يذكر وهو ساهٍ غافل لاهٍ وفي عجلة من أمره، ليس هذا هو المقصود بالذكر.

فمن الناس من يذكر الله بلسانه، ومنهم من يذكره بلسانه وقلبه، وهذا أفضل الذاكرين، فقد أخذ بحظ وافر من نوعي الذكر؛ ذكر اللسان، وذكر القلب. فإذا ما قال: سبحان الله، فعليه أن يعلم أنه يُنزه الله ويُبعد عنه النقائص وكل شيء لا يليق بجلاله مع تعظيم الله وإجلاله وهذا هو معنى التسبيح، فهو يُبعد كل نقص عن الله سبحانه فلا ينسب له الولد ولا الصاحبة ولا الظلم ولا الموت ولا النوم ولا السنّة ثم يُثبت له الجمال والكمال والعظمة والكبرياء.

لماذا كان الذكر من علامات حب الله؟

لأن الإنسان عندما يُحب شيئاً فإنه كثيراً ما يتكلم عنه ويذكره، فصدق المحبة يجعل المحب دائماً يتكلم عن محبوبه، فإذا أراد شخص أن يعرف ما هو أكثر شيء يُحبه فليراقب نفسه ويرى ما هو أكثر شيء يتحدث عنه وهنا سيعرف من هو محبوبه.

إبليس اللعين لا يترك فرصة إلا ويغتنمها ليشغل الإنسان بسفاسف الأمور، ويُضيع عليه أوقاتاً يمكن أن يستثمرها في أداء طاعة من أشرف وأعظم الطاعات ألا وهي ذكر الله سبحانه، يكفيك شرفاً أن الله يذكرك في الملاء الأعلى حين تذكره.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا

معه إذا ذكّرني، فإن ذكّرني في نفسه ذكّرتُه في نفسي، وإن ذكّرني في مالا ذكّرتُه في مالا خيرٍ منهم، وإن تقرب إليّ بشبرٍ تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولاً».

الرابع: إيثَارُ محابّه على محابّك عند غلبات الهوى:

السبب الرابع هو جهاد الهوى وهو: ميل النفس إلى الشيء وفعله، فقد يجد بعض العقبات في طريقه تحول بينه وبين اتباع الحق، ولكن بالجهاد يصل المرء لمبتغاه بتوفيق الله.

قال جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) [النازعات].

نهي النفس عن الهوى يكون المقابل بالنسبة له هو الجنة، فالإنسان الذي يرد هواه ويمنعه ولا يتبعه، تكون ثمرة جهاده جنة المأوى. تُعرض الفتن والابتلاءات والمعاصي على العبد وهو لا يعرف ماذا يفعل، فأمامه المعصية وأمامه طاعة الله، فإن كان مُحِبّاً لربه بصدق فإنه لن يتبع هواه، وإن كان الأمر ما زال بالنسبة له في بدايته ولم يرسخ الحب في القلب بعد، فعليه أن يُجاهد هواه ولا يتبعه وهنا سيأتيه ود الودود سبحانه، وكما سبق القول فإن كل ود يتقرب به العبد إلى ربه يكون له ثمرة ود من عند الودود.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها

وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومبانيها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة؛

مطالعة القلب قبل العين أو الأذن لأسماء الله وصفاته، ويا له من باب

عظيم من أعظم الأبواب وأعلاها عونًا للإنسان على أن يقترب من ربه، فيعرف مَنْ هو الله فإذا عرف مَنْ هو الله هان عليه كل ما يلقاه من هموم وغموم وأحزان وآلام، لعلمه أن ربه كريم منان، إذا أخذ أعطى، وإذا منع منح، فيزداد حبًّا له، وخسر ورب الكعبة كل من غفل عن هذا الباب.

كان حكيمُ بنُ حزام يطوفُ بالبيتِ ويقول: لا إله إلا الله، نعم الربُّ ونعمَ الإلهُ أحبه وأخشاه.

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها

داعيةٌ إلى محبته:

قد يأتي على المرء هُنيهة يكون في حالة من الفتور في العبادة، وعليه في هذه الأوقات أن يُشاهد مشاهد برّه وإحسانه، فيرى آلاءه الجسيمة، ونعمه العظيمة، وهذا المشهد من النعم والإحسان يدفع المشاهد إلى العمل. ولكن ماذا يفعل الإنسان المُفتقر إلى العلم؟ أو ما هو دور إبليس مع الإنسان حتى لا يُشاهد هذا الإحسان وتلك النعم؟

يمنع الشيطان الإنسان من رؤية إحسان الله ونعمه عليه مهما بلغ كم هذه النعم، وفي المقابل يجعله لا يرى إلا الابتلاء ولو كان يسيرًا فلماذا؟ حتى لا يشكر؛ فيُكتب من الجاحدين بدلًا من أن يُكتب في ديوان الشاكرين، وبدلًا من أن يقترب من ربه بالودّ يتعد عنه بعدم الشكر.

فإذا ذكّرهُ الشيطان بالابتلاء فعليه أن يُذكّر نفسه بالنعم، فيطلع الودود على قلبه وهو يُجاهد نفسه بتذكيرها بالنعم ودفع وساوس الشيطان الخبيث اللعين، فيزيد الود في القلب فإذا زاد الودود في القلب جاءه الخير في الدنيا قبل الآخرة.

السابع: وهو من أعجبها؛ انكسار القلب بكلّيته بين يدي الله تعالى؛

من أعجب العبادات والتي يمكن أن يتقرب بها العباد إلى الله - بالرغم من غفلة الكثير عنها - باب انكسار القلب بكلّيته بين يدي الله فيشهد مشهد العز والجلال والجبروت والملكوت، وأنه سبحانه هو ملك الملوك، وهو الذي أذن لعبده الفقير أن يطيعه، فيتأدب العبد بأدب العبودية، فإذا قام يصلي فليصل وهو حاضر القلب غير لاهٍ أو غافل فيُعطي الصلاة حقها الخشوع والانكسار.

تحقيق الانكسار حال المعصية: بأن يشعر أنه عصى الملك ولكنه لم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فهو القاهر فوق عباده القادر عليهم، ولكنه الرحمن الرحيم، الكريم الودود، إذ لم ينزل عليه عذاباً لحظة المعصية، بل ستره وأكرمه وأمهله، وإن تاب قبله، فإذا فقه هذا انكسر القلب.

أما الانكسار حال الطاعة، فبالنظر في عيوب النفس وآفاتِها، وأنها ليس فيها خير ألبتة، وكل ما تقوم به من أعمال بفضل الله ورحمته، ولولا إنعامه وإحسانه إليها ما استطاعت القيام بما افترضه عليها، فضلاً أن تزيد عليه نوافل الأعمال.

قال سبحانه: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ

تَجْرُونَ﴾ [النحل].

الثامن: الخلوة به وقت النّزول الإلهي؛ لمناجاته وتلاوة كلامه،

والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبوديّة بين يديه، ثمّ ختم ذلك

بالاستغفار والتّوبة؛

لقد كان المتصور أن العبد الفقير الضعيف الذليل هو الذي يلجأ إلى

الملك الحق ويستأذن كي يأذن له بالدخول في حماه، فإذا ما أذن له الملك بالدخول فإنه ينخلع قلبه من شدة الفرح، أما أن يقترب الملك نفسه إلى هذا الضعيف، فهذا من كمال حمده، وسعة رحمته، وعظيم إحسانه لعباده.

فليس العجب أن يتذلل العبد الفقير الضعيف إلى ربه، ولكن العجب كل العجب أن الرب الكريم الغني العلي الأعلى الملك القدوس القوي العزيز من له كل صفات الجمال والكمال والجلال، ينزل إلى السماء الدنيا توددًا للعباد من أجل أن يسأله فيُجيبهم، فمن نحن حتى يتعامل معنا ربنا بكل هذا الفضل والبر والإحسان والكرم؟ فهل مع كل هذا الكرم يمكن أن يكون العبد في تلك اللحظات غارقًا في نومه ولا يقوم ولو لدقائق معدودة ليركع فيها ويسجد للملك الجليل ولو ركعتان، فلن تستغرقا وقتًا طويلاً، ولكن فيهما صلاحٌ للقلب، وإرواء لشجرة المحبة، فتروى هذه الشجرة بقيام الليل، فذلك من الأسباب التي تؤدي إلى ثبات الود في القلوب.

الثاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطيب ثمرات كلامهم

كما ينتقي أطيب الثمر، ولا تتكلم إلّا إذا ترجّحت مصلحة الكلام،

وعلمت أنّ فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك؛

فمجالسة أصحاب الدنيا ومن امتلأت قلوبهم بالغل والحسد وغيرها من أمراض القلوب وأصحاب الألسنة التي تنطلق بالباطل للخوض في هذا وذاك، هل يمكن أن ينصلح حال من يُجالسهم؟ فرؤية الفاسدين تهوي بإيمان العبد وهو لا يدري، فلا يمكن أن يأتي صلاح القلب بمجالسة من كان هذا حالهم.

في حين أن مجالسة الصالحين على العكس من ذلك، فمجرد رؤيتهم تُذكّر بالله، أما رؤية أصحاب المعاصي فإنها تضر إيمان الإنسان وأقل شيء يمكن أن تحدثه من أثر عليه هو إلف المعصية، أي عدم إنكارها ولو بالقلب، وهو أضعف الإيمان، وإذا كان مجرد رؤيتهم يضر القلب فما هو الحال إذا ما جالسهم واتخذ منهم أصحابًا!!

العاشر: مباحدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ:

البُعد عن كل شيء يحول بينه وبين الوصول إلى ربه الودود، أي كلام وأي عمل يمكن أن يحول بين الشخص وبين الوصول إلى الله ينبغي أن يتعد عنه، لماذا؟ كما سبق القول: يحبهم ويحبونه، فالله يحب عبده ويتودد إليه، فإذا ما عرف العبد معنى هذا الود وعرف كيف يستفيد منه، ويتنفع به فسوف يزداد، وإذا لم يعرف فيكون قد أغلق على نفسه باب الود.

الأثر الثاني لمعرفة اسم الودود: الاجتهاد في التودد إلى الله بكل

ما يحب على قدر الاستطاعة:

قال تعالى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، وعن النبي ﷺ قَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا»^(١).

فلن يستطيع الشخص أن يعمل كل شيء، ولكن عليه كلما استطاع أن يعمل عملاً ما ورأى أنه في مقدوره أن يعمل به فلا يكسل عن القيام به، وكلما أمره الله بأمر في القرآن فعليه أن يحاول أن يصل إليه.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فإذا سمع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) [آل عمران].

هنا هو عرف أن الصبر سبب في حب الله وبالتالي بدأ يُجاهد في تحقيق الصبر بمعانيه ودرجاته.

وإذا سمع قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) [آل عمران]، فيُجاهد حتى يصل إلى الإحسان قدر استطاعته، فيُحسن إلى الخلق ويحسن إلى الله.

الإحسان مع الخلق: هو عدم رد الإساءة بالإساءة فمهما أحدثوا له من أذى فإنه لا يرد بالمثل، بل بالإحسان.

الإحسان مع الله: مراقبة الله جلَّ جلاله.

وهكذا كلما قرأ القارئ ومر على عمل يحبه الله ويحب صاحبه فعليه أن يتوقف، وهذا هو التدبر الذي يحمل على العمل فيُجاهد نفسه للقيام بهذا العمل ومع الوقت يصل إلى كل ما يحبه الله ويرضاه.

الأثر الثالث: التودد إلى الله بحب النبي ﷺ:

الناس في حبهم للنبي ﷺ ينقسمون إلى فريقين:

فريق يحب النبي ﷺ حباً روحياً، فقلوبهم معلقة بالنبي ﷺ، فإذا ذكر صلى عليه، وإذا سافر إلى الحج أو العمرة كان لديه رغبة في زيارة قبره ﷺ، وهذا النوع من الحب لا يخلو قلب مسلم منه ومن لا يحب النبي ﷺ هذا الحب فإنه منافق، ولكن هل هذا النوع من الحب هو الذي يتودد به المسلم إلى الله؟ لا، فهذا النوع درجة ولكن الحب الذي يتودد به المسلم إلى الله

والذي يصل به إلى كمال الود هو التودد بحسن اتباعه في أقواله وأفعاله، في امتثال أمره، وترك نهيه، وهكذا في الدين كله، وهذا هو الفريق الآخر.

الأثر الرابع: محبة المؤمنين وتمني الخير لهم:

حب العبد للمسلمين والمؤمنين وتمني الخير لهم؛ «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١) والحب بين العباد له أنواع وصور كثيرة ولكن أفضلها وأعلاها الحب في الله، فذاك أوثق عرى الإسلام، واليوم نرى أن الحب الصادق - في الله - أصبح قليلاً جداً، وإن ادعى الكثير غير ذلك. فالبون شاسع بين شروط المحبة الحقيقية وبين ما يدعيه البعض أنه يحب فلاناً وفلاناً في الله.

فالحب في الله له علامات، والمسلم عليه واجبات وله حقوق، ولذلك عليه أن ينظر أولاً هل أدى ما عليه من واجبات قبل أن يطالب ما له من حقوق، أم أن القلب يكذب ما ينطق به اللسان، فالقلب به معان مغايرة لما يجري على اللسان.

فنحن نتقرب إلى الله بحب بعضنا البعض في الله، ونتودد إليه بهذه المحبة التي ثمرتها الوقوف في ظل عرش الرحمن يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بَجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إِنَّكَ إِذَا أَحْبَبْتَ الشَّخْصَ لِلَّهِ، كَانَ اللَّهُ هُوَ

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

المحسوب لذاته، فكَلِّمًا تصوّرتَه في قلبك، تصوّرت محبوب الحقّ فأحبّيته، فازداد حبّك لله، كما إذا ذكرت النّبي ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصّالحين، وتصورتهم في قلبك، فإنّ ذلك يجذب قلبك إلى محبّة الله المنعم عليهم وبهم، إذا كنت تحبّهم لله، فالمحسوب لله يجذب إلى محبّة الله، والمحبّ لله إذا أحبّ شخصًا لله فإنّ الله هو محبوبه، فهو يحبّ أن يجذبه إلى الله تعالى، وكلّ من المحبّ لله والمحسوب لله يجذب إلى الله»^(١).

أسأل الله أن يرزقنا العلم والعمل وأن نحقق منزلة الود تلك المنزلة العالية الغالية، نسأله سؤال المساكين المنكسرين أن يملأ قلوبنا بوده وود عباده الصالحين.



اسم الله



الْمُنِجُّكَ

الْعَجَّازُ

الْأَعْلَى



٣٨-٣٧-٣٦



الأعلى - العليّ - المتعلّ

هذه الأسماء الثلاثة ثابتة لله تبارك وتعالى بالنص، وقد عد جماهير العلماء هذه الأسماء أنها من الأسماء الحسنى ^(١).

أما اسم الله تعالى الأعلى: فدليله قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَثْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل].

ويقال: قد استعلى فلان على الناس إذا غلبهم، وقهرهم وعلاهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ [طه] ^(٢).

وفلان من عليّة الناس، وهو رجلٌ عليّ، أي: شريف رفيع.

ويقال: رجل عالي الكعب، أي شريف، قال: لما علا كعبك لي عليّت.

ويقال: لكل شيء يعلو: علا يعلو، فإن كان في الرفعة والشرف قيل: على يعلّى، ومن قهر أمراً فقد اعتلاه، واستعلى عليه وبه ^(٣).

وأما اسم الله العليّ: فقد جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج]، وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ [الشورى].

وأما المتعال: جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

(١) انظر: الجزء الأول من الكتاب - باب التمهيد.

(٢) تهذيب اللغة (٣/ ١١٨).

(٣) الصحاح للجوهري (٤/ ٢٤٣٤).

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١﴾ [الرعد].

□ المعنى في اللغة:

قال ابن دريد رَحِمَهُ اللهُ: العلو ضد السفلى - والعلو: مصدر علا يعلو علوًا، فيقولون: جاء من علو يا هذا، ومن علوى^(١).

ومعنى قولهم «تعالى جدك»: علا جلالك وارتفعت عظمتك.

وقال الشاعر:

تَرْفَعُ جَدَّكَ إِنِّي أَمْرُو سَقَتْنِي الْأَعَادِي إِلَيْكَ سَجَالَا

معناه: ترفع جلالك^(٢).

وقال ابن السكيت رَحِمَهُ اللهُ: سفل الدار وعلوها، وسفلها وعلوها ويقال: علا فلان الجبل إذا رقيه، يعلو علوًا.

وعلا فلان فلانًا إذا قهره، وعلا فلان في الأرض: إذا تكبر وطغى^(٣).

إذن المعنى في اللغة يدور حول: الارتقاء، التعاضد، القهر، الاستعلاء، التكبر، المكانة والشرف والجلال.

□ معنى هذه الأسماء في حق الله جلَّ جلاله:

ينبغي أن نعلم أن الملك سبحانه وتعالى له علو الذات، وعلو الصفات.

علو الذات: فهو مستوٍ على عرشه فوق سبع سماوات، فإذا ما قيل أين

الله؟ قلنا: إنه فوق سبع سماوات مستوٍ على عرشه، وهذا الاستواء استواء

(١) جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٩٥٠).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٥٤).

(٣) تهذيب اللغة (٣/ ١١٨).

يليق بجلال وكمال الله ﷻ، كما تقرر عند أهل السنة والجماعة.

أما علو الصفات فإنه يعني: أن صفات الله كاملة غاية الكمال فليس فيها نقص ولا يعثرها آفة ولا فناء.

وقد سبق القول أن من معاني العلو الجلال والشرف وليس الارتفاع فقط، فعندما يُقال علو الصفات فإن المقصود هو: أن هذه الصفة في أعلاها.

مثال: صفة الكرم فهو في أكمل وأعلى درجة من الكرم، وكذا صفة الرحمة فهي أعلى رحمة، كذا صفة السمع هي في أعلاها فهو السميع على الحقيقة، ولا أحد يضاهي هذه الصفة ولا غيرها من الصفات ولا يقترب منها، فإذا قلنا إن الخلق يسمعون فإن سمعهم قاصر، فالبشر عاجزون أن يسمع أحدهم أكثر من صوت بحيث يستطيع أن يميز بين كلام كل منهم، ولكن الله يسمع الجميع وفي آن واحد، فبالرغم من كثرة الأصوات واختلاط الكلام إلا أنه سبحانه يُدرك الأصوات كلها فلا يأتي كلام أحد على أحد فيختلط عند الله، ولا يخفى عليه بعض كلامهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المُجادلةُ إلى رسولِ الله ﷺ تُكَلِّمُه في جانبِ البيتِ ما أسمعُ ما تقولُ فأنزلَ اللهُ ﷻ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] الآية»^(١).

اعلم أن الله تعالى صفات جلال، وصفات جمال، وصفاته كلها كمال:

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٦/٦)، والنسائي (١٦٨/٦)، وابن ماجه (٢٠٦٣)، والبخاري تعليقا مع الفتح (٣٧٢/١٣)، وصححه الحافظ في تعليق التعليق (٣٣٩/٥)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٤٦٠)، وصحيح ابن ماجه (٣٤٦٠).

أما صفات الجلال: كالعزة، القوة، الجبروت، القهر وغيرها أي الصفات التي إذا ذكرت ارتعدت فرائص العبد، وامتلاً قلبه خشية وخوفاً إذا ما عرف مَنْ هو العزيز على الإطلاق، فله العزة والجبروت والقوة والعظمة والملكوت والكبرياء والجلال، فتلك المعاني تهزُّ القلوب الحية النقية.

فالصفات التي تحمل معاني الجلال لله سبحانه لا تُماثلها صفات أحد ومهما أوتي الشخص من قوة وجبروت وملك إلا أن كل ما لديه محدود وقاصر ويمكن أن تُسلب منه في لمح البصر.

انتبهوا: حتى تعلموا مَنْ هو الله وَمَنْ هم البشر؟ وحتى لا يحزن أحد على العباد أو ينشغل بهم.

لقد ضاعت الأعمار وفُتيت الأوقات ونحن نخدم بعضنا البعض ويراعي بعضنا البعض من أجل الدنيا، نبحث عن إرضاء الناس، الزوج، الزوجة، الأصحاب، الأولاد، وإن كان مقابل ضياع حق الله تعالى علينا.

فحري بنا أن نعرف مَنْ هو العلي الأعلى الذي له كل صفات العلو ومع هذا الجلال والقوة والجبروت والقهر فإنه لا يظلم أحداً، في حين أننا نرى أن البشر إذا ما أوتي واحد منهم شيئاً من القوة أو المكانة فإنه إذا أساء إليه غيره فإنه لن يتوانى في أخذ حقه، ويسعى لاستيفائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا ينتظر حتى يُفكر فيما سيفعله تجاه هذا المسيء، وما إذا كان فعله هذا سيكون ظالماً فيه للآخر أم لا، هل هو عادلٌ فيه أم لا؟ ولكنه سينتقم وسيكون انتقامه شديداً وربما يفوق ما يستحقه المسيء من العقوبة فتكون أكبر من الإساءة، لماذا؟

لأن الإنسان ظلوم جهول، فإن لم يكن تقيًّا، وأعطى له الله من السلطان أو القدرة أو القوة فإنه يتجنى على خلق الله، أما الرب تبارك وتعالى فلا يظلم مع كمال ما له من القوة والقدرة والعلو في كل الصفات، كما أنه لا يؤاخذ أحدًا ابتداءً، فلو أن شخصًا اقترف جملة من الذنوب فهل سيُعاقب على كلها؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن الرب يقول: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) [الشورى].

فيُخطئ العباد ويُذنبون ويقعون في المعاصي ولكن العفو يعفو عن الكثير، فإذا ما طغى الإنسان وبغى وتكبر وتجبر، ولم ينته عن المعاصي، فإنه الله يُنزل عليه - إن شاء - العقاب بفعله الشنيع.

فمن عرف الرب تبارك وتعالى، علم أنه يتجاوز ويعفو عن كثير مما صدر من العباد من مخالفات لأمره، وإن كنّا نستحق أن يخسف بنا الأرض إلا أنه سبحانه لم يفعل؛ لأنه هو الرحمن الرحيم.

فسبحانه وتعالى هو العلي الأعلى المتعال، عليُّ بذاته فوق عرشه. والعلي بظهره لجميع خلقه، والعلي بقدرة لكمال صفاته، العظيم الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة.

سؤال يُطرح: هل هذه الصفات الجميلة تقتضي من الله ﷻ أن يعفو عن المذنب على وجه الدوام، وفي كل وقت وعلى أي حال؟

لا، فمع كمال الرحمة وكمال العفو والود والمغفرة والإحسان والعطاء وكل كمال في كل جمال لله، فإنه إذا اقتضت حكمة الله أن يُعاقب المذنب فإنه سيُعاقبه؛ قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي

هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر] وغيرها من الأدلة، حتى لا يطمع العاصي وَمَنْ أسرف على نفسه بالذنوب، وأن الله هو الكريم الرحمن الرحيم العفو وسيعفو عن الجميع وسيدخلون الجنة بغير سابقة عذاب.

الخبير بالأحوال وبالقلوب والعقول، الخبير يعلم يُعاقب مَنْ ويعفو عن مَنْ.

واعلموا: أن الحنو الزائد والرحمة الزائدة قد تُفسد مَنْ تحنون عليهم، فالأب الحنون بصورة زائدة غالبًا ما نجد أبناءه عاقين له ولأهمهم كذلك، ونادرًا ما نجد من هؤلاء مَنْ هو مستقيم على الحق، لماذا؟ لأنه كما قيل: فإن مَنْ أمن العقوبة أساء الأدب.

فَمَنْ شَعَرَ أَنَّهُ لَنْ يُعَاقَبَ وأنه آمن من العقوبة فإنه سيُسِيءُ الأدب مع كل من أدام له العطاء وامتنع عن العقاب، سواء أكانت الأم أو الأب والأعلى منه مكانة وهذا الأمر واقع مشاهد، فالإنسان الطيب دائمًا ما يكون مهضوم الحق لماذا؟ لأن مَنْ يعرفه يتجرأ عليه طمعًا في المسامحة.

فمن غلب عفوه وإحسانه حزمه وقت الاحتياج للحزم لن ينجح في ضبط المسؤول عنهم سواء أكان في العمل، أو البيت أو في العلاقات مع الناس.

اعلم أن «من لوازم اسم العلي: العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه العلي»^(١).

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧).

قال ابن القيم رحمه الله:

هذا وثانيها صريح علوه وله بحكم صريحه لفظان
لفظ العلي ولفظه الأعلى معرفة أتك هنا لقصد بيان
إن العلو له بمطلقه على التعميم والإطلاق بالبرهان
وله العلو من الوجوه جميعها ذاتا وقهرا مع علو الشأن^(١)

فعلو الله مُصرح به في القرآن واضح وله ألفاظ فجاء بمعنى العلي وبمعنى
الأعلى ولكنه سبحانه له العلو المطلق علو الشأن والصفات والقهر والذات.
ومن أهل العلم مَنْ قال: «العلي»: هو العلي القاهر، فعيل بمعنى فاعل،
كالقدير والقادر والعليم والعالم، وقد يكون ذلك من العلو الذي هو مصدر
علا، يعلو، فهو عال، كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ [طه] ويكون
ذلك من علاء المجد والشرف، يقال منه: علي يعلى علاء، ويكون الذي علا
وجل أن تلحقه صفات الخلق أو تكييفه أو هامهم^(٢).

ما هو الفرق بين العلي والأعلى؟

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ [الأعلى].
وقال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة].
قال السعدي رحمه الله: إن العلي يدل على كثرة الصفات ومتعلقاتها
وتنوعها، والأعلى يدل على عظمتها^(٣).

(١) جامع الشروح والتعليقات العلمية على القصيدة النونية (١/ ٦٣٧).

(٢) انظر: شأن الدعاء (ص: ١٣٥).

(٣) انظر: فتح الرحيم الملك العلام (ص: ٥١).

فحين يُقال العلي: فإن المقصود هو أن الله سبحانه له صفات كثيرة جداً وهذه الصفات لها تعلقات، فالرحمن متعلق برحمة العباد، والرزاق متعلق برزق الخلق أجمعين، وهكذا، وهي متنوعة، فمقتضى الرحمة غير مقتضى القهر، ومقتضى الرزاق غير مقتضى الحكيم، وهكذا.

أما الأعلى فهو يدل: على عظمة الله جلّ جلاله.

اقترن اسم الله العلي باسمه العظيم:

بالنظر في كتاب الله سبحانه نجد أن اسم الله العلي قد اقترن باسمه العظيم، وشرع الله لعباده هذين الاسمين في الركوع والسجود.

فعن حذيفة رضي الله عنه، «أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يقول في ركوعه: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، وفي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، وما مرَّ بآية رحمةٍ إلَّا وَقَفَ عِنْدَهَا فَسَأَلَ، وَلَا بآية عَذَابٍ إلَّا وَقَفَ عِنْدَهَا فَتَعَوَّذَ»^(١).

قال ابن القيم رحمته الله: «وهو سبحانه كثيراً ما يقرن في وصفه بين هذين الاسمين»^(٢)، كقوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **وقوله:** ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ١].

يثبت بذلك علوه على المخلوقات وعظمته، فالعلو: رفعته، والعظمة: عظمة قدره - ذاتاً ووصفاً^(٣).

وقال في موضع آخر: إنه سبحانه فرّق بين هذين الاسمين الدالين على علوه وعظمته في آخر آية الكرسي، وفي سورة الشورى، وفي سورة سبأ، في

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢) وغيره.

(٢) يشير إلى اسمي (العلي، العظيم).

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (٤/ ١٣٦٤-١٣٦٥).

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿سبأ﴾.

ففي آية الكرسي: ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات وذكر معها قيمته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه منبهاً به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه وقال في سورة طه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴿طه﴾^(١).

وهو العظيم بكل معنى يوجب التعظيم لا يحصيه من إنسان^(٢).

من المعاني العظيمة لآية الكرسي: ابتداء ذكر الله الحياة التي هي أصل جميع الصفات فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فأثبت الوجدانية لله؛ لا إله إلا هو، ثم قال الحي، والحي من صفات الله، ولكنها صفة لها جميع الصفات، لم؟

لأن وصف الله سبحانه بأي صفة من صفاته يكون من لوازم هذه الصفة أن يكون حياً.

مثال: يوصف شخص بأنه يسمع ويرى ويأتي ويذهب ويتكلم ويُدرس

(١) الصواعق المرسله (٤/ ١٣٧١-١٣٧٢).

(٢) شرح القصيدة النونية لجمع من العلماء (٣/ ٨٥).

ويحفظ فهل يصح هذا من غير أن يكون حيًّا؟! إذن كل ما ذُكر من صفات يستلزم أن يكون القائم بها حيًّا، فإن لم تكن له صفة الحياة فلا يصح أن يتصف بتلك الصفات، والله المثل الأعلى، فإننا عندما نقول: إن الله سميع، فلا بد أن يسبق هذا أنه حي، وكذا أي صفة أخرى لابد أن يسبقها صفة الحياة؛ عليم، خير، كريم، رزاق، قهار، جبار، ينزل إلى السماء الدنيا، وسائر الصفات.

ثم ذكر مع صفة الحي القيوم؛ فما معنى القيوم؟

القيوم هو القائم بنفسه، وسبب وقوائم لكل ما عداه، فما معنى القائم بنفسه؟ أي الذي لا يحتاج إلى غيره لمُساعدته في تدبير الأمر أو يُعينه في أمر مُلكه، أو الولد الذي يبقى من بعده، أو الصاحبة التي يأنس بها، تعالى ربنا عن الاحتياجات علوًّا كبيرًا، فهو الحي القيوم، فلا يحتاج إلى أحد، ولكن الكل يحتاج إليه ويلجأ إليه.

والقائم بحوائج العباد: فهو سبحانه الذي يقضي حوائج العباد، فالكل يحتاج ويلجأ إليه فيُعطي كل صاحب مسألة سؤاله على حسب ما تقتضيه حكمة الملك في العطاء وكذا علمه بحال صاحب السؤال.

والقيومية هذه مقتضية لذاته وبقائه لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن قيومًا فكيف يبقى وهو الذي يُعطي ويمنع، والعالم كله العلوي والسفلي بقبضته، وكل شيء يسير بأمره.

وكذا انتفاء جميع الآفات عنه، فلماذا يُقال بانتفاء جميع الآفات عن القيوم؟ إذا كان هو المُتحكم المُتصرف المُعطي للجميع فهل يمكن أن يكون كذلك ولديه آفة من آفات العجز؟ إذا كان لديه آفة من آفات العجز فلن

يقدر أن يُعطي أو يتصرف أو يتحكم.

قال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة].

فإذا أخذته السَّنة مجرد سِنَّة وليس نومًا فستسقط السماوات على الأرض، وتنقض الشياطين على العباد، وسيصيب الدمار والخراب كل شيء.

فلا يصح أن تأخذه السنة وهي مقدمات النوم فضلاً عن النوم نفسه.

فأثبت لنفسه أنه كامل من كل وجه، ونفى عن نفسه جميع صفات النقص.

ثم ذكر سبحانه كمال ملكه فقال ﷻ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

فيا ملوك الأرض وجابرتها ويا مَنْ لديكم الأموال والمناصب والمكانة العالية، ويا مَنْ تتكبرون على أوامر الله وعلى العباد أفيقوا، فالملك كله لله العزيز الجبار، لقد ذكر كمال ملكه سبحانه لأن أي ملك من ملوك الدنيا مآل ملكه إلى الزوال ولا بد، والزوال يعني النقص من حيث المدة والحد، فملكه محدد بمدة بقائه تحت سيطرته وحدود هذا الملك.

أما الملك الكامل فهو الله ﷻ ولا شريك له في هذا الملك، فأثبت كمال ملكه، فأين ملك ملوك الأرض؟ وما هو ملكهم بجانب مُلك مَالِك السماوات والأرض؟ سبحانه أثبت لنفسه كمال ملكه الذي شمل ملكه السماوات والأرض ومن فيهن، فكل ما في السماوات والأرض في قبضته وتحت هيمنته، وإن أعطى فلاناً شيئاً من الملك وآخر شيئاً من الجاه، فإن كل هذا يقع في ملكه سبحانه.

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فلا أحد يشفع عنده

سبحانه إلا بإذنه، إلا إذا أذن الملك ورضي، فنفي الشفاعة عن جميع العباد إلا إذا أذن الله ﷻ، وفي هذا تأكيد لوحديته وكمال ملكه وقيوميته.

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

فذكر سعة العلم، فكل شيء في الكون يعلمه الله من غير تعب ولا مشقة ولا لغوب.

وفي قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ بيان عجز الإنسان وأنه لو أراد معرفة أي شيء في الدنيا لا يمكن أن يحدث له هذا إلا أن يشاء الله، كي لا يفرح أحد بعقله إن كان قد أُوتي حظًا وافرًا من الذكاء، أو يفرح بعلمه إذا يسر الله له سبيلًا من سبل العلم، ولا بما عنده من الوجاهات أو الشهادات، لا سبيل للخلق للوصول إلى أي مطلوب إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

سؤال: هناك ظلمة ومجرمون وجبابرة، فهل هذا أيضًا بمشيئة الله؟

الجواب: نعم، هذا يحدث بمشيئة الله، أي بإرادته الكونية، أراد لهم المناصب والأموال، وربما وسع عليهم الأرزاق، رغم ظلمهم وتجبرهم؛ لحكمة وهي الاستدراج بالنعم، وإقامة الحجة عليهم في حال إعراضهم وعصيانهم لله جل وعلا.

فكل شيء في الكون لا بد أن يكون بمشيئة الله وعلى المرء أن يعلم هذا حتى لا يطغى ولا يعلو ولا يتصور أنه يُمثل شيئًا، أو أن له قدرًا أو وزنًا إلا إذا أراد الله له ذلك، وكلما تضاءل الإنسان أمام نفسه كلما عظم عند الله، وكلما كبر وعظم عند نفسه كلما صغر عند الله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

انظروا إلى المقدمات التي سبقت الختام، فقد بدأ بالتوحيد ثم ذكر اسمه الحي فله كمال الصفات المتعلقة بالحياة، ثم القيوم قائم بنفسه وبغيره، ثم

أثبت الكمال والملك كله لنفسه سبحانه فلا شريك له فيه، وكذا العلم كله لله ﷻ، والشفاعة له وحده فلا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ورضاه عن المشفوع له، قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ثم تبين سعة الكرسي وهو شيء مادي، فالكرسي وحده وسع السماوات والأرض، ورغم اتساع هذا الملك وعظمته فإنه لا يكثرث ولا يتعب في حفظ هذا الملك، ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] علي ذات وعلي صفات وعلي قهر وعلي قدر، فختم الآية بالعلي العظيم، والعظمة تدل على: السعة والجلال والشرف.

وعلو اقتدار: لأنه حفظ العالم العلوي والسفلي من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا مشقة.

والله هو القادر القدير المقتدر: فله سبحانه وتعالى القدرة الكاملة التي ليس فيها نقص بأي وجه من الوجوه على حفظ العوالم كلها، والتي لا نعلم منها إلا القليل.

□ آثار معرفة المؤمن لهذه الأسماء:

الأثر الأول: إثبات صفة العلو لله ﷻ والتي خالف فيها أهل البدع والمؤولتة والمعطلتة أهل السنة والجماعة:

فقد أطبق أهل السنة على إثبات صفة العلو لله، والقرآن مملوء بالآيات التي ورد فيها إثبات علو الذات لله سبحانه، وكذا السنة، كما أن إجماع الأمة جاء بذلك، ولم يعترض على ذلك سوى المعطلة الذين ضلوا عن سواء السبيل.

قال أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي: حَتَّى لَقَدْ عَلِمَ فِرْعَوْنُ فِي كُفْرِهِ وَعُتُوِّهِ عَلَى اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ فَوْقَ السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَبَ﴾ ٣٦ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿[غافر].

ففي هذه الآية بيان بين، ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة الله بأنه فوق السماء، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح، ورام الاطلاع إليه ^(١). إذن فإن فرعون كان يعلم من مناظرة موسى له أن الله في السماء ولكنه كان يُنكر جحودًا منه.

قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ٤٢ ﴿[فصلت].

وقال جل ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ١١٤ ﴿[الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ١ ﴿[القدر]. ومن المعلوم أن الإنزال يكون من الأعلى للأدنى، لغةً وعقلًا وفي ذلك دلالة على ثبوت علو الله سبحانه.

جملة من الأحاديث تدل على إثبات صفة العلو لله ﷻ:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي نُعْمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، يَقُولُ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذَهِيَّةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ، لَمْ تَحْصَلْ مِنْ تَرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَفْرَعِ بْنِ

حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلَقَمَةٌ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»^(١).

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرَعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أُحُدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّبُّ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ، لَكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً، فَاتَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «إِئْتِنِي بِهَا» فَاتَّيْتُهَا بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أُعْتِقُهَا، فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ»^(٢).

لقد أثبت النبي ﷺ إيمان الجارية عندما أثبتت العلو لله سبحانه.

والجارية هي ما دون سن البلوغ وهي تعيش في الصحراء وبالرغم من ذلك فقد علمت أن الله في السماء وليس في كل مكان، أو أنه ليس له مكان. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي

(١) الرد على الجهمية (ص: ٥٠-٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

سَبِيلَ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى وهو فوق كل شيء وهو عال على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء، مثل:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾^(١٧) [الملك] ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾

[المعارج: ٤] ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] في

سته مواضع ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾^(٥) [طه] ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

كَذِبًا» [غافر]، ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤٢] [فصلت] ﴿مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بالكلفة، وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة مثل قصة معراج الرسول ﷺ إلى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه؛ وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار: «ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ». وفي الصحيح في حديث الخوارج: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِّنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبْرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: «مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتَكِ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِّنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِّنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأُ» قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اشْتَكَى أَحَدُكُمْ أَوْ اشْتَكَى أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» وذكره. وقوله في حديث الأوعال: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ وَاللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وقوله في الحديث الصحيح للجارية: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أَعْتَقُهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». وقوله في الحديث الصحيح «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» وقوله في حديث قبض الروح: «حَتَّى يُتَهَيَّ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وقول عبد الله بن رواحة الذي أنشده للنبي ﷺ وأقره عليه: شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق السماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي أنشد للنبي ﷺ هو وغيره من شعره
فاستحسنه وقال: «أَمِنْ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ» حيث قال:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا ما يناله بصر العين ترى دونه الملائك صورا

وقوله في الحديث الذي في المسند «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا». وقوله في الحديث: «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ». إلى أمثال ذلك مما لا يحصىه إلا الله مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علما يقينا من أبلغ العلوم الضرورية أن الرسول ﷺ المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين أن الله سبحانه على العرش وأنه فوق السماء كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام؛ إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته. ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مائتين أو ألوفا. ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصا ولا ظاهرا^(١).

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ: «فالخبر يصرح أن عرش ربنا - جل وعلا - فوق جنته، وقد أعلمنا - ﷺ - أنه مستوٍ على عرشه، فخالقنا عالٍ فوق عرشه، الذي هو فوق جنته»^(٢).

(١) انظر: الرسالة الحموية (ص: ١٥-١٩).

(٢) التوحيد لابن خزيمة (ص: ٩١).

وقال ابن أبي زمنين رَحِمَهُ اللهُ: ومن قول أهل السنة أن الله ﷻ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] (١). وأقوال أئمة السلف في إثبات صفة العلو لله يصعب استيفائها، ولا يتسع المقام لذكرها، وكتب أهل السنة مملوءة بتقرير هذه العقيدة وغيرها من مسائل الاعتقاد، والله الحمد وله الفضل والمنة.

الأثر الثاني: نعلم أن العلو المطلق لا يكون إلا لله تعالى، لا يشاركه فيه أحد من خلقه؛

فأي إنسان مهما نال من الدرجات في أي فن من الفنون أو علم من العلوم، سواء أكان دينياً أو دنيوياً، وعلا في تخصصه على أقرانه، فليس له العلو المطلق؛ لأن الله تعالى خلق من هو أعلى منه من بني آدم، كي يهدأ الخلق ولا يتقاتلون من أجل الدنيا.

والكثيرون يعيشون في كرب وإهلاك لأنفسهم، والسبب هو عدم قدرتهم على تحقيق آمالهم وأهدافهم الدنيوية.

وإذا كان الإنسان بداخله حب العلو، يريد أن يعلو ولا يرضى بما قسمه الله له، فهو غافل عن حقيقة الدنيا، وإذا سلك الطريق إلى الله بهذا الفكر سيضل، فمن المحال الوصول إلى قمة العلو في الدنيا.

فالعاقل يرضى بما قسم الله له، ولا يتطلع إلى العلو على الآخرين، لأن هذا العلو مذموم، وهو أعظم جار إلى الفساد.

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ٨٨).

هل العلو كله مذموم؟ لا. فالعلو ينقسم إلى قسمين:

قسم مذموم: وهو مَنْ يريد العلو في الدنيا، فتراه يتطوق إلى الأجل والأحسن والأفضل والأعلى والعلو على غيره، هناك نفوس تواقه لا ترضى بالأدنى، لديها حب الارتقاء، فهذه النفوس إذا لم توجه هذا العلو للآخرة فستهلكها الدنيا فهي لا تشبع، ولا تقنع بالقليل.

قسم محمود: هذه النفس تكون رائعة إذا وجهت هذا العلو إلى المحمود منه، ألا وهو العلو في الآخرة.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [الفصل].

فمن نظر بعين المعبر المتعظ علم عظم تلك الدار، وأنها بعيدة الصيت، عظيمة الشأن، عزيزة المنال والمنزلة، لهذا عبر عنها ربنا تبارك وتعالى بقوله «تلك» إشارة للبعد.

والمعنيون بأهل الآخرة هم أهلها على الحقيقة، وليس المُتصنعين المترددين بين هذا وذاك، ولا أصحاب القلوب التي تتعلق تارة بالدنيا وتارة بالآخرة، ولا أصحاب الأهداف التافهة والأغراض الدنيئة.

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: والكبير الهمة على الإطلاق من يتحرى الفضائل، لا لجاه ولا لثروة ولا للذة، ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية، بل يتحرى مصالح العباد شاكراً بذلك نعمة الله ومتوخيّاً به مرضاته، غير مكترث بقلة مصاحبيه، فإنه إذا عظم المطلوب قلّ المساعد، وطرق العلاء قليلة الإيناس^(١).

قال الشاعر:

إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

(١) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص: ٢٤٣).

اسم الله

الحسب

٣٩

الحسين

الحسب هو اسم من أسماء الله ﷻ وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحِيَةٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء].

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُلَِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٣٩﴾ [الأحزاب].

وقد عده جماهير العلماء من الأسماء الحسنی (١).

□ المعنى في اللغة:

قال ابن فارس رحمه الله: حَسِبَ: الحاء، والسين، والباء، أصول أربعة:

الأول: العد، تقول: حَسَبْتُ الشيءَ أَحْسَبُهُ حَسْبًا وَحُسْبَانًا، قال تعالى:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥﴾ [الرحمن].

ومن قياس الباب: الحُسْبَانُ الظنُّ، وذلك أنه فرق بينه وبين العد بتغيير

الحركة والتصريف، والمعنى واحد؛ لأنه إذا قال: حَسِبْتُهُ كَذَا فكأنه قال: هو

(١) راجع - إن شئت - جمع العلماء لأسماء الله الحسنی، الجزء الأول من الكتاب - باب التمهيد.

في الذي أعدّه من الأمور الكائنة.

ومن الباب: الحَسَبُ الذي يُعَدُّ من الإنسان، قال أهل اللغة: معناه أن يُعَدَّ آبَاءُ أَشْرَافًا.

ومن هذا الباب قولهم: احْتَسَبَ فلانُ ابنَه إذا مات كبيرًا، وذلك أن يُعَدَّهُ من الأشياء المذخورة له عند الله تعالى.

والحسبة: من احتسابك الأجر، وفلانٌ حسنُ الحسبة بالأمر، إذا كان حسنَ التدبير، وليس من احتساب الأجر.....

الأصل الثاني: الكفاية: تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ، ويقال: أَحَسَبْتُ فلانًا إذا أعطيته ما يرضيه، وكذلك حَسَبْتُهُ....

الأصل الثالث: الحُسْبَانُ، وهي جمع الوسادة الصغيرة... ومنه قولهم أصاب الأرض حُسْبَانُ أي: جرادٌ، وفُسر قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠]، بالبرد^(١).

قال سيبويه رَحِمَهُ اللهُ: وأما حَسَبٌ، فمعناها: الاكتفاء، ومررتُ برجلٍ حُسْبُك من رجلٍ أي: كافيك، ولا يثنى ولا يجمع لأنه موضوع موضع مصدر^(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: والحسيبُ والمُحاسبُ من يُحاسبُكَ ثم يُعبرُ به عن المُكافئ بالحساب، وحَسَبٌ يُستعمل في معنى الكافية ﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، أي كافينا و﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] أي: رقيبًا يُحاسبُهُم عليه^(٣).

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٥٩-٦١)، جمهرة اللغة (١/ ٢٧٧).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣/ ٢٠٦).

(٣) المفردات (ص: ١٣٠).

□ معنى اسم الحسيب في حق الله جلّ جلاله وتقدست أسماؤه:

أنه سبحانه وتعالى: هو المدرك للأجزاء والمقادير التي يُعلم أمثالها بالحساب من غير أن يحسب.

لأن الحاسب يُدرك الأشياء شيئاً فشيئاً ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه، والله تعالى لا يتوقف علمه بشيء على أمر يكون، وحال يحدث^(١).
فأي رجل يريد أن يُقدر حساب شيء معين لا يتسنى له ذلك مرة واحدة، بل يكون تدريجياً حتى يصل إلى ما يُريد، هذا هو حال البشر، أما الله جلّ جلاله ليس كمثله شيء.

والعلم التدريجي يُعد نقصاً؛ لأنه سبقه الجهل بالشيء، ثم حدث العلم به، وصفات الله ليست محدثة، فالعلم الذي يأتي بعد جهل أمر ممتنع في حق الله تعالى.

فلو أننا تفكرنا في عدد ذرات الرمال، وعدد قطرات الماء في البحار والمحيطات، وعدد أوراق الشجر في أرجاء الأرض، وعدد ذرات التراب المتناثرة في الهواء، وعدد الفيروسات التي نعلمها والتي لا نعلمها، فكل هذه الأعداد وغيرها يعلمها الله سبحانه وتعالى فقد أحصاها كلها فلا تشغله الكثرة عن علم الأشياء، فهو العليم الحسيب.

قد علم مقادير الأشياء قبل أن يُوجدّها، فقد كان سبحانه ولم يكن شيء غيره، أوجدّها ولم يحتج إلى عد ولا حساب، وإن كانت الكلمة تحمل هذا إلا أنه هو الحسيب قبل أن يخلق الأشياء.

(١) شأن الدعاء (ص: ١٣٨-١٤٠) باختصار.

العبد حسيب على نفسه يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء].

والمعنى: «اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتبنا يكتبانه ونحصىه عليك ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسبًا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب عليك محصياً سواها»^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ»^(٢).

قد جعل الله الإنسان حسيباً وشهيداً على نفسه «ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه، وشهادة أعضائه عليه، بحيث لم يبق له عذر يتمسك به»^(٣).

الله الجبار القهار العزيز الغفار سبحانه وتعالى يُخبر عباده وهم في الدنيا أنه حسيب على أعمالهم وأن كل شيء هو عليه حسيب، ألا يستدعي ذلك محاسبة النفس قبل يوم الحساب؟!

(١) جامع البيان (٦٩/١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

(٣) ما بين القوسين من مرقاة المفاتيح للملا علي القاري (١٢٧/٦).

الشيطان يكد لبني آدم عامة وللمسلمين خاصة:

فلا يدخر جهداً لإضلالهم وإغوائهم وتزيين الباطل لهم، ولن يترك الشيطان ابن آدم إلا حين تُفارقه الحياة ويدخل قبره، فيجب أن نتوخى الحيلة والحذر عندما نعمل أو نتكلم.

نحاسب أنفسنا على ما نقول ونعمل، هل هذا من عمل شيطان، أم أنه من قبيل الهوى والنفس الأمارة، أما أنه يرضي الله؟

فحين يعرض للمرء أمرٌ ما ويجد نفسه مُقبلاً على شيء مخالف للشرع، فعليه أن يقف وقفة مع النفس فيسألها: إلى أين أنت ذاهبة؟ وماذا تريدان؟ وبماذا تبتغي بعملك أو بقولك؟ لماذا عملت هذا؟

فمن لم يضيق على نفسه الأمارة بالسوء في الدنيا، لحق به الخسران في الآخرة، وسيندم ندمًا لا يعلم قدره ولا عظمه إلا رب العالمين، فحاسب نفسك قبل أن تأتي لحظة دخول القبر، ومن منا يعلم لحظة رحيله؟ أليس من الوارد أن تكون الآن، فعلينا أن نعمل لها.

فعلى العاقل أن يُراجع حسابه؛ لأن الحسيب يُحصي عليه أعماله ويُراقبها، وسيُكافئ ويُحاسب، فلا يندفع خلف الأهواء أو خلف رفقاء السوء، وذلك لأن سوء الخلق وقلة الدين وضعف التقوى ينتقل عن طريق الصحبة، كحال الإنسان المصح الذي يجلس في مكان به مرضى فينتقل إليه الداء، وهذا هو الحادث مع المسلمين الآن، فقد يكون الشخص على قدر من الدين والخلق فيختلط بأصحاب القلوب المريضة فينتقل إليه المرض من حيث لا يشعر، فإن لم ينتبه فإنه سيقع عاجلاً أو آجلاً في مستنقع الشر، إلا أن يشاء الله غير ذلك.

ومن معاني اسم الله الحسيب: الكافي؛

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّنُمْ بِنَحْيَةٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٦) [النساء].

رب العالمين يحاسب «على كل شيء»؛ من رد السلام بمثله أو بأحسن منه، حسيباً أي: محاسباً مجازياً، وقال مجاهد: حفيظاً، وقال أبو عبيدة: كافياً، يقال: حسيب هذا أي: كفاني»^(١).

فالله جل ثناؤه «هو الكافي، وهو الذي من كان له كان حسيبه، والله تعالى حسيب كل أحد وكافيه، وهذا وصف لا يتصور حقيقته لغيره، فإن الكفاية إنما يحتاج إليها المكفي، لوجوده ولدوام وجوده ولكمال وجوده.

وليس في الوجود شيء هو وحده كاف لشيء إلا الله تعالى، فإنه وحده كاف لكل شيء، لا لبعض الأشياء، أي هو وحده كاف يتحصل به وجود الأشياء ويدوم به وجودها ويكمل به وجودها.

ولا تظن أنك إذا احتجت إلى طعام وشراب، وأرض وسماء وشمس وغير ذلك، فقد احتجت إلى غيره ولم يكن هو حسبك، فإنه هو الذي كفاك بخلق الطعام والشراب والأرض والسماء، فهو حسبك.

ولا تظن أن الطفل الذي يحتاج إلى أمه، ترضعه وتتعده، فليس الله حسيبه وكافيه، بل الله كفاه إذ خلق أمه، وخلق اللبن في ثديها وخلق له الهداية إلى التقامه، وخلق الشفقة والمودة في قلب الأم حتى مكنته من الالتقام، ودعته إليه وحملته عليه.

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٥٧).

فالكفاية إنما حصلت بهذه الأسباب، والله وحده المتفرد بخلقها لأجله^(١).
وهو الحسيب كفاية وحماية والحسب كافي العبد كل أوان^(٢)

ومن معاني اسم الله الحسيب: الرقيب:

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: من أسمائه «الحسيب»، بمعنى الرقيب المحاسب لعباده، المتولي جزاءهم بالعدل والفضل.

وبمعنى: الكافي عبده همومه وغمومه، وأخص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه أمور دينه ودنياه^(٣).

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

إن الله كافٍ عبده، فعليه أن لا يركن ولا يحزن على أي شيء فقده كان يظن أو يعتقد أن هذا الشيء فيه الخير، أو يكفيه همًا، فالغفلة مع دوام النظر للمخلوق، وضعف النظر إلى عظمة الخالق، أورثت بابًا آخر من الغفلة، وهو اليقين على أن سعادة المرء متوقفة على ما يملك، وتولد عن ذلك نزاعات وخلافات وحسد وحقد وتنافس على الزائل، وترك التنافس على الباقي، فكل إنسان يحاول أن يخطط ويدبر ويظن أن الأمور تسير بحوله وقوته فليعد نفسه من الغافلين الذين لم يفهموا السنن الكونية.

(١) المقصد الأسنى (ص: ٨٥).

(٢) هذا البيت لابن القيم - شرح القصيدة النونية لنخبة من العلماء (٣/ ١٩٠).

(٣) المصدر السابق.

فالدنيا تسودها حالة من الغليان لماذا؟ لأن الكثيرين غير مدركين أن الله حسيب، والحسيب هو مَنْ يُدبِّر الأمر وليس المخلوق الضعيف الذي لا يقدر فعل أي شيء إلا إذا أذنَ الملك.

فإذا رام العبد إلى مطلوب له ولم ينله فلا يحزن ولا يجزع وعليه أن يقول الدعاء^(١) عند المصيبة، مع التصديق أن الله هو الحسيب الذي يكفيه همه ويُرسل له رزقه ولن يُحمّله فوق طاقته، فقد وعد عباده بهذا في كتابه الكريم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فمن كان مع الله لن يفقد شيئاً، ومن فقدَ الله فقدَ كل شيء، ومن لم يعلم قدر وعظم المعاملة مع الرب فهو فاقد لكل شيء ولو كان يملك الدنيا بأسرها؛ لأن الدنيا منقطعة والآخرة باقية، فالمنقطع بالنسبة للباقي قليل.

فالرب تعالى يكفي عباده ويحميهم من كل ما يؤذيهم، شرط أن يكونوا خاضعين لشرعه ممتثلين لأمره على هدي خير الأنام نبينا الكريم، فيعملون له وحده بإخلاص ولا يميلون بقلوبهم عن الطريق، ولا يحيدون عن الهدف، فمن حقق التوحيد علم أن الله حسيبه، فعلام إهلاك النفس ما بين الفكر والتدبير والتخطيط والهموم والنكد، والندم على ما فات؟! لن ينال العبد إلا ما قُدر له أن يناله بمشيئة الله الحسيب، الذي يُعطي وفق حسابِه هو وحده.

أما ما كُلف به العبد فهو الأخذ بالأسباب والرضا بالنتائج، وتحقيق العبودية والانشغال بها، وحين ينشغل بذلك فإن الله يُسخر له أعواناً، والعكس يحدث عندما يعتمد المرء على حوله وقوته وينحرف عن الطريق

(١) سيأتي قريباً بإذن الله.

يظل مسكيناً حائراً بين أفكاره وهمومه واحتياجاته ولا يتحصّل إلا على التعب في الدنيا وخسران الآخرة، فهل يرضى أحد لنفسه بهذا الشقاء؟!

الفرق بين الحسب والتأييد:

«الحسب لله وحده؛ كالرغبة والرغبة، والتوكل، والتقوى، وكالعبادات البدنية، مثل السجود، والذبح، والحلف، وغيرها، فمن حسن الاعتقاد أفراد الله بالحسب.

أما التأييد: فقد يؤيد الله تعالى العبد بنصره، وبعباده أيضاً، بأن يكونوا أعواناً له على النصر، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال].
 ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران].
 ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة]. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل

جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨]. فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كاف عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ها هنا. والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعتة تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعتة، وجعل شقاوة الدارين في مخالفتة، فلا أتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة^(١).

□ **آثار معرفة العبد لاسم الله الحسيب:**

الأثر الأول: طلب الأجر لا يكون إلا من الله جل وعلا:

فيحتسب الأجر من الله ويصبر على الأقدار خيرها وشرها، فيصبح قدير العين، مسرور القلب مستريح النفس محتسباً راضياً، وليس كارهاً ولا ساخطاً. «والاحتساب في الأعمال الصالحة وعند المكروهات: هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ١٥-١٧).

على الوجه المرسوم فيها طلبًا للثواب المرجو منها»^(١).

وبإمعان النظر في معنى الاحتساب نجده أنه أنواع، منها:

احتساب الأجر عند الطاعات، واحتساب الأجر عند نزول المكروهات، والاحتساب بالاكْتفاء بالمولى ﷺ ناصراً ومعيناً.

احتساب الأجر من الله عند الطاعات:

عباد الله المخلصون وهم على الطريق قد يشعر أحدهم بالوهن والتعب عند رؤية طائفة من المتنعمين ظاهرهم السعادة والراحة، مع تلبسهم بصنوف المنكرات والموبقات في الظاهر والباطن.

فإن كان ممن رزق علم وافر، علم أنهم ليسوا كذلك، بل هم في شقاء وشقاق بينهم وألم يغمر نفوسهم، وكآبة تعلق قلوبهم، وإن بدا منهم خلاف ذلك.

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف].

فالليبي السعيد يسعد بالطاعة مهما وجدت المشقة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

خلق الله بني آدم في كبد وكدح، العاصي منهم والطائع، غير أن الطائع له مزية القرب من ربه، وسرور قلبه، وقرار عينه في الدنيا، والفوز برؤية

(١) النهاية لابن الأثير (١/ ٣٨٢).

الرحمن والجنة في الآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢١٨) [البقرة].

وقال جل ثناؤه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٢٢) [البقرة].

وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) [النساء].

وغيرها من الآيات البينات التي تحت على الاحتساب عند الرب الكريم المنان.

أما السنة فمملوءة بالبحث على الاحتساب:

قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أَحَدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ»^(١).

وعن أبي مسعود البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٧)، واللفظ له، ومسلم (٩٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٢).

تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيتَ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعُ دَمِيتَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ»^(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وفي رواية بهذا الإسناد غير أَنَّهُ قَالَ: فَهُوَ يَنْضَحُ الدَّمَ عَنْ جَبِينِهِ»^(٣)، وغيرها من الأحاديث.

فلا يتصور أحد أن أهل الدنيا في سعادة بل إن ما يحدث هو تزيين الشيطان، فيظهر صاحب المعصية في أحسن صورة، فنلاحظ أن أهل الوجاهات دائماً ما يظهرون على الشاشات وفي وسائل الإعلام المختلفة فيظهر هؤلاء للناس أنهم في غاية السعادة وهذا غير صحيح، وضد السنن الكونية، ومَن يتصور أن العاصي يعيش في سعادة فما فهم سنن الله الكونية ولا قرأ القرآن وما علم عن الله شيئاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة].

فأحياناً مع الإنفاق ومع البذل لله يأتي الشيطان فيعمل على تشييط المرء وخذلانه وإبعاده عن الإنفاق، وهنا ينبغي التصدي له، وتذكر قول الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، واللفظ له.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُفْسِكُمْ﴾ فهذا الإنفاق لأنفسنا وأجره لنا، وليس لأحد آخر، وأن نحسبه عند الله، فيضاعف الرب للعبد الأجر في الدنيا، وقد يصرف عنه سوءاً بقدر ما تم إنفاقه مع ما ادخر للمنفق في الآخرة.

قال ﷺ: ﴿وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنُكْفِيَ أَرْكَمُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود].

فيحتسب الإنسان في دعوته فلا يتلقى مالا عليها ولا يبغى جاهاً ولا منزلةً ولا حب ظهور، من دعا إلى ربه - سواء كان يدعو فرداً واحداً، أو جماعة - فعليه بتجريد التوحيد، والحسيب هو الذي يحاسب على القليل والكثير، فإما أن تكون الجلسة والكلمة وكل شيء يُبذل في مجال الدعوة لله ﷻ فيكون في ميزان حسنات الداعي، وإما أن تكون غير ذلك فتصبح هباءً منثوراً يوم القيامة، ويا ليتة يكون هباءً منثوراً فلا يكون له أو عليه، فقد يكون أول من تُسعر به النار يوم القيامة.

ومن معاني الحسيب، الاحتساب عند المكاره:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٥٦] **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة].** [١٥٧]

إذا نزلت المصيبة على العبد وقال هذا الدعاء فإنه سينال من الله ثلاثة أشياء: صلاة من الله سبحانه، ورحمته، وهدايته.

صلوات من ربهم: والصلاة من الرب تعني الثناء على عبده في الملاء الأعلى، أما الصلاة على النبي ﷺ فهي ثناء على النبي ﷺ في الملاء الأعلى

أيضاً ولكنه ثناءٌ دون ثناء^(١)، الذي يشني هو ملك الملوك الله ﷻ فتأمل.

فمعرفة ذلك الفضل، يجعل المرء يمرن قلبه ولسانه على هذا الذكر، فإذا نزل البلاء أو أي مكروه وانطلق اللسان بهذا الذكر فاعلموا أن هذا توفيق من الله ﷻ لم؟ لأنه بمجرد النطق بهذا الدعاء لحظة البلاء فإنه الرب سبحانه يُشني على عبده في الملاء الأعلى، والله لا يشني إلا على الفضلاء والنبلاء من عباده المؤمنين.

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ: إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأَتَيْنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرَأُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَّهَُا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبِي بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ - قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنٌّ - فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرَحِمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»^(٢).

ولتحتسب: أي أمرها أن تحتسب وتطلب بصبرها الأجر والثواب من الله تعالى ليحسبه لها من أعمالها الصالحة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظُفْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ،

(١) قد ألف ابن القيم رحمه الله كتاباً في هذه المسألة سماه: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنعام، فلينظره من أراد التوسع في هذا الباب، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٠)، وبدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(١).

العين تدمع: وهذا لا بد منه فنحن بشر، وذلك لا ينافي الرضا.

والقلب يحزن: وهذا أيضًا لا بد منه لا شك في ذلك، ولكن لا نقول إلا ما يرضي ربنا؛ فلا سخط، ولا جزع، ولا شق جيوب، ولا لطم خدود، ولا نفعل أفعال الجاهلية، وإنما نحتسب عند الحسب الأجر.

وكما سبق القول لا تجعلوا شيئًا يمر عليكم إلا وقد نلتُم منه الأجر، وتمرين النفس على الدعاء يجعل اللسان ينطلق به عند نزول البلاء، فيخرج المرء منه بالأجر بدلًا من أن يتسخط فيجتمع عليه البلاء وضياع الأجر، وليس هذا بصنيع العقلاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تَعْلَمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ: «اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا»، فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٤).

مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوِ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: فَأَعَادْتُهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ» (١).

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾» [البقرة]، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بَتًّا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَدَعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُوا اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ» (٢).

تأمل كيف تعجبت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها كانت ترى أنه ليس هناك خير من أبي سلمة، ولكنها عندما قالتها أخلفها الله برسوله ﷺ فأتى الخير من حيث لم تكن تحتسب، فلم يكن يخطر ببالها ولو للحظة أنها يمكن أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ ولكنها قالت الدعاء وهي محتسبة صابرة راضية قانعة قناعة كاملة بصدق رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

لَا تَعْمَلُوا عَقُولَكُمْ وَلَا تَشْغَلُوهَا بِكَيْفِيَةِ سِيرِ الْأَقْدَارِ، فَتَلْكَ هِيَ حِسَابَاتِ اللَّهِ، فَالْحِسَابُ بِمَقَائِيسِ الْبَشَرِ وَقَوَانِينِ الدُّنْيَا مَعَ اللَّهِ مِنَ الْحِسَابِ الْخَاسِرِ، وَتَعَبٌ لِلْعَبْدِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ وَيُحْسِنَ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ هُوَ الْحَسِيبُ.

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُتِلْتُ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»^(١).

لم يذكر النبي ﷺ للصحابي الأجر ولكنه علمه كيف يأخذه، وذلك لن يكون إلا بشروط:

صابراً: بأن يكون صابراً في سبيل الله صبراً لا يخالطه سخط.

محتسباً: ينتظر الأجر من الله وحده، فلا رياء ولا سمعة، ولا أي حظ من حظوظ النفس.

مقبلاً غير مدبر: أي عندما تتراءى له بارقة السيوف لا يجبن ولا يتراجع ولا يختلج القلب وهو في ساحة القتال؛ لأن بارقة السيوف فتنة، كما أخبرنا نبينا ﷺ.

فَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ عَمْرٍو حَدَّثَهُ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٥).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٢١٩١)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٠٥٢)، وصحيح

ثم ذكر النبي ﷺ شرطاً رابعاً ألا وهو البراءة من الدين، كما جاء في حديث أبي قتادة المتقدم.

فإياكم وأموال المسلمين، نرى اليوم الكثير ممن يستدينون الأموال لقضاء حوائجهم ثم إذا تيسر لهم الحال لا يردون الحقوق إلى أصحابها، هؤلاء ينفقون هنا وهناك ويستهيئون بالدين المتعلق في رقابهم، ولم يعزموا النية على السداد، ولهذا فإن الله سبحانه لا يقضي عنهم.

إذن الاحتساب يكون عند الطاعات بامثالها، وعند المعاصي بتركها لله، وكذا عند المكاره وما تأباه النفس وتكرهه، وتذكر أنه الكافي لعباده، فنستحضر معاني الحسيب وأنه هو الرقيب المحاسب للعباد الحافظ لأعمالهم والمكافئ لهم، فعند الطاعة نحتسب الأجر، وعند المعصية نتذكر أن من معاني الحسيب المراقبة فلا تخفى على الله خافية.



اسم الله

الحبيب

٤٠

الحجرات

جل جلاله وتقدست أسماؤه، ورد هذا الاسم مطلقاً في قوله سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]. وهو من الأسماء التي اتفق عليها العلماء أنه من أسماء الله الحسنى، باستثناء الإمام الأصبهاني فهو وحده من أسقط هذا الاسم^(١). إذا سمعنا اسم الجبار تبادر إلى الذهن أمور منها البطش والانتقام والجبروت، فيبطش بالمجرمين وينتقم من الظالمين وهذا من المعاني التي يحملها هذا الاسم ولكن للاسم معانٍ أخرى.

□ المعنى في اللغة:

الجَبْرُ خلافُ الكسر... وجَبَرُ العظم، وجَبَرَهُ فجَبَر جَبْرًا فتَجَبَّر: أحسن إليه، أو أغناه بعد فقره، فاستَجَبَرَ واجتبر على الأمر: أكرهه^(٢).

قال ابن دريد رَحِمَهُ اللَّهُ: جبر: جَبَرُ العظم، وجَبَرَهُ اللَّهُ جَبْرًا.

قال الراجز: قد جبر الدين الإله فجبر... وأجبرت الرجل على كذا وكذا فهو مجبر إذا أكرهته عليه^(٣).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: جعل جبارًا في صفة الله تعالى أو صفة العباد من

(١) انظر: الجزء الأول من الكتاب، باب التمهيد.

(٢) القاموس المحيط (ص: ٣٢٥) مادة (ج ب ر).

(٣) جمهرة اللغة (١/ ٢٦٥).

الإجبار، وهو القهر والإكراه لا من جبر^(١).

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: وَتَجَبَّرَ الرَّجُلُ: تَكَبَّرَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ»^(٢)، فَهُوَ فَعَلَتْ مِنْ الْجَبْرِ وَالْقَهْرِ^(٣).

قال أبو بكر ابن الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: الْجَبَارُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: ذُو الْجَبَرِيَّةِ وَالْقَهْرِ، وَالْجَبَارُ يَنْقَسِمُ عَلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ:
يَكُونُ الْجَبَارُ: الْقَهَّارُ.

ويكون الجبار: الْمَسْلُطُ، قَالَ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق]، مَعْنَاهُ: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمَسْلُطٍ.

ويكون الجبار: الْقَوِيُّ، الْعَظِيمُ الْجِسْمِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، مَعْنَاهُ: أَقْوِيَاءُ أَشَدَّاءَ عِظَامِ الْأَجْسَامِ.

ويكون الجبار: الْمَتَكَبِّرُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم]، أَي: لَمْ يَجْعَلْنِي مُتَكَبِّرًا عَنْ عِبَادَتِهِ.

ويكون الجبار: الْقِتَالُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء]، مَعْنَاهُ: بَطِشْتُمْ قِتَالِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ

تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩].

ويكون الجبار: الطويل من النخل. ويقال: أَجْبَرْتُ الرَّجُلَ عَلَى كَذَا، أَجْبَرُهُ

(١) لسان العرب (١٤/٢-١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢/٢٢٣)، والهيثمي في المجمع (٢/١١٠)، قال: رجاله موثقون، والطبراني في الأوسط (٥٦٨٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (الأم) (٨٧٣).

(٣) اللسان (٢/١٥) مادة (جبر).

إجبارًا: إذا أكرهته على فعله، هذه لغة عامة العرب، وتميم تقول: جبرت الرجل على كذا... ويقال: جبرتُ اليدَ الكسير، أجبرها جبرًا وجورًا، جبارة^(١).

□ معنى اسم الجبار في حق الله ﷻ:

الجبار: «فِي قَوْلٍ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ جَبْرِ الْكَسْرِ أَيِ: الْمُصْلِحِ لِأَحْوَالِ عِبَادِهِ وَالْجَابِرِ لَهَا، وَالْمُخْرِجِ لَهُمْ مِمَّا يَسُوءُهُمْ إِلَى مَا يَسُرُّهُمْ، وَمِمَّا يَضُرُّهُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ»^(٢).

فإذا أراد المرء أن يصلح الله له حاله، ويدفع عنه ما يسوءه، ويجلب إليه ما ينفعه ويسره، فعليه بتحقيق كمال الحب والرغبة لله، والخوف والخشية من الله. وأن يلقي بنفسه على عتبة العبودية منكسرًا ضعيفًا، سائلًا الجبار أن يجبر كسره، ويعطيه سؤله، ويصرف عنه ما يضره في نفسه وأهله وولده، ويعينه على تخطي الصعوبات والعقبات، فالله قريب مجيب الدعاء، كريم المن واسع العطاء.

فقد يواجه المرء صعوبات في حياته ويبحث عن مخرج فلا يجد، وقد يلجأ لغيره مستعينًا به لقضاء حاجته فلا يجد له مخرجًا، فالكل بشر لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، فلا ملجأ إلا للجبار سبحانه وتعالى لأن من معاني الجبر أنه المصلح لأحوال عباده الدينية والدنيوية.

الله جلّ جلاله يجبر الأبدان ويجبر القلوب؛

فكيف يكون جبره للأبدان؟ قد تقدم في المعنى اللغوي أن من معاني

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٨٠).

(٢) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ١١٢).

الجبر الإصلاحي، فهب أن شخصاً أصيب في حادث سيارة فماذا يحدث؟ يذهب إلى الطبيب فإذا كان به كسر في عضو من أعضاء جسده فإنه يأمره بعمل جبيرة، وأن يستمر واضعاً لها مدة ما حتى يلتئم العظم، ويعود كما كان ويستطيع بعدها تحريك هذا العضو، فالجبيرة لها وظيفة وهي محاولة جمع العظم على بعضه حتى يلتئم، وكذلك والأوردة واللحم اللذان أُصِيبَا نتيجة الحادث، فمن الذي أمر هذه الأشياء أن تعود لما كانت عليه، أو أن تتجدد، ومن الذي أعطى القدرة للعظم أن يجتمع ويلتئم فيتحرك العضو بعد أن كان عاجزاً عن الحركة، فالطبيب والجبيرة والدواء كلها أسباب، ولكن من رب الأسباب والمسببات ومن هو أمرها؟ ومن الذي جعل الأسباب تعمل حتى يعود العضو إلى ما كان عليها صحيحاً مُعافى؟ لا بد أن نعي أنه الله سبحانه وتعالى وليست الأسباب بذاتها بغير خالق الأسباب، وهذا لا ينافي أن الله جعل الأسباب لها تأثير وأمرنا أن نتناولها، فالجبار أراد أن يُجبر العظم ويُعيده إلى ما كان عليه من سلامة فأمر الأسباب أن تعمل، ولو أنه أراد غير ذلك لما كان لهذه الأسباب أي تأثير، والواقع يُرينا ذلك فكم من مريض يتنقل من طبيب لطبيب، ومن دواء لدواء، ولا يحدث الشفاء؛ لأن الجبار لم يأذن أن يجبره ويشفيه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ

يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء].

جبره سبحانه للقلوب:

فبنزول السكينة والطمأنينة في القلب، يفرح القلب بالنصر والتأييد والعز، بعدما كان مُنكسرًا ذليلاً مهضومًا.

هب أن إنسانًا ظلم من جبار من جبابرة الأرض، فانكسر قلبه وحزن وأحس بالذل؛ لكونه عاجزًا لا يقدر أن يدفع عن نفسه ظلم هذا الطاغية، لكن لو علم مَنْ هو الجبار ودعا بهذا الاسم العظيم، لجبر الله قلبه، وملاً قلبه بالسرور والسعادة والطمأنينة والفرحة بنصر الله له نصرًا عزيزًا، فجبر القلب بنصره على عدوه وجعل العزة واليد العليا له، وهذا جبر للقلب عجيب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وكذلك الجبار من أوصافه	والجبر في أوصافه نوعان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا	ذا كسرة فالجبر منه دان
والثاني جبر القهر بالعز الذي	لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العلو	فليس يدنو منه من إنسان ^(١)

ذكر ابن القيم في هذه الأبيات ثلاثة معانٍ لاسم الله الجبار:

«أحدها: أنه الذي يجبر ضعف الضعفاء من عباده، ويجبر كسر القلوب المنكسرة من أجله، الخاضعة لعظمته وجلاله؛ فكم جبر سبحانه من كسير، وأغنى من فقير، وأعز من ذليل، وأزال من شدة، ويسر من عسير؟ وكم جبر

(١) القصيدة النونية لابن القيم بشرح الهراس (١٠٣/٢).

من مصاب، فوفقه للثبات والصبر، وأعاضه من مصابه أعظم الأجر؟ فحقيقة هذا الجبر هو إصلاح حال العبد بتخليصه من شدته ودفع المكاره عنه.

المعنى الثاني: أنه القهار، الذي دان كل شيء لعظمته، وخضع كل مخلوق لجبروته وعزته؛ فهو يجبر عباده على ما أراد مما اقتضته حكمته ومشيتته؛ فلا يستطيعون الفكاك منه.

والثالث: أنه العلي بذاته فوق جميع خلقه؛ فلا يستطيع أحد منهم أن يدنو منه^(١).

جبره سبحانه لكليمه موسى ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [القصص].

لما شاع خبر موسى ﷺ أنه قوي، تشاور فرعون مع قومه على قتله، فقيض الرب ﷻ لموسى ﷺ رجلاً ليخبره بمؤامرة فرعون وملئه ضده، فلما بلغ موسى ذلك الأمر، خرج وترك مصر متوجهاً إلى مدين، هارباً من فرعون وقومه.

قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ [القصص].

(١) ما بين القوسين من القصيدة النونية بشرح الهراس (١٠٤ / ٢) بتصرف يسير.

فلما خرج وتوجه ناحية فلسطين حيث لا ملك لفرعون فيها، وقد وجد
بئراً كبيراً اجتمع حوله أهل المكان وهم يسقون إبلهم وأغنامهم، ووجد من
دون هؤلاء القوم فتاتين صغيرتين تريدان سقي أغنامهما، إلا أنهما تصرفان
الغنم كلما اقتربت لتشرب من البئر، فتعجب موسى ﷺ من هذا المشهد،
فلماذا تقفان إذن وسط هذا الجمع؟! فسألتهما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا
نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣).

ونظراً لغرابة هذا المشهد إذ الاختلاط كان وقتذاك عند هؤلاء أمراً مستغرباً.
فقد قامتا بدفع هذه الشبهة عنهما، فقالتا: إن أباهم شيخ كبير وليس لهم
أخ من الذكور، وتريدان أن تسقيا غنمهما، فقام موسى ﷺ بالسقاية لهما،
وبعد ذلك جلس موسى ﷺ في ظل شجرة في حالة من الفقر والانكسار،
لماذا؟ لأن أكثر شيء يمكن أن يُشعر الإنسان بالانكسار وقوعه تحت القهر
والجور، فما تجده النفس من جراء ذلك أشد عليها من ألم البدن، وموسى ﷺ
لم يظلم فحسب، بل ترك أهله وبلده وخرج وليس له جهة بعينها يقصدها،
وهذا بلاء آخر، فمشى في الصحراء ليس معه مالٌ ولا أهلٌ، ولا عدةٌ ولا
عتادٌ لهذا السفر، ولم يكن كُلف بالنبوة بعد التي تعينه على تحمل المشاق،
فقد جرت سنة الله أن أشد الناس بلاء أفضل العباد، وهم الأنبياء.

فقال موسى ﷺ: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤).

«إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي، وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله،
والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة

داعياً ربه متملقاً»^(١).

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِيَةٌ بِبَشَرٍ عَدُوٍّ لِّكُمَا فَتَخَفَتَا مِمَّا جَاءَ بِهِمْ وَقَبِيحَ مَا قَحَطُوا وَفِى الدُّنْيَا كَثِيرٌ مِّمَّا يَسِفُونَ﴾^(٢) [القصص].

«وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى. فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء. ويدل على أن موسى ﷺ لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخدام الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، فقالت له: ﴿إِنَّكِ آتِيَةٌ بِبَشَرٍ عَدُوٍّ لِّكُمَا﴾ أي: لا ليمن عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مسكناً روعه، جابراً قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان»^(٢).

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَجِرُّهُ إِنِّي خِيفُ مِنْهُمَا وَكَانَ الْعَدُوُّ لِلْبَشَرِ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).

(٢) المصدر السابق.

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٤٦﴾ [القصص].

فمن أين جاءهما العلم بأنه قوي وأمين؟!

قوي: لأنه سقى لهما ودفع عنهما الناس.

أمين: لأنه لم ينظر إليهما فقد كان يسير أمامهما وهما يتبعانه.

وهاتان صفتان تجعلانه أفضل مَنْ يُستعان به، فقد يكون الرجل أمينًا ولكنه ليس قويًا، فلن يستطيع أن ينجز العمل الموكل له، وقد يكون قويًا ولكنه ليس أمينًا، ويظل صاحب العمل في حالة من الريب، لأنه لا يأمن جانب هذا العامل، فالخلل في العمل يكون بفقد إحدى الصفتين أو كلاهما.

قال تعالى عن شعيب^(١): ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص].

فاستأجر شعيب موسى عليه السلام لأجل معلوم مقابل أن يزوجه بإحدى ابنتيه. وبعد انقضاء الأجل الذي اتفقا عليه اشتاق موسى عليه السلام إلى أهله وعشيرته، فعزم على أن يرجع إلى بلده ظنًا منه أنه بعد انتهاء هذه المدة ربما يكون الناس قد نسوا ما صدر منه، وأثناء سيره في طريق عودته مع أهل بيته:

(١) وهو ليس بشعيب النبي، فلم يثبت دليل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، وأيضًا قال ابن كثير رحمه الله: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود] وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل.

﴿عَافِسُكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ ﴿٣٠﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص].

رأى عند جبل الطور في سيناء ناراً، فأراد أن يذهب إلى هناك ليأتي بجذوة منها لقضاء بعض حوائجهم، فلما أتاها ناداه الله تعالى.

رجل من عوام الناس، لا هو نبي ولا خطر بباله أن يكون كذلك، بل خرج من بلده خائفاً، هارباً، منكسراً، شاعراً بالاضطهاد والظلم، وكان أقصى ما يتمناه هو أن يعود لأرضه وأهله سالماً وأن يدفع الله عنه أذى فرعون وقومه، فلما ذهب إلى الجبل ليأتي بالنار إذا بالله رب العالمين يكلمه بصوت مسموع، وتلك عقيدة أهل السنة والجماعة، قال سبحانه: ﴿يَمْوِسَ ﴿٣٠﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأي جبر هذا الذي جبره الله ﷻ لموسى عليه السلام فبعد أن خرج من بلده ولقي ما لقي من الخوف، والوحدة، والغربة، وقلة الزاد، وكلها أمور تستدعي الهم والخوف والألم، ثم يأتيه هذا الجبر العظيم من قبل الرب الجبار، ولم يكن هذا هو أول جبر يجبره له ربه، فقد جبره أولاً بإرسال رجل إليه ليخبره بمؤامرة فرعون وقومه عليه ليقتلوه فخرج ونجاه الله منهم.

أما الجبر الثاني: فهو عندما اختار ماء مدين والتقى بالفتاتين ومساعدته لهما، وهذا اللقاء كان سبباً في جبر آخر.

الجبر الثالث: أن والد هاتين الفتاتين كان رجلاً صالحاً وصلاحه هذا

جعله يعرف أن موسى رجلاً تقيًا، وقدر هذه التقوى، ولهذا زوجه إحدى ابنتيه، فاكتفى بالتقوى ولم يشترط المال أو الجاه للزواج بابنته، ولو لم يكن هذا الرجل صالحًا لأعطاه أجر سُقيا الماء واكتفى بذلك، لكن صلاحه وتقواه رغبة في مصاهرته.

الجبر الرابع: وهو أن رب العالمين كلمه وهذا هو أعظم جبر على الإطلاق، وهنا كُلف موسى ﷺ بالرسالة فقد بدأت تأتية أوامر الرب جلّ جلاله، ولكن من هذا الذي يفوز بأعلى درجات الجبر؟

يفوز بها مَنْ حقق العبودية.

مَنْ أقبل على الله بكلّيته.

مَنْ علم مَنْ هو الله.

مَنْ خاف الله في السر والعلن.

مَنْ كان من الأتقياء الأنقياء.

هؤلاء هم الذين يجبرون أعلى درجات الجبر قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَتٌ

عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. حيث يكون الجبر فوق تصور العقول وفوق ما

يجول بالخواطر، فهو الجبار سبحانه الذي قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقد يجبر الرب من عباده الموحدين من هم دون

هؤلاء في المنزلة لحكمة يعلمها ويشاءها، مع تفاوت درجات الجبر لعباده.

جبره سبحانه للنبي الخاتم ﷺ:

ومن المعلوم أن النبي ﷺ عندما كُلف بالرسالة مكث في مكة ثلاثة عشر

عامًا يدعو قومه إلى التوحيد ونبذ الأوثان والأصنام وكل ما كانوا يعبدونه من

دون الله تعالى، فكثير منهم أبوا إلا الكفر والشرك، والعناد، والعصيان لكل ما أمروا به، وليس هذا فحسب، بل كانوا يسوموا من اتبعه أشد أنواع العذاب والنكال، وقد زادت همومه وتضاعفت عليه الأحزان بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وعمه أبي طالب الذي كان يحميه من أذى قريش، وكان رسول الله يحبه حباً شديداً، فتضاعف حزنه أن مات كافراً، وأما زوجته خديجة رضي الله عنها فكانت خير ناصر ومعين له - بعد الله تعالى - فضاقت به مكة. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطلق بدعوته إلى خارج مكة، فانطلق إلى الطائف عسى أن ينصره أهل الطائف وينقادون له ويستجيبون لدعوته إلى عبادة الإله الواحد، فالتمس من ثقيف النصرة والمنعة وإعانتته على قومه، فإذا بهم يخذلوه خذلاً نالاً يليق بكفرهم، فردوا عليه دعوته ولم يستجيبوا له، ليس هذا فقط بل إنهم سلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم ليسبوه ويؤذوه، ولنا أن نتخيل عظم الإهانة وخيبة الأمل والتعب النفسي الذي يلحق بالمرء إذا ما ذهب إلى آخر وهو يأمل فيه أن يُناصره ويجبره ويُعينه على أمره الذي فيه صلاح المدعو وقومه!! فلم يجن منهم صلى الله عليه وسلم إلا الألم والجراح والعذاب، فماذا فعل أكمل البشر، وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم؟

وتأمل ماذا فعل الجبار جل جلاله لجبر حبيبه وخليله وصفيه ورسوله صلى الله عليه وسلم؟
 عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ،

فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنَ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(١).

لقد لقيت من قومك: المراد من قومها قريش ومفعول لقيت محذوف تقديره لقد لقيت منهم ما لقيت، يوم العقبة: هو اليوم الذي وقف ﷺ عند العقبة التي بمنى داعياً الناس إلى الإسلام فما أجابوه، وآذوه وذلك اليوم صار معروفاً، على وجهي: أي على الجهة المواجهة لي، فالجار متعلق بانطلقت، أي انطلقت هائماً لا أدري أين أتوجه.

فلم أستفق إلا بقرن الثعالب: أي لم أفطن لنفسي وأنتبه لحالي وللوضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عند قرن الثعالب - وهو جبل بمكة - لكثرة همي الذي كنت فيه، فلما رفع رأسه فنظر فإذا هو جبريل ﷺ يخبره أن الله سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال تأمره بما شئت، فناداه ملك الجبال ثم قال: يا محمد.

ذلك فيما شئت: استفهام، أي فأمرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم: شرط وجزاؤه مقدر وهو أطبقت، أي إن شئت ضمنت الأخشين وجعلتهما كالطبق عليهم حتى هلكوا تحته، الأخشين: هما جبلا مكة أبو قيس والجبل الذي يقابله.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

فأي جبرٍ هذا: فبعد أن ردوا عليه دعوته وآذوه وسلطوا عليه السفهاء وهو النبي ﷺ صاحب المكانة وخاتم النبيين وسيد البشر لم يتركه ربه ﷻ الجبار فأنزل إليه جبريل ﷺ أفضل الملائكة ومعه ملك الجبال ﷺ، كل هذا جبرٌ من الله ومع كل هذا فإن أرحم الخلق أجمعين وهو في هذه الحالة من الأذى النفسي والبدني والانكسار والخذلان من ناس آذوه كان المفترض أن يكون رده هو أمر ملك الجبال بإطباق الجبلين وهم يستحقون هذا، فقد ذهب إليهم ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، لينقذهم من النار ويُدخلهم الجنة، لم يذهب إليهم طالباً لمال ولا لجاه ولا لسلطان ولا طلباً لمصلحة تخصه، فكان هذا ردهم، وكان رده ﷺ: «بَلْ أَرِجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فعسى الله أن يتوبوا ويعودوا أو أن يخرج من أصلابهم مَنْ يُوحِّد الله ﷻ.

لقد كان هم النبي ﷺ هو التوحيد وأن يدخل الناس في دين الله أفواجا وكيف يدخل هؤلاء الجنة، كان هذا هو شغله الشاغل، لا الانتصار لنفسه والانتقام منهم. **علينا:** أن نفتدي بنينا الكريم ﷺ في السماحة والعفو وسلامة القلب وصفاء النفس، لقد سامح في نفس وقت الاعتداء ولا يزال قلبه حزناً على ما لقي منهم، فقد يصفح الإنسان ويعفو عن غيره إذا اعتدى عليه ولكن بعد حين، أما أن يعفو في نفس اللحظة فهذا أمر عجيب غريب!!

ثم جبر ربنا سبحانه نبينا ﷺ بعد ذلك فرفع عنه هذا الهم والغم، وفي أثناء عودته من الطائف إلى مكة جلس ليسترخ من عناء رحلته تلك، فأرسل الله ﷻ إليه نفراً من الجن ليستمعوا له، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم منذرين مبشرين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف].

فقد أظهر الله شرف نبينا ﷺ حيث لَّيِّنَ له قلوب الجن فاستمعوا إلى القرآن بعناية وإصغاء، استماع إدراك اتصل به الإيمان بالله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

فمن جبر الجبار أنه إذا أغلق بابًا فتح لك بابًا آخر، فلا تيأس أيها العبد، فليس لزامًا أن يجبرك في نفس الشيء الذي تبغيه، فعساه سبحانه أن يكون قد حجب عنك النصر في هذا الأمر، ولكنه سينصرك ويجبرك في أمر آخر، ويكون جبره لك فيه أضعاف أضعاف ما كنت تبغي، قد لا يجبرك وأنت تدعو لابن من أبنائك، ولكنه يجبرك في أمر دينك ويجعل لك منزلة عالية في الآخرة، فلا تتعجب إن لم يجبرك في الولد، فقد يكون الولد لا يستحق الهداية، وتكون أنت الذي يستحق المحبة، فأراد بك ربك هذا الخير والعطاء والجبر فأعطاك وجبرك وكرمك.

وأعظم جبر هو أن يُجبر العبد في دينه الذي فيه النجاة والسعادة السرمدية، بأن يكون دينه دائمًا في علو وزيادة، فلا انتكاس ولا رجوع ولا انزلاق إلى المعاصي، ولا شبهات تضرب قلبه، ولذلك قال شيخ الإسلام

ابن تيمية: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً مثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته»^(١).

فليس الجبر للفقير بأن يعطيه ما لا فيصبح غنياً، فقد يظل فقيراً أي لا يجبره في هذا الجانب، ولكن يجبره في أمر آخر، لا بد أن نفهم ونذكر هذه الأمور حتى نرى نعم الله ﷻ، فليس شرطاً أن تُجبر فيما تبغي لأن ما تبغيه قد يكون شراً لك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ما سبق الإسراء والمعراج من ابتلاءات للنبي ﷺ:

مات أبو طالب عم النبي ﷺ وقد كان - رغم كفره وعدم إيمانه بما يدعو إليه ابن أخيه - حائط صد يدفع عنه أذى قريش، ويحميه منهم ويرد عنه أذاهم، ثم تبع ذلك موت زوجته خديجة رضي الله عنها ثم ما لقيه من أهل الطائف كما سبق بيانه، فأى كرب هذا، لقد اجتمعت عليه الكروب من كل ناحية إلى جانب أذى قريش له وعدم استجابتهم له، وفي خضم هذه الشدة يأتي جبر الجبار لنبيه ﷺ وكأنه يقول لنبيه وحييه إذا لم يكن أهل الأرض جبروك وأطاعوك فلا جبرنك بأهل السماء، فكانت رحلة الإسراء والمعراج، وبعد أن كان القلب حزيناً منكسراً أكرم أعظم إكرام، فأرسل إليه جبريل عليه السلام وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأمّ الأنبياء فصلى بهم في المسجد الأقصى، ثم انطلق مع جبريل عليه السلام حتى عرج به إلى السماء وكان كلما مر على سماء من السماوات رحب به من فيها

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية (ص: ١٨٧)، مجموع الفتاوى (٣٢٠ / ١١).

من الملائكة والأنبياء، فلما وصل إلى السماء السابعة رفعت له سدرة المنتهى وهي شجرة ورقها مثل آذان الفيلة، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران وغير ذلك مما رآه في هذه الرحلة المباركة.

فأي جبر وأي عظمة وأي عطاء وإنعام من الجبار، وقد كُلف بالصلاة في السماء السابعة وقد فرضت عليه وعلى أمته خمسون صلاة إلا أن موسى عليه السلام حين أخبره النبي ﷺ بأمرها، أشار عليه أن يعود إلى الرب تبارك وتعالى ويسأله التخفيف فما زال يرجع إلى ربه يسأله التخفيف حتى وصلت إلى خمس صلوات، فقال له موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فقال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأَسْلَمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»^(٢). فجعل أجر الخمس صلوات يعادل أجر خمسين صلاة، وهذا من جبر الله لنبيه ﷺ.

وكما جبر الرب تبارك وتعالى أنبياءه فإن جبره يصل إلى المؤمنين أيضاً:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٣٨) [الحج].

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي

(١) راجع - إن شئت - رحلة الإسراء والمعراج في صحيح البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢، ١٦٤)، وغيرهما.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٢٠٧)، صحيح مسلم (١٦٢).

يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

فمن وقع عليه ظلم وكان من أولياء الله، ولم يجد من يُدافع عنه، فليكن على يقين تام بأن الله ﷻ هو الذي يتولى الدفاع عنه.

فهب أن شخصاً يغتابه الناس ويتناولون سيرته بالسوء وهو لا يدري فإذا بالعليم القدير يقيض له من يُدافع عنه ويذكر محاسنه وفضائله ويمتدحه فيكفون عن أقوالهم الشنيعة في حق هذا الشخص، لقد جاء الدفاع من عند الجبار، وقد يتعرض الإنسان لفتنة شديدة، ولا يعرف كيف يخرج منها سالمًا، فإذا بالجبار يجعل له مخرجًا من حيث لا يحتسب، وهكذا يأتي جبر الجبار وينصب على العباد ولكن منهم من غفل عن هذه المنّة.

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ: يا لها من منقبة ويا لها من منزلة شريفة عظيمة.

فإذا كان العبد من أولياء الله وأراد من يعاديه إلحاق الأذى به، فقد سفه نفسه وأهلكها، فمن ذا الذي له قبل أن الله القوي العزيز الجبار يُحاربه؟!

هذا أمر شديد وعظيم ينبغي أن يتفطن له قبل الإقدام على معاداة أولياء الله.

قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس] فكل مؤمن

تقي هو من أولياء الله، مع اختلاف درجات الولاية بحسب درجة التقوى،

فالصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم من أولياء الله، ومن دونهم من التابعين الذين شهد لهم الناس بالعلم والفضل أيضًا من أولياء الله بلا شك، ولكن الولاية بينهم وبين الصحابة تتفاضل، وكذلك بين سائر المتقين من المؤمنين.

فإذا كنت مؤمنًا وحققت التقوى في أقوالك وأفعالك وفي الظاهر والباطن، واستننت بسنة نبيك ﷺ فأنت من أولياء الله بنص الآية، ولو كنت لا تملك مالا وليس لك منزلة، أما المبتدع فليس من أولياء الله ولو كان شيخا يعتلي المنابر.

ومن جبره لعباده جبره للمظلوم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدَيْنِ عَلَى وَلَدِهِمَا»^(١).

حين يُظلم الإنسان يمتلئ قلبه غيظًا من الظالم، ومع قلة حيلته وعجزه عن استيفاء حقه من الظالم يزداد هذا الشعور، فلو أنه تضرع في دعائه لله الجبار لاستجاب له، فمن لم يتعجل الإجابة، وفوض أمره إلى الله - ولم تترشح ثقتة بربه طرفة عين، حين يرى الظالم وهو يطغى ويبغي على العباد وبالرغم من ذلك يعلو في الدنيا، ويُعطى القوى والمال والسلطان - جبره الله وكشف له عن الحكمة من عطاء الباغي أنه استدراج بالنعم، فالله جل

(١) أخرجه أبو داود (١٠٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وأحمد (٧٥٠١) باختلاف يسير، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢) واللفظ له وحسنه الألباني في الأدب المفرد (٢٤).

وعز يُملي له، ولا يهمله، ولا يتركه بغير عقاب.

قال تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنِّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف].

فالرب تعالى هو الذي يتولى رد الحقوق لأصحابها، فمن معاني هذا الاسم أنه سبحانه ينصر المظلوم ويُعطيه ويُحسن إليه، فعلى المظلوم أن يصبر ولا يتعجل النصر وأن يُحقق الاستقامة، ويلزم الدعاء والطاعة والعطاء لهذا الدين، فالنصر آتٍ لا محالة.

جبر الله للمظلوم ليس كلمات تُقال لتطيب خاطره ولكنه قول الله وقول رسوله ﷺ، تلك عقيدة لا بد أن تكون راسخة في قلوب الناس.

أما الشك في عدل الله، فهذا هو ضلال مبين، وانتكاس في الفكر، وفساد في الاعتقاد، يحتاج إلى تصحيح وإلى اعتذار إلى الرب سبحانه بالتوبة والاستغفار، وطرد هذه الأفكار من العقل والقلب.

حادثة الإفك، وجبر الرب تبارك وتعالى لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛

وحادثة الإفك لم تكن مصيبة لأم المؤمنين والنبي ﷺ فحسب، بل كانت مصيبة للأمة كلها، زوجة النبي ﷺ بل أحب زوجاته إليه تُتهم في عرضها، كيف؟! الصديقة بنت الصديق الحصان الرزان، التقية الطاهرة العفيفة، العابدة الزاهدة، العالمة.

تأمل كيف برأها الله ﷻ من فوق سبع سماوات في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة وهي لا حيلة لها ولا حول لها ولا قوة!!

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا بِرَأْيِ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا. قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ

ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشْهَدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً، فَسَيَرُوكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنَّ لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، فَلَنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقَنِي، فَوَاللَّهِ لَا أَحْدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [يوسف] ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبْرِّئِي بِرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهَ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلَ الْجَمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَفَسَّرِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكَ». قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ﷻ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ العَشْرَ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ بْنِ أَثَّانَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقَرِهِ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولَؤُلَا أَلْفَضِلِ مِنْكُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿عَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [النور]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَارْجَعَ إِلَى مِسْطَحَ النِّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لَزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتَ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقْتُ أُخْتُهَا حَمْنَةً تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ» ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: «وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنْفِ أَنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على يقين أن الله سيبرئها، وأنه ناصرها على من عاداها وأشاع عنها هذا البهتان، لعلمها بصفات ربها جل وعلا.

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

لكن لم يخطر ببالها أن ينزل في شأنها قرآنًا يُتلى قالت: (لشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ) لقد كان رجاؤها من الله أن يرى النبي ﷺ في نومه رؤيا يُبرئها الله بها وهي تعلم أن رؤيا الأنبياء حق؛ لأنها وحي، ولكن جاءها جبر الجبار الذي جبرها أعظم أنواع الجبر.

لقد نُصرت بقرآن يُتلى حتى لا يجروا أحد أن يتكلم بعد هذا، ولو جاء النصر برؤيا رآها النبي ﷺ وخرج ليقصها على الناس لقال المنافقون: لقد ادعى ذلك لُبرئها ويُبرئ نفسه وعرضه، ولكن بنزول القرآن حُسم الأمر لصالحها وظهرت براءتها، وبطل كيدهم، ورُد في نحورهم، سبحانه الله العظيم.

o آثار معرفة العبد لهذا الاسم:

الأثر الأول: يعلم أن الجبار في حق الله صفة كمال أما في حق

البشر فهي صفة نقص:

سبق بيان أن الجبار يعني: أنه يجبر المظلوم فيدفع عنه ظلمه ويُعطيه سُؤله ويقضي له حاجته، ويقهر الطاغية الباغي الظالم، وهذا في حق الله كمال، أما المعنى الثاني لاسم الجبار في حق البشر يعد صفة مذمومة لمن اتصف بها؛ لأن الجبار من البشر يبطش ويقهر ويقتل ويظلم، ويتعدى على حقوق الغير ويسلبها وهذا من طيش عقله، ومرض قلبه.

ومن مقتضى اسم الجبار أيضًا، أن يقتص من الظالم ويُعاقبه، فجبروته ليس عن تشفٍّ ولا ظلم ولا انتقام بغير حق، كما يحدث من البشر.

فمن الناس من إذا أودى من شخص وكان من أصحاب النفوذ والقدرة

والجبروت ما يمكنه من دفع هذا الأذى عن نفسه، لكن جبروته لا يجعله يكتفي بذلك، بل يسعى للانتقام والانتصار لنفسه أضعاف ما ناله من أذى، وهذا من باب التشفي والانتقام، والانتصار للنفس، وتلك كلها من صفات الإنسان الظلوم الجهول.

الأثر الثاني: العلم التام بأن الله تعالى يقهر الجبابرة:

إنسان جبار متكبر يقهر عباد الله، ويعتدي على حقوقهم، فتراه يبطش بهذا وينال من هذا، ويقطع من مال هذا.

فَمَنْ ذا الذي يستطيع أن يقهره؟ لا يقدر عليه إلا الجبار سبحانه، فالقهار هو الذي سيقهره لأنه هو الذي يقهر الجبابرة ويكسر الأكاسرة وينصر المظلوم ويجبر المقهور.

فليحذر العبد من هذه الصفة، فمن تلبس بها، يكون قد جمع بين أمرين غاية في الخطورة:

أحدها: منازعته لله سبحانه في صفة من صفاته وهي الجبروت، وهذا محرم عليه، فلا يجوز أن يتشبه العبد بصفة الله (الجبار).

الثاني: أذى الخلق بالتجبر عليهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۚ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۚ﴾ [مريم].

أي: لم يجعلني جبارًا: مستكبرًا عن عبادته وطاعته^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦٨/٣).

يقول سفيان الثوري: الجبار: هو الشقي الذي يقتل على الغضب^(١).

الأثر الثالث: جبر الضعفة من العباد:

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: رَأَى سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ»^(٢).

«فهذا الحديث فيه: أنه لا ينبغي للأقوياء القادرين أن يستهينوا بالضعفاء العاجزين، لا في أمور الجهاد والنصرة، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب.

يُبَيِّنُ الرسول ﷺ أَنَّهُ قَدْ يَحْدُثُ النِّصْرَةُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَبَسْطُ الرِّزْقِ بِأَسْبَابِ الضَّعْفَاءِ، بِتَوَجُّهِهِمْ وَدَعَائِهِمْ، وَاسْتِنصَارِهِمْ وَاسْتِرْزَاقِهِمْ.

وذلك أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان:

نوع يشاهد بالحسّ، وهو القوة والشجاعة القولية والفعلية، وبحصول الغنى والقدرة على الكسب.

وهذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به حصول النصر والرزق، حتّى وصلت الحال بكثيرٍ من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، ووصلت بغيرهم إلى أن يتضجّروا بعوائلهم الذين عُدِمَ كسبهم، وفقدت قوتهم، وهذا كلّ قصر نظر، وضعف إيمان، وقلة ثقة بوعد الله وكفايته، وقلة نظر للأمور على حقيقتها.

وأما النوع الثاني: أسباب معنوية، وهي قوّة التوكل على الله في حصول

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٦).

المطالب الدينية والدنيوية، وكمال الثقة به، وقوة التوجه إليه والطلب منه. وهذه الأمور تقوي جداً من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز، فانكسرت قلوبهم، وتوجهت إلى الله، فأنزل لهم من نصره ورزقه - من دفع المكاره، وجلب المنافع - ما لا يدركه القادرون، ويسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم في حساب، فإن الله جعل لكل أحد رزقاً مقدراً.

وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين، وأعان القادرين على ذلك، وخصوصاً من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال»^(١).
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ؛ نِصْفِ يَوْمٍ»^(٢).

وهذا الحديث بشري للفقراء بسرعة دخولهم الجنة قبل الأغنياء بوقت طويل؛ لأن نصف يوم من أيام يوم القيامة يقدر بخمسمائة عام من أعوام الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣) [الحج].

وقال رسول الله ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»^(٤).

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٦٥٤)، والترمذي (٢٣٥٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٨)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٧).

وهذا أيضاً جبر لقلوب الفقراء الأتقياء حتى لا يحزنوا على فقرهم ولا يحسدوا الأغنياء على أموالهم؛ لأن الفقير في مكانة عالية بجبر الله له في الدنيا والآخرة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: اتُّوهُمْ فَحْيُوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي، لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿الرعد﴾ (١).

هذا هو حال الفقير الصابر في الدنيا فلم يحسد الغني؟ ولم يشك الله لعباد الله؟ فليعلم الفقير أن الفقر منة من الله وفضل، وأن الجبار سيجبره جبراً عظيماً في الآخرة وكفى بها نعمة ومنقبة وشفراً أن يدخل قبل الأغنياء بخمسمائة عام، ثم قبل دخوله الجنة تأتیه الملائكة لتحيته، ثم تأخذه إليها،

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٥٧)، وابن حبان في صحيحه (٧٤٢١)، وعبد بن حميد (٦٥٧٠)، والبخاري في مسنده (٢٤٥٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٦٢): رجالهم ثقات، والطبراني (١٤/١١٣) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٨٣).

ثم بعد الدخول تُلقِي عليه السلام.

فأَيُّ شَرَفٍ وَأَيُّ عِزٍّ وَجَبَرٍ مِنَ الْجَبَّارِ، لَيْتِنَا نَعْقِلُ وَنَفْهَمُ وَنَسْتَحْضِرُ دَائِمًا
اسْمَ الْجَبَّارِ فِي حَالِ تَعَرُّضِنَا لِلْأَذَى؛ حَتَّى نُجَبِّرَ مِنَ الْجَبَّارِ وَيَأْتِينَا جَبْرُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا نَحْتَسِبُ، فَنَسْتَحْضِرُهُ عِنْدَ كُلِّ هَمٍّ أَنْ يَرْفَعَهُ، وَعِنْدَ كُلِّ كَرْبٍ أَنْ
يُفَرِّجَهُ، وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ مَشْكَلَةٍ ابْتَلَيْنَا بِهَا؛ لِيَأْتِيَ الْفَرْجُ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِذَا فَعَلْنَا
ذَلِكَ فَإِنَّ الْقُلُوبَ سَتَمْتَلِئُ بِحُبِّ اللَّهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ
وَبِهِمْ نَنَالُ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



اسم الله

الكريم والكرم

٤٢-٤١

الكرّم والأكرّم

أجمع العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى على أن الكريم من أسماء الله تعالى، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤٠) [النمل]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) [الأنفطار].

وأما الأكرّم: فأكثر أهل العلم على أنه من أسماء الله تعالى، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) [العلق] (١).

كثير من الناس ليس عندهم إلمام بمعاني الكريم، ولغتنا العربية لغة ثرية، وقد جاء فيها معنى هذا الاسم بصورة واسعة.

□ معنى الكريم لغتي:

الكاف، والراء، والميم، أصلٌ صحيحٌ له بابان: أحدهما: شرفٌ في الشيء في نفسه، أو شرفٌ في خُلُقٍ من الأخلاق. يقال: رجلٌ كريمٌ، وفرسٌ كريمٌ، ونباتٌ كريمٌ. وأكرمَ الرجلُ، إذا أتى بأولادٍ كرام... وكرمَ السحابُ: أتى بالغيث، وأرضٌ مكرّمة للنبات: إذا كانت جيدة النبات. والكرمُ في الخلق: يقالُ هو الصفحُ عن ذنبِ المذنب (٢).

قال ابن سيده رَحِمَهُ اللهُ: والكرمُ: نقيض اللؤم، يكون في الرجلِ بنفسه وإن لم

(١) راجع - إن شئت - جمع أسماء الله الحسنى لجمع من العلماء - باب التمهيد - الجزء الأول من الكتاب.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥ / ١٧١ - ١٧٢) باختصار.

يكن له آباء.

ويستعمل في الخيل والإبل والشجر وغيرها من الجواهر، إذا اعنوا العتق، وأصله في الناس^(١).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: الكريمُ: الجامعُ لأنواع الخير والشرف والفضائل.
ومنه الحديث: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ...» الحديث^(٢) لأنه اجتمع له شرف النبوة والعلم والجمال والعفة. وكرم الأخلاق، والعدل، ورئاسة الدنيا والدين...

وفي حديث الزكاة «اتَّقِ كَرَامَ أَمْوَالِهِمْ»^(٣) أي نفائسها التي تتعلق بها نفس مالِكها ويختصُّها لها، حيث هي جامعةٌ للكمال الممكن في حقِّها، وواحدتها: كريمة^(٤).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله جل وعز: ﴿وَنُذْخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(٢١) [النساء]، قالوا: حسنًا وهو الجنة، وقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢٢) [الإسراء]، أي: لينا سهلاً إكراماً لهما، وقوله: ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، أي: فضلت، وقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(٢٣) [المؤمنون]، أي: العظيم^(٥).

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٧/٢٧).

(٢) قال رسول الله: «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام» البخاري (٣٣٨٢).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٢/٤-١٦٤) باختصار.

(٥) تهذيب اللغة (١٢٥/١٠).

«فالكريم من له كرمٌ وكثرُ خيرُهُ وعمَّ نفعُهُ، وقيل: الكريمُ الصفوحُ، ومنه قول أهل اللغة: شاةٌ كريمةٌ، إذا كانت عند الحلب تستقر وتولي عن الحلاب صفحةً ووجهها، كأنها تُعرض عنه ولا تمنعه من الحلب. فكَذلك الكريمُ من الرجال، الصفوح كأنه يُعرض عن ذنب صاحبه، وقيل: الكريم العزيز، وهذه الأوجه يجوز وصف الله ﷻ بها»^(١).

٥ معنى الكريم في حق الله تعالى:

فكل ما ذكرناه من معاني الكرم في اللغة وجب إثباتها لله على أكمل وجه بما يليق بالله ﷻ.

فمن معاني الكريم أنه «البهى الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره»^(٢).

أما وصف نفسه بالكرم:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾^(٤٠) [النمل].

قال ابن كثير: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٨) [إبراهيم]^(٣).

فقد تقدم أن من معاني الكرم العظمة، والكرم ثابت لله وإن لم يعبد أحد؛

(١) الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١١٢ / ١).

(٢) ما بين القوسين من التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص: ٢٢٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ١٩٣) ط. دار ابن رجب.

لأن الله كان ولم يكن شيء فهو غني عن عبادتنا، فعظمته ليست مفتقرة لأحد فهو عظيم في نفسه، فليس عبادتنا تزيد عظمته ولا تركها تنقص عظمته، فلم يزل ولا يزال بصفاته التي هي الكمال كله، فهو الكريم على الحقيقة.

وأما وصف كلامه بالكرم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَرِيبٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة].

فالقرآن كلام الله ووصفه أنه كريم لأنه كثير الخير، غزير العلم، كثير النفع، وكل خير وعلم مستقى ومستفاد من القرآن، فلو تدبر العبد القرآن وفهم معانيه ووقف عندها وقفة المتدبر المتأمل وأعطاهها حقها سيعلم ما في القرآن من خيرات وبركات وعجائب لا تنتهي، فهو كتاب كريم.

وأما وصف عرشه بالكرم في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون].

فكما ذكرنا أن من معاني الكرم العظمة، فلا أحد يدرك عظمة العرش ولا يعلم قدره إلا الله تعالى، وأيضاً وصف العرش بأنه كريم لأنه حسن المنظر - وهو من معاني الكرم -، فالجنة باهرة الجمال، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا العرش سقفها فما بالك بجماله؟!

وأما وصفه النبات بالكرم في قوله تعالى: ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ﴾ [النمل].

أي أنها حسنة المنظر وهي من معاني الكرم، والحدائق والزروع إذا نظرت إليهم أعطوك من جمالهم بهجة وفرحاً، لذلك ترى كثيراً ممن يطيلون الجلوس على الهاتف وغيره من الأجهزة والجمادات يشكون من الاكتئاب والضيق، فلو أنهم أعطوا وقتاً للذهاب للأماكن التي فيها زروع وثمار

وأشجار، لوجدوا انفساحًا في النفس وانشراحًا في الصدر وخاصة لو كان يصحب التأمل ذكر الله.

أما اسمه الأكرم:

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾ [العلق].

أعاد الأمر بالقراءة مخبرًا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم، وهو كثير الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، لأنه مهما كثر خير الإنسان فهو محدود، ولكن الله ﷻ الخير كله بيده، والنعم كلها هو موليتها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقًا^(١).

أيضًا من معاني الأكرم:

«الذي هو فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمالٍ ووصفٍ، ومنه كل خير وفعل، فهو (الأكرم) في ذاته وأوصافه وأفعاله»^(٢).

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: أمّا إذا قلنا إنّ الكريم هو الكثير الخير، فمن أكثر خيرًا من الله؟ لعموم قدرته وسعة عطائه، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]^(٣). انتهى.

أجمع أهل التفسير على أن خزائن كل شيء تشمل: خزائن الرزق والصحة والأموال والأولاد وغير ذلك من الخزائن والأشياء المفتقرة للناس إليها، وإذا

(١) ملتقط من مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٢) بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ١٦٦) وما بعدها.

كان سبحانه من يملك الخزائن وحده وهو كريم فكيف يكون عطاؤه؟!
فقد يظن البعض أنه لم يصل إليه من هذا العطاء إلا القليل، وهذا ظن
خاطئ فكل إنسان وصل إليه الكثير والكثير، ولكن أكثر الناس ينظرون إلى
العطاء والكرم والسعادة على أنها في أشياء بعينها، وهذا فساد في التصور،
فسبحانه أعطى الجميع لأنه الكريم، فلا بد من مراجعة النظر في أنفسنا
وحياتنا حتى نرى كرم الله، فإذا علمنا كرمه ازداد شكرنا له، وبزيادة الشكر
يزداد العطاء، وتقيد النعم ولا تزول.

من معاني الكريم أنه دائم العطاء:

فسبحانه هو دائم الخير على الحقيقة، فلو قُدِّرَ أن هناك شخصًا كريمًا
ينفق ويغدق على الخلق فتراه يرعى الأرامل والأيتام والفقراء، ويسعى في
الخير، فسوف يأتي يوم ينقطع هذا العطاء إما بموته أو فقد ما ينفق منه أو
غير ذلك، أما الله الكريم فدائم الخير لا ينقطع عطاؤه، فكل ما دونه من
عطاء ينقطع إلا هو، فعطاؤه متصل في الدنيا وكذلك في الآخرة، فكرمه دائم
بالإحسان والعفو والمن على عباده بالجنة الدائمة المليئة بالخير، فالعطاء في
الجنة دائم مستمر ومتجدد.

ومن معاني الكريم سهولة حصول الخير منه:

فالخير عند الله تحصيله سهل قريب التناول لأنه ليس بين الله وعبده
حجاب، فإذا سأله العبد أعطاه وجعله ينهل من كرمه، ولكن ترى الكثير
بسوء تصرفه لا يصل إلى الخير.

فالإنسان في الدنيا حتى وإن كان كريماً لا تكاد تأخذ منه شيئاً بسهولة ويُسر في كل وقت، فعطائه غير متناول على الدوام، فلو أن أميراً من الأمراء أو حتى رئيساً يملك الأموال والجاه والسلطة واشتهر بالكرم، فهذا الكرم ليس دائماً عنده، لأن هناك حجاباً بين الناس وبينه، فلا يستطيعون طلب ما يريدون في كل وقت وعلى أي حال، فقد يمنعهم الخدم أو الحاشية التي حوله، أو أن صاحب العطايا يمل من كثرة ما يُطلب منه، أما الله فهو دائم الخير والعطاء على الحقيقة. فهذا الأمير عبد مثله مثلك ولكن لا يسهل الوصول للخير الذي عنده لأنه بينه وبين الناس أسوار وأبواب وحرس، فإذا أردت أن تطلب شيئاً منه يمنعك أحد هؤلاء، أما الله سبحانه وتعالى فليس بيننا وبينه حجاب ويسهل الوصول لما عنده من الخير، فأني نعمة هذا وأي كرم هذا؟! هل هناك كرم على الحقيقة بعد ذلك؟!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة].

فالعبد الفقير يصعب الوصول إليه، والملك الجليل يسهل الوصول إليه؛ بدعوة بإخلاص، ولكن الشيطان يخذل الإنسان ويجعله يدعو بلهو وعدم تضرع وذل، فيحول بينه وبين الوصول للملك، أو يجعله يئس ويترك الدعاء، أو يجعله يقترب من الذنوب التي تحول بينه وبين استجابة دعائه، فالنفس تحتاج إلى إرشاد وتعليم وبصيرة حتى تنهل من خيرات الكريم.

ومن معاني الكريم أنه ذو قدر وشأن عظيم ولا أحد يستطيع أن ينال منه؛

وهذا كله على الحقيقة لا يكون إلا الله تعالى، فالله العزيز لا أحد يستطيع

أن ينال من جانبه، فأَيُّ رئيس أو ملك صاحب سلطة وحاشية يمكن أن يُغتال أو يُنال منه بأي وجه؛ لأنَّ عظمته وقدره محدود، خلاف عظمة وقدر وكرم الله فهو غير محدود.

وقد ترى شخصًا له عظمة وقدر عند الناس من وجه، ومن وجه آخر ليس له قدر، فقد نجد عالمًا له قدر عظيم بين طلبة العلم، ولكن عند عوام المسلمين -غير مشغولين بالعلم- لا قدر له، بل ترى منهم من يسبه ويتقص من قدره، وكذلك أهل الضلال والفساد لهم من يحبهم ويشجعهم على ضلالهم، ولكن أهل الصلاح يبغضون ضلالهم، لذلك ليس لأحد قدر على الحقيقة إلا الله تعالى.

وكل إنسان نال منزلة أو شرفًا أو منصبًا أو مالًا فمن عند الله، فلولا أنه منَّ عليه بذلك ما ارتقى هذه المنزلة، وحتى وإن كان أخذ بالأسباب واجتهد ولكن الله هو من وفقه إلى كل ذلك، فكل ما فيه العباد من كرم الكريم.

فترى الأب يسعى لتحصيل الرزق ويجد ويتعب لسد حاجة أولاده وأهل بيته، فمن الذي سخر هذا الأب للأولاد لينفق عليهم وأعطاه كل هذا الحنان حتى أنه يفني نفسه من أجلهم؟ سبحانه الكريم ملأ قلبه بالرحمة على أولاده فأكرمهم.

ومن معاني الكريم أنه المكرم:

الذي يكرم العباد، والمكرم على الحقيقة هو الله، فمن الذي يكرمك بكل المعاني التي ذكرناها غير الله الكريم.

وهناك أمر لابد من الانتباه إليه أن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيرًا

وأكرمه فمن المحال أن أحداً من البشر يسلب هذا الكرم أو يهينه مهما كانت سلطته، ومن يهن الله ﷻ فلا يستطيع أحد أن يكرمه، قال جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

فكم من إنسان ملك الأموال أو العز والشرف أو المنزلة وفي لمح البصر سلب منه ذلك كله، وأهانته الله وأذله بين البشر، فلنحذر من بطش الله، نعم هو كريم ولكنه قهار عزيز ذو انتقام.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: - في تفسير قوله ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ - يقول تعالى ذكره: ومن يهينه الله من خلقه فيشقه، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ بالسعادة يسعده بها؛ لأن الأمور كلها بيد الله، يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء، ويشقي من أراد، ويسعد من أحب^(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه»^(٢).

فالسعيد من وعظ بأفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها، والمقصود بالشقاء الآخرة، أما شقاء الدنيا فأمره هين بالنسبة لعذاب الله تعالى.

قد يسأل سائل فيقول: الله تعالى غني عن العالمين، فلماذا خلقنا؟

ولماذا أمرنا بالعبادة وهو لا يحتاج إلى عبادتنا؟

الجواب: قد بين الله ﷻ في أكثر من موضع في كتابه العزيز الحكمة من

(١) تفسير الطبري (١٨/٥٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٨) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه.

خلق الجن والإنسان، ألا وهي العبادة قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات]. والعبادة اختبار وابتلاء للعباد، ليتبين من يكون منهم محسناً ومن يكون مسيئاً، فهذا الابتلاء يُظهر الصادق من الكاذب، وكل ذلك معلوم لله تبارك وتعالى قبل ظهوره، وقبل خلق أفعال العباد. ولكن ظهور أعمال الجن والإنس يترتب عليه الجزاء - الثواب والعقاب - وهذا من كمال عدل الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وقال جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٢﴾ [المالك].

وقال: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ [العنكبوت].

ومن حكمته من خلق الخلق، أن يعلم العباد كمال علمه وقدرته فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته ^(١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ [الطلاق].

فالله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، ولكنه يحب من عباده أن يعبدوه

(١) ما بين القوسين من تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧٢).

ويطيعوه، وعبادته تتحقق بكمال الحب مع كمال الافتقار والذل إليه سبحانه وتعالى، ونفع ذلك عائد على العباد.

قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وفي رواية: إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١).

ومن معاني الكريم أنه يعطي بغير طلب:

فسبحانه بدأ خلقه بالنعيم، فلما أنزلنا من بطون أمهاتنا خلقنا على أكمل

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

حال، وجعل لنا السمع والبصر والفؤاد وغير ذلك من النعم، وكل هذا من غير استحقاق وبغير سؤال، وأيضًا ختم أحوالنا بالنعم بأن نموت على الإسلام فيكون مآلنا إلى جنة الخلد، وإن سبق دخول الجنة عذاب، فلا يخلد في النار من مات على التوحيد.

ولو جاء في القرآن أو السنة ترتيب الجزاء على أعمال معينة نفعلها، فلنعلم أنها أسباب، وكل هذا عطاء وتفضل منه وليس لأننا فعلنا كذا فوجب أن نأخذ كذا.

مثل قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]، فلا يقل أحد: أعمالي ستدخلني الجنة، نعم الأعمال سبب ولكنها ليست ثمنًا لجنة عرضها السموات والأرض، فالجنة تفضل من الله علينا، فانتبه.

ومن كرم الكريم سبحانه أنه يعطي ولا يبالي؛

الناس في الدنيا تعطي وتنفق، ولكنها تبالي وتخشى أن ينفد المال، فتعطي بحذر، ولكن الله يعطي ولا يبالي؛ لأن خزائنه لا تنفذ. وجبل البشر على حب من أحسن إليهم، فلو أن شخصًا لا تحبه وأحسن إليك مرارًا في الغالب ستحبه، فمع تكرار الإحسان تتفجر ينابيع الحب في القلوب.

فحري لباغي الخير أن يستفيض في كلامه عن إحسان الله لعباده وعطاءه لهم؛ لأن سبب نقص محبة الله في القلوب من نقص معرفته ومعرفة إحسانه وعطاءه لنا، فلو علمنا كم أحسن الله إلينا وتودد وأعطى وأكرم وغفر وعفا

ورحم لا متلأت قلوبنا حبًا وتعظيمًا وخشية وإنابة له سبحانه وتعالى وعز وجل.

والقلوب أيضًا جُبلت على بغض من أساء إليها، وهذا البغض سرعان ما يتمكن من القلب، فيمكن أن يحسن أحدهم إليك مرارًا حتى تحبه، ولكن إذا أساء إليك، فقد تبغضه ولا تسامحه، وهذه طباع تراها في البشر وهي من صفات النقص فيهم.

وإذا أبغضت أحدًا فلن تغدق عليه العطاء، وإذا أعطيته مرة فلن تعطيه الثانية، ولكن الكريم على الحقيقة هو الرب تبارك وتعالى، يعطي من يبغض ومن يحب، فسبحانه لا يحب الكافر فهو عدو له، ومع ذلك يعطيه ويرزقه، فالكفار منهم من ينكر وجود الله، ومنهم من ينسب له الولد، ومنهم من يعبد غيره، ومع ذلك أعطاهم الجمال والمال والتحضر، وغير ذلك من النعم، فكرمه واسع عظيم حتى مع الكافر فربما خصه بمزيد من العطاء عن المسلم ولكن هذا لحكمة بالغة، ولكن في الآخرة ليس له نصيب إن مات على الكفر.

من معاني الكريم أنه يعطي من يحتاج ومن لا يحتاج؛

في الدنيا تفاوت تحتار فيه العقول، ترى شخصًا غير محتاج ولكن الله يعطيه ويمنّ عليه ويجزل له العطاء، وكذلك تراه يُعطي المحتاج، ولكن عطاؤه متفاوت، فيعطي البعض بكثرة ويصب عليهم العطاء صبًا، ويعطي آخرين ما يكفي حاجتهم.

فنحن نشاهد اليوم بعض أفراح من وسّع الله عليهم بالعطاء ونرى ما فيها من سفه وإنفاق للمال في غير مواضعه، والكل سيسأل عن ماله من أين

اكتسبه، وفيما أنفقه، في يوم عظيم طويل، شديدة أهواله، كثيرة كرباتِه.
أهل الدنيا مساكين، لا يعلمون أنهم سيحاسبون على هذا العطاء
المصبوب عليهم، ويا ليتهم سعداء.

فهناك فقراء مسلمون لا يجدون ما يقيم صلبهم من الطعام، ولا ما يستر
بدنهم من الثياب، ومنهم من لا يجد مأوى له، وتراهم مجتمعون على حفظ
القرآن، والسعادة تظهر على وجوههم، وقلوبهم مليئة رضا عن الله، فهم وإن
كانوا حرموا نعيم الدنيا المادي، فالكريم أعطاهم أعظم النعم التي لا تنال
بالمال ولا بالجاه، أعطاهم سعادة القلب، فمَنع منهم المال الذي قد يكون سبباً
في هلاكهم وانشغالهم عنه وانغماسهم في الدنيا، وأعطاهم ما لا يُقدر بمال.
ففتح لهم باب حفظ كتابه، فسكنت السعادة قلوبهم، وهربت من قلوب
أصحاب الأموال من العصاة، فسبحان الله الكريم المنان، الحكيم في عطائه
ومنعه وفي كل أفعاله.

ومن معاني الكريم أنه يقضي الحوائج الكبيرة والصغيرة:

فالكريم على الحقيقة هو الذي لا يُخصّ بطلب الحوائج الكبيرة منه دون
الصغيرة كما في الدنيا، فقد يهتم بعض الناس بقضاء الحوائج الكبيرة دون
الصغيرة، ولكن الله ليس كذلك، فسبحانه يدبر الأمور جميعها كبيرها وصغيرها
حتى أنه يدبر أمر النملة الصغيرة التي لا تُرى، وتُرفع إليه حوائج الصغير
والكبير فإن رفع طفل يده إليه، وطلب منه حاجة صغيرة أعطاه إياه.

ومن معاني الكريم سبحانه أنه يقدر ويعضو، وإذا وعد وفى:

«الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى

الرجاء، ولا يبالي كم ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفِيَ عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق، وذلك هو الله فقط»^(١).

ولا يُضيع من التجأ إليه بالطاعة وحسن العمل، فقد قال تعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف].

ومن كرمه أن يعطي فوق المنى:

«الكريم» هو الذي إذا أعطى زاد على المنى فهو الله وحده، فقد ثبت أنه أعطى أهل الجنة مناهم، ويزيدهم على ما يعلمون، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أَعَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢)،^(٣).

فسبحانه أعطى فوق المنى فكل ما يتمناه العبد سيجد أضعافه في الجنة، ثم بعد هذا النعيم الذي يراه في الجنة سيزيدهم نعيمًا أعظم منه ألا وهو رؤية وجه الرحمن، فأهل الجنة في نعيم دائم وزائد.

ومن كرمه: أنه يعفو عن المذنبين مهما اقترفوا من الذنوب:

وهذا المعنى لا بد من معرفته جيدًا لأنه له تأثير على إيمان المرء؛ لأنه إذا علم ذلك لا يقنط أبدًا من رحمة الله، قال سبحانه: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ

(١) المقصد الأسنى (ص: ٨٨).

(٢) جزء من حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ١١٩).

أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر].

وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ من ألفاظ العموم، وتدل على أن الله يغفر جميع الذنوب بما فيها الكفر الذي هو أعظم الذنوب إلى أصغر ذنب؛ وذلك إذا تاب العبد وأتاب.

وانظر إلى قوله: ﴿يَعْبَادِي﴾ فأضاف العصاة الطغاة البغاة - الذين تجرؤوا عليه بالعصيان - إلى نفسه إضافة تشريف تحفز على ترك المعاصي وعدم اليأس من رحمته، فلو أنه سبحانه قال (يا عباد) فقط فالعباد منهم الطائع والمعاصي ولكنه قال بعد ذلك ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فدل على أنه قصد العصاة وأضافهم إلى نفسه رغم أنهم أسرفوا على أنفسهم في ارتكاب المعاصي، فوصلوا إلى حد الإسراف والطغيان ومجاوزة الحد في ارتكاب المعاصي، ومع هذا سمّاهم عباده، ولم يقل مثلاً (قل يا أيها الناس) أو (قل يا أيها العصاة) ولكنه قال عبادي حتى يُظْهِرَ سعة رحمته ومغفرته وعفوه للمذنب وقبول توبته مهما كان عِظَمَ ذنبه وإساءته فإنه سبحانه يغفر له.

وانظر إلى إكرامه وسعة رحمته مع هؤلاء المذنبين الموحدين الذين ارتكبوا ذنوبًا أوجبت لهم دخول النار، فنحن نعلم أن الذنوب تُكْفَرُ بالأمراض والابتلاءات وغير ذلك مما يلاقيه المسلم من كبد ومشاق الدنيا وفي القبر والبعث وغير ذلك من أهوال يوم القيامة، ولكن هناك عباد أسرفوا على أنفسهم في ارتكاب المعاصي وماتوا ولم يتوبوا، وكل ما لاقوه من ابتلاءات لم تكفر ذنوبهم، فهؤلاء - إن لم يعف الله عنهم - يدخلون النار ويمكنون فيها ما

شاء الله لهم ثم يخرجون منها برحمة الله؛ كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ»، قال: «فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا -»، قال: «فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي - أَوْ أَتُضْحَكُ بِي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟»، قال: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»^(١).

وفي رواية مسلم: قَالَ: «أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»^(٢)، فهذا العبد رأى من النعيم وسعة العطاء ما فاق تصوره، فقال مقالته هذه، وهذا نراه في بعض العصاة الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، فتراهم يائسًا من نفسه ولا يصدق أن الله قد يغفر له مع ما اقترف من ذنوب، وأيضًا نراه في بعض طلاب العلم يقطع الطالب باعًا في طلب العلم ثم يتوقف فهو لا يصدق أنه يمكن أن يصل ويكون له شأن في الدعوة، ولا يتصور أن مجاهدته في إصلاح قلبه ونفسه سوف تأتي بثمرة ويرتقي في الدرجات، وهذا خطأ لأنه لم يعرف من هو الكريم، فلو علم سعة كرم الله ما يئس قط من ذنوبه وإصلاح قلبه ونفسه، فهو مثل هذا العبد الذي

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧).

نحن بصده في الحديث فهو لم يصدق سعة كرم الله وظن أن الله ﷻ يستهزئ به، فلا بد أن تعلم سعة كرم الله حتى تنال من كرمه في الدنيا قبل الآخرة ولا تياس أبداً فتقطع على نفسك المن العظيم والخير الكثير.

ومن كرمه إثبات الحسنات عند الله بها فقط وبدون فعلها، ولو فعلها

ضاعفها له:

فإذا عقد المرء نيته على فعل حسنة كتبت له حسنة، وأما إذا فعلها ضاعفها الله له بعشر حسنات ويزيد لمن يشاء كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه ﷻ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»^(١).

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

ومن كرمه عدم المؤاخذه دون سن البلوغ بالسيئات وإثبات الحسنات:

فالطفل الذي لم يبلغ إذا عمل أعمالاً صالحة كتبت له حسناتها، وإذا عمل بالمعاصي لم تكتب عليه، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: رَفَعَتْ امْرَأَةٌ صَبِيًّا لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ»^(٢)، فيُكْتَبَ له أجر الحج - ولكن هذا لا يُسْقَطُ عنه حج الفريضة عند الجمهور - وهذا

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٦).

الولد نفسه الذي كُتب له أجر الحج إن أذن لا يُكتب عليه الذنب، وهذا من سعة كرم الله، تكتب له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات.

وهنا وقفة: من الناس إذا علموا سعة كرم الله تعالى وجزيل عطائه تراهم يغترون فيتجرءون على حرمان الله تعالى طمعاً في سعة كرمه ومغفرته، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار]، فالكثير فهم هذه الآية على غير مراد الله سبحانه وتعالى، فالآية ليس فيها إرشاد لجواب، فليس المراد من الآية أنه إذا سأل الله العبد لماذا تجرأت على مخالفة أوامري وارتكاب معاصي؟ فيقول العبد: كرمك يا رب غرني فعصيتك، فهذا فهم خاطئ للآية، إنما هذا من باب تهديد العاصي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار] هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال «الكريم» حتى يقول قائلهم: غرّه كرمه، بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم - أي: العظيم - حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وكاغترار بعض الجُهاال بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار].

فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهل قبيح، وإنما غره بربه الغرور وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله وهواه، وأتى سبحانه بلفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع، الذي لا

(١) تفسير ابن كثير (٣١٩/١٤) ط. دار ابن رجب.

ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به^(١).

□ آثار معرفة المؤمن لاسم الله الكريم:

الأثر الأول: أن يحاول المرء أن يتصف بالكرم ويسعى لتحقيقه على

ما يليق به:

الله تعالى يحب أن يعمل المرء بمقتضى صفاته، إذا تعامل معك الناس وجدوك كريماً في أخلاقك وأفعالك على الحقيقة وليس ادعاء، فالزم الكرم مع العباد على الدوام حتى يصبح سجية لك.

ولكن كيف تكون كريماً؟

إذا أردت أن تكون كريماً على الحقيقة فمرن نفسك على العطاء ويدك على السخاء، وخلقك على المكارم، حتى تنال خلق الكرم ويكون صفة لازمة لك.

والنفوس شحيحة - إلا من رحم ربي - قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] فنرى من يصنع المعروف لشخص ويسدي له الخير ويسارع في خدمته، وهو لا يرى هذا العطاء، بل يقابله بالجحود ونكران الإحسان، حتى أن نفسه تشح بكلمة شكر لصاحب الفضل عليه.

وهذا الشح قد نجده من بعض الأزواج، فالزوجة تتفانى في خدمته وتحسن له ولأولاده وتراعي بيته، لا يقول لها كلمة طيبة، فنفسه شحيحة حتى بالكلمة.

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٣٠).

فعليك إن أردت أن تروم الكرم عود نفسك على هذا الخلق في كل شيء، ولا يكون كرمك بالمال فقط، فكن كريماً في كلماتك وتصرفاتك وعطائك. واسع لتحقيق ذلك وابدل قصارى جهدك للتحلي به، فقد قال رسول الله: **«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»**^(١) فضع لنفسك هدفاً وجاهد حتى تصل إليه، وليكن الهدف الوصول إلى أعلى مرتبة في الخلق في جميع منازله، من العفو والإحسان والود وعدم المؤاخذه وترك الظلم وسوء الظن، وعدم الانتصار للنفس بالباطل، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة الجميلة.

الأثر الثاني: بذل النفس لله تعالى؛

فعليك أن تبذل نفسك في رضا ربك، فالصحابة رضوان الله عليهم مثال يُحتذى به، فقد حققوا أعلى مراتب بذل النفس في الله، فضحوا بالنفس والمال والزوجة والولد والبلد والعشيرة، وكل شيء.

ومن الأمثلة على ذلك:

الصحابي الجليل حنظلة في اليوم الثاني من زواجه سمع حي على الجهاد فلبى النداء وترك الزوجة وخرج من بيته وهو جنبٌ حتى لا يتخلف عن الجيش، خرج إلى القتال ليجعل كلمة الله هي العليا، فاستشهد، فأعاضه الله بأن غسلته الملائكة، ونال الشهادة في سبيل الله، وفاز بالجنة مستقر

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٠٧)، وأحمد في «المسند» (٨٩٥٢)، والبخاري (٨٩٤٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٤٣٢)، والهيثمي في «المجمع» (١٩١/٨) وصححه الوادعي في «الصحيح المسند» (١٣٨٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٥) وفي «صحيح الجامع» (٢٣٤٩).

الصديقين والشهداء والصالحين^(١).

وعبد الله بن الجموح ليس عليه حرج في ترك الجهاد لأنه أعرج، ولكنه أراد أن يَجُود بنفسه في سبيل الله، فبذل نفسه لله، فخرج إلى الجهاد في غزوة أحد فقتل هو وابن أخيه ومولى لهم، وقد رآه النبي ﷺ يطأ بعرجته الجنة^(٢). وأسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تهاجر هجرتين، الهجرة الأولى إلى الحبشة لما اشتد أذى قريش بالمسلمين، ثم تهاجر الهجرة الثانية إلى المدينة لتلحق برسول الله ﷺ، ولم تبال بأهل ولا بلد، ولا مال، ولا غيره من أمور الدنيا وحطامها^(٣).

والنماذج في هذا كثيرة جدًا تفوق الحد، فنحن لم يُطلب منا ما طُلب من الصحابة، فلم يُطلب منا أن نهاجر ونترك الأهل والولد والعشيرة وغير ذلك مما لاقاه الصحابة، وعلى الرغم من ذلك ليس عند كثير منا أقل درجات الجود بالنفس لله، فأين إجادة النفس في الله؟ فمنَ اليوم يجود بنفسه لله؟! قليل جدًا، فالنفوس اليوم أصبحت مائلة للشهوات والكسل والدعة، فنحن نبحت عن النفوس الزكية المشتغلة بالله تعالى، التي تعمل وتكد لنصرة دينه وإعلاء سنة رسوله ﷺ، فقد بات كثير من المسلمين في تخاذل وسفول همة، وبخل بالمال

(١) انظر: قصة استشهاد حنظلة رضي الله عنه في الدراية لابن حجر العسقلاني (١/٢٤٤)، ومجمع الزوائد للهيتمي (٦/١٢٦)، وصحيح ابن حبان (٧٠٢٥)، وشرح السنة (١١/٥٥)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٣٢٤)، وقال الألباني في أحكام الجنائز (٧٤): إسناده جيد، وحسنه في السلسلة الصحيحة (٣٢٦)، وإرواء الغليل (٣/١٦٧).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/٢٩٩)، وسير أعلام النبلاء (١/٢٥٤)، وزاد المعاد (٣/١٨١)، وتاريخ المدينة لابن شبة (١/١٢٨)، وصححه الألباني في فقه السيرة (٢٦٢)، وأحكام الجنائز (١٨٥).

(٣) انظر: القصة في صحيح البخاري (٤٢٣٠)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

والنفس، فبذل النفس لله من الكرم، والحرص عليها دليل شح، وهذا ينافي الكرم، فاحذر من ذلك لأن من شح بنفسه شح بماله وكلامه، وغير ذلك من أبواب الكرم، فعليك أن تدفع عن نفسك شحها وابدلها لمن خلقها، فهي عائدة إليه لا مناص، فلماذا تخاف عليها من البذل؟!

لماذا لا تستفرغ الوقت في التنقل بين دروس العلم والعمل به، من صيام وقيام الليل، وحسن معاملة الخلق، لماذا نعم أنفسنا ونتركها تتكاسل ونترك الدرجات العلى، فأين الجود بالنفوس؟!

ثم نرى البعض يصرخ عندما يجد من يحرق المصحف أو من يتجراً على كتاب الله ويريد العبث به أو يسب رسول الله ﷺ رغم أنه لم ينصر كتاب الله وسنة نبيه في نفسه ولا في أهله بأن يعمل بما فيه، ثم يبكي إذا سمع أو رأى من يطعن في دين الله.

الأثر الثالث: مقابلة الإحسان بالإحسان وأكثر منه:

فالكريم يقابل المحسن بأكثر من إحسانه، وإذا أسدى إلى أحد معروفًا صغر في نفسه، وإذا أسدى إليه معروف كبر عنده.

ما أشد احتياجنا إلى الرجوع لأخلاق النبي محمد ﷺ وأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم، فالكريم إذا فعل له معروف حتى لو كان صغيراً لا ينساه أبداً، وهذا ركن عظيم من مكارم الأخلاق، وباب لطيف في الشكر؛ لذلك قال الشاعر:

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا إِنَّهُ عِنْدَكَ مَيْسُورٌ حَقِيرُ
تَتَنَاسَاهُ كَأَنَّهُ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَثِيرُ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَةً مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَائَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعْمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَحْدُونِي بِخِيَلًا، وَلَا كَذُوبًا، وَلَا جَبَانًا»^(١).

رجع النبي ﷺ من غزوة حُنين فتتابع الناس شمالاً ويميناً حتى اضطروه أن يلتصق بسُمرة (شجرة) فيها شوك فعُلِقَ رداؤه فيها، فقال لهم ﷺ: «أَعْطُونِي رِدَائِي» وأبان لهم أنه لو كان يملك عدد الشوك الذي في هذه الشجرة إِبلاً لقسمه بينهم، وما وجدوه بخيلاً حتى لا يعطيهم من القسمة، ولا كاذباً حتى يقول لهم ما عندي وهو يملك، ولا جباناً لأن هذه الصفات صفات الجبناء، ولكن انظر إلى حسن خُلُقهِ ﷺ وسعة صدره وصبره على جفائهم وما فعلوه فيه بأنه تلقى ما فعلوه فيه دون غضب عليهم، ولكنه أبان لهم بكل رفق أنه لا يملك شيئاً.

وهذا الحديث ليس فيه تزكية للنفس، ولكنه كما قال العلماء: يجوز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة، فلو كنت ذا مكانة وقابلك جاهلٌ لا يعلمك فيجوز لك أن تخبره بخصالك الحميدة حتى لا يظن بك ظن السوء؛ لأن النبي ﷺ دفع عن نفسه ظن السوء وأخبرهم أنه ليس من خصاله البخل والكذب والجبن، فإذا سمعت شخصاً يتكلم عن صفاته الحميدة عند الحاجة فلا تظن فيه أنه يمدح نفسه ولكنه احتاج إلى أن يقول ذلك وهذا جائز.

وأيضاً عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرُذَّةٍ، فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١-٣١٤٨).

سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكُسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ، فَاكْسُنِيهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَامَهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنَتْ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا ^(١).

يروى الصحابي سهل بن سعد على جلسائه أن امرأة دخلت على النبي ﷺ ومعها بردة أي كساء من صوف يلف على البدن كله، وأعطتها للنبي ﷺ كي يلبسها، فراها على النبي ﷺ أحد الصحابة فأعجب بها وطلبها منه ﷺ، فانظر إلى كرمه ﷺ أعطاها له ولم يتردد مع حاجته إليها، وهذا هو الكرم على الحقيقة أن تعطي مع الحاجة، فعاتبه القوم على أخذه إياها من رسول الله ﷺ فبين لهم أنه لم يكن طمعاً فيها ولكنه أراد بركتها.

انتبه: البركة الحسية سواء من الجسد أو الشعر أو العرق لا تؤخذ إلا من النبي ﷺ فقط فهي من خصائصه، فلا يجوز التبرك بالشيخ الفلاني بالشرب من سوره أو بأخذ ثيابه التي يلبسها متبركاً بها، فهذا لا يجوز شرعاً، فحتى الصحابة رضوان الله عليهم ما كان أحد يتبرك بهم مع منزلتهم التي لم يبلغها أحد من بعدهم.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٦).

الأثر الرابع: إكرام نعم الله جلّ جلاله:

كل مكلف مسئول أمام الله عن إكرام النعمة بأن يصونها بآلا يضعها في غير محلها، فالمال نعمة لقول النبي ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»^(١) فالرجل المدخن الذي يصرف ماله ليتعاطى الدخان أو المخدرات، لم يكرم نعمة المال لأنه وضعها في غير محلها، وهذا مؤذن بزوالها أو نزع البركة منها، ومن إكرام النعم أيضًا أن يسلك بها طريق الله وسنة رسوله ﷺ فيستعين بها على سلوك طريق الحق، وكذلك نعمة الصحة والولد لا تضعها في غير موضعها بل لا بد أن توضع في موضعها.

الأثر الخامس: إكرام الأبوين وذوي القربى:

فالكريم تراه مسارعًا في إكرام والديه وبنيه وأقاربه، فلن ترى كريمًا عاقًا لوالديه أو مهملاً لتربية أولاده أو قاطعًا لرحمه، فهذا لا يكون كريمًا بل يدعي الكرم؛ لأن هذه الخصال الذميمة تنافي الكرم.

ولكن كيف نكرمهم؟

أعظم كرم تُكرم به الوالدين أن تعينهم على تعليم دينهم وما افترض عليهم، ولا يثبت على هذه المشقة إلا من تحلّى بالصبر في تعليمهما شيئًا فشيئًا برفق ولين وقد لا يستجيبان، ولكن الكريم يداوم النصح ولا ينقطع صبره، ويسلي نفسه بمعرفة أجر الصبر عليهما.

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، والبيهقي في الشعب (١١٩٠)، والهيثمي في المجمع (٣٥٦/٩)، وابن حجر في الإصابة (٣/٣) وقال: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٢٩).

أما إكرام الأبناء:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم].

فعليكم أيها الآباء أن تؤدبوا أبناءكم بمحاسن الإسلام، ولا يصدنكم كثرة انتشار الأخلاق الذميمة عن تعليم أبنائكم مكارم الأخلاق. ولا بد من تعليمهم عدم مقابلة السيئة بالمثل، فالكریم لا ينتظر جزاء من البشر ولكنه يُكرم حتى من يسيء إليه.

فمن البلاء الذي أصاب بعض الآباء أنهم يربون أبناءهم على المعاملة بالمثل، فالأم تربي ولدها من أتى لك بهدية ردها له، وإذا لم يأت لك فلا تهاديه، ومن ضايحك ضايفه وهكذا، فعلمت الولد الشح وترك المسامحة وعدم الكرم وأن يعمل بمقابل، وإذا كان شحيحاً مع الناس ستره شحيحاً مع الله، فلن يعبد ربه إلا بمقابل، وإذا منع الله عنه شيئاً لحكمة انقلب على وجهه وترك الطاعة.

ولذلك نجد بعض أصحاب الابتلاءات قد أعرضوا عن طاعة الله، رغم ما بهم من ضر، فكان حريّ بهم أن يتضرعوا إلى ربهم ليرفع ما نزل بهم من كرب، ولكنهم يقولون بلسان حالهم لماذا نقبل على الله ونطيعه ونحن نزل بنا الضر من مرض وفقر، فالله لم يعطنا شيئاً نعبده من أجله، فهو لاء لا يقولون ذلك بألستهم، ولكنه مستقر في أنفسهم وهذا نتيجة الجهل، وأنهم تربوا على الشح ولم يربوا على الكرم، فإذا أعطاهم الله ووسّع عليهم عبوده

وشكروه، وإذا منع عنهم شحوا بالطاعة، ولو أمعنوا النظر لوجدوا نعم الله عليهم لا تعد ولا تحصى، فلا بد من تربية أولادنا على العطاء والسخاء وعدم الالتفات لما يفعله الآخرون سواء قابلوا هذا الكرم بالإحسان أو قابلوه بالإساءة، نعلمهم أنهم يعملون لله ولا ينتظرون أجراً من الخلق، ويكون شعارهم قوله تعالى: ﴿لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝١﴾ [الإنسان] فيكفيهم أن يكونوا كرماء ويتحلوا بصفة يحبها الله ﷻ.

وقد علم النبي ﷺ الأبوين كيف يكرموا أولادهم فقال: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(١).

وليس كرم الأبناء كما يظن بعض الآباء أن يؤذن الفجر فيترك الأب ابنه ولا يوقظه للصلاة بدعوى أنه ما زال صغيراً، فهذا عقوق بهم سيسأل عليه الآباء، فغاية الإكرام أن تعلم ابنك الصلاة وتنقذه من النار، فهل هناك كرم بعد ذلك؟! فليس الكرم أن تغدق عليه بالمال وبالهدايا ثم تتركه ولا تعلمه ما أمر الله به، بل كثرة التدليل للأبناء وتلبية جميع مطالبهم سبباً في إفسادهم وتعليمهم الأنانية والملل؛ لأن طبيعة الإنسان أنه يسعى للمفقود، فلو ملك كل شيء سيصيبه الملل، وأيضاً هذا الابن لن يشكر نعم الله لأنه تعود أن يأخذ ولا يُعطي، فلو من الله عليه بكثير من النعم فلن يشكره؛ لأنه اعتاد أن يأخذ ولم يعتد العطاء، فلا بد من حكمة مع الأولاد وإحسان تربيتهم وتعليمهم الكرم والعطاء وحفظ حدود الله، فهذا كرم الآباء للأبناء.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (٦٦٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦٨).

الأثر السادس: إقالة العثرات والتجاوز عن الهفوات:

إقالة العثرات مطلب من كل إنسان كريم ذي خُلُق، فلو كنت كريماً على الحقيقة أقلت عثرات الخلق إذا أساءوا إليك أو انتقصوا من حقك والتمست لهم العذر، فلا تتربص بهم وتعد عليهم الزلات والهفوات. فعلياً عند معاملة الناس ألا ننسى أنهم بشر وليسوا ملائكة معصومين وهم معرضون للخطأ.

وخاصة من كان منهم من أهل العلم فهم أولى الناس بحسن المعاملة وحسن الظن بهم.

فإن تعاملت مع شيخ له منزلة، شهد أهل الفضل على صلاحه، فلو صدر منه هفوة فلا تسقطه وتشنع عليه، بل لا بد أن تقبل عثرته إن كنت تحليت بصفة الكرم.

قال أبو عثمان: من عاشر الناس، ولم يكرمهم، وتكبر عليهم، فذلك لقلة رأيه وعقله؛ فإنه يعادي صديقه، ويكرم عدوه، فإن إخوانه في الله أصدقاؤه، ونفسه عدوه^(١).

إذا أطعت نفسك فإنك إذن لم تكرمها، لأنك عرضتها للمساءلة والمؤاخذه بين يدي الله تعالى وحرمتها الخير الذي قد يكون سبباً في دخولها الجنة ونعيمها.

فإكرام النفس على الحقيقة أن تحملها على مكارم الأخلاق وحفظ حدود الله والبعد عن مناهيه، والالتزام بالتقوى، ومن يفعل ذلك فهو ذو عقل راجح،

(١) آداب العشرة لأبي البركات محمد الغزي (ص: ٢١).

وأما السخيف ضعيف العقل والرأي لا يفهم هذه المعاني، فهو يكرم نفسه بصور ظاهرة تضرها، ولكن صاحب العقل الرصين يكرمها بما يوافق الشرع فلا يزال يؤدبها ويجاهدها ويحملها على الكرم حتى يدخلها الجنة.

اعلم أن السابقين ومن اصطفاهم الله وفضلهم وجعل لهم منزلة عنده لو

تأملت القرآن لوجدت أنهم اجتمعت فيهم صفتان وهما الكرم والشجاعة:

ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم حتى إن ذلك عامة ما يمدح به الشعراء في شعرهم، وكذلك يتدأمون بالبخل والجبن^(١).

فإذا نظرت في دواوين الشعراء وجدتهم يتمادحون إما بالكرم وإما بالشجاعة وهذا الغالب عليهم.

فصلاح بني آدم في دينهم ودنياهم لا يكون إلا بالكرم والشجاعة، فيقاتل المسلم بشجاعة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بشجاعة مع حكمة، وإذا أخطأ اعتذر بشجاعة، فالغالب عليه في جميع مواقف حياته الشجاعة والكرم.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، فمن يتولى عن القتال ولا يبذل نفسه في سبيل الله سيُستبدل بمن هو أشجع منه، وكذلك من تولى عن الإنفاق سيُستبدل بمن ينفق لله، وقد يكون ليس عنده من المال ما عند الآخر، فمن شح بماله أعرض عنه الرب تبارك وتعالى، فهو غني عن العالمين، قال تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٤).

هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [محمد].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] فالبدائية تؤلم القلب وآخرها مشتمل على كرمه ﷺ، فقد بين الله سبحانه أنه لن يستوي من قاتل قبل الفتوحات وبذل الغالي والنفيس بمن جاء بعده، وكذلك لا يستوي من ترك المحرمات في الصغر ونذر شبابه لله بمن ترك بعدما كبر في السن -إلا أن يعفو الله ويكرم- وهذه الآية فيها حث للمسارعة في الخيرات والقربات والطاعات التي تقرهم من الله، وليعلموا أن الأجر كبير، ولا يستوي أيضاً من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في نصرة دين الله بكل الطرق بمن يمضي وقته وعمره في سفاسف الأمور.

ومن نظر في سير السلف الصالح وما قدّموه من بذل في نصرة هذا الدين وما عملوه من أعمال صالحة وقرأت هذه الآية فإن القلب يتألم لأننا لن نكون مثلهم عند الله -إلا أن يشاء الله شيئاً- فإذا وقفنا يوم القيامة بجانب هؤلاء الأكابر -الذين أجزلوا العطاء- ووزنت أعمالنا الضئيلة التي لا تتعدى (واحد على المائة) من أعمالهم فما موقفنا؟ ويا ليتنا نستقيم حتى على هذه الأعمال الضئيلة، ويا ليتها سلمت من الآفات الذميمة من عجب ورياء وغير ذلك من محبطات الأعمال.

فأعمالنا قليلة غير مستديمة فكيف نقف بجانب هؤلاء القوم العظام؟!

نسأل الله أن يتغمدنا برحمته منه وفضل.

ولكن نهاية الآية تبعث الرجاء في النفس وسعة كرم الله تعالى ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي دخول الجنة.

فوائد الكرم:

الأول: يدل على كمال الإيمان وحُسن الإسلام؛ فالكرم يصل بصاحبه إلى كمال الإيمان.

الثاني: يدل على حُسن الظن بالله تعالى؛ فالكريم حَسَنُ الظن بالله تعالى لأنه واثق في الله ثقة كاملة ليس فيها شك من أي وجه أن ما يبذله الله مردود عليه أضعاف أضعاف ما بذل.

الثالث: الكريم له الكرامة في الدنيا ورفع الذكر في الآخرة.

الرابع: الكريم محبوب من الله الخالق الكريم، قريب من الخلق أجمعين، فالكريم يحبه الله والناس، فهو قريب إلى قلوبهم حتى أعدائه وإن لم يحبوه لكنهم لا يستطيعون ذمه.

الخامس: الكريم قليل الأعداء والخصوم؛ لأن خيره منشور على العموم، فنفعه متعد غير قاصر، إذا كان لك عدو وكنت كريماً وأحسنْتَ إليه مرة بعد مرة فإنه إن لم يحبك ستنطفئ نار حقدِه عليك بالعطاء والسخاء.

السادس: حُسن ثناء الناس عليه؛ لأن الكرم صفة حميدة، والناس مجبولون على حب الصفات الحميدة.

السابع: الكرم يدل على زهد العبد في الدنيا؛ فلو حققت الكرم على الحقيقة من كل وجه لزهدت في الدنيا، فلن تجد قلبك معلقاً بالدنيا؛ لأنه لا

يجتمع الكرم وحب الدنيا في قلب إنسان، فالدنيا قصير عمرها، حقير شأنها، ولكننا تعلقنا بها لضعفنا وميلنا للشهوات وكثرة المغريات، والذي تحلى بالكرم رجع إلى فطرته بعدم التعلق بها.

الثامن: الكريم يُبارك له في الرزق والعمر؛ وهذه من فوائد الكرم في الدنيا بركة في الرزق وبركة في العمر؛ لأن الكريم كثير الإنفاق وقد وعد الله سبحانه وتعالى بمضاعفة المال للمنفق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا]، وأيضاً بركة العمر من حديث النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(١)، والكريم حمله كرمه على صلة الرحم فبورك له في رزقه وعمره، ومن بركة العمر أن ما يفعله غيره في أسبوع يفعله هو في يوم، وقد حكى ابن القيم عن البركة التي كانت عند ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وأنه كان يُحصِّل في اليوم الواحد من العلم ما يُحصِّله غيره من العلماء في أسبوع ويزيد، وهذه البركة جاءت من الكرم فهو يزيد العبد بركة في العمر والصحة والمال والوقت والأولاد وغير ذلك.

فالكرم صفة جميلة محمودة مشكورة من الله مشكورة من العباد لأنها ابتداء صفة الرحمن الكريم؛ لأننا ذكرنا أن كل اسم لله يدل على صفة له، فكيف لا يكون للكرم كل هذه المميزات وهو صفة للرحمن؟!

فعليك أيها المسلم أن تسعى بكل ما أوتيت من قوة وما ملكت من مقومات حتى تتحلى بهذه الصفة فتبذل الوقت والجهد في تحصيلها على

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

المعاني التي ذكرناها حتى تكون من الكرام الذين سيكرمهم الله في الدنيا وينجيهم في الآخرة ويدخلهم جنات النعيم بكرمه وإحسانه؛ لأنه وحده الكريم على الحقيقة.

تم بمنة الله وفضله الجزء الثاني من الكتاب.

فہرست
المحتویات

فَهْرِسْتَنُ الْحَقِيقَاتِ

٥	مقدمة.....
٧	١٨- اللطيف.....
٤١	١٩- الرزاق.....
٦٢	٢٠- المؤمن.....
٨٧	٢١- السلام.....
١١٩	٢٢- الحكم.....
١٤١	٢٣-٢٤- العليم والعالم.....
١٦٥	٢٥- الحفيظ.....
١٩٧	٢٦- الحليم.....
٢١٩	٢٧- الفتاح.....
٢٤٣	٢٨-٢٩-٣٠- الملك والمليك والمالك.....
٢٦٥	٣١-٣٢- القاهر والقهار.....
٢٨٧	٣٣- القدوس.....
٣١٣	٣٤- الحكيم.....
٣٤٧	٣٥- الودود.....
٣٧٥	٣٦-٣٧-٣٨- الأعلى- العلي- المتعال.....
٣٩٧	٣٩- الحسيب.....
٤١٩	٤٠- الجبار.....

٤٤٩	 ٤١-٤٢- الكريم والأكرم
٤٨٥	 فهرس المحتويات

*** **